صلاح قنصوه

تمارين فى النقد الثقافى

دار ميريت
القاهرة ٢٠٠٧

الفهرس

تمارين فى النقد الثقافى

تمارين فى النقد الثقافى

صلاح قنصوة

الطبعة الأولى ٢٠٠٧

٦ (ب) شارع قصر النيل، القاهرة
تليفون / فاكس: ٥٧٩٧٧١٠ (٢٠٢)
www.darmerit.net
merit6@hotmail.com

الغلاف: **أحمد اللباد**

المدير العام: **محمد هاشم**

رقم الإيداع: ٢٠٠٧/٧٥٣٦

الترقيم الدولى: 977-351-357-2

بدلا من المقدمة:

ماذا نقصد بالنقد الثقافي؟

النقد الثقافي مصطلح حديث جدا، ولم يقدر له الذيوع أخيرا إلا بمقدم المتغيرات والعوامل التي أدت إلي العولمة وما بعد الحداثة، فلا يعد نتيجة لهما بقدر ما هو شريك ينبع من نفس المصادر، وينتسب إلي ذات المناخ.

وهو ليس منهجا بين مناهج أخري، أو مذهبا أو نظرية، كما أنه ليس فرعا أو مجالا متخصصا من بين فروع المعرفة ومجالاتها، بل هو ممارسة أو فاعلية تتوفر علي درس كل ما تنتجه الثقافة من نصوص سواء كانت مادية أو فكرية، ويعني النص هنا كل ممارسة قولا أو فعلا، تولد معني أو دلالة.

فالجديد في النقد الثقافي هو رفع الحواجز بين التخصصات والمستويات في الممارسات الإنسانية لأنها تنتمي جميعا إلي الثقافة التي هي مجمل صنيع الإنسان في البيئة الطبيعية، ومن ثم ينكر النقد الثقافي التفرقة التقليدية المألوفة بين القاعدة(البناء التحتي) والبناء الفوقي، وكذلك التمييز بين الواقعي والأيديولوجي، أو بين المادي والروحي فالثقافة اسم جمع يصدق علي أمور متباينة تضمها تسمية واحدة.

ولا يعني النقد كشف الإيجابيات والسلبيات، بل يشير إلي ما يقصده الفيلسوف كانط بالنقد وهو بيان الإمكانيات المتاحة، والحدود التي ينبغي الوقوف عندها في إنتاج أو استقبال الدلالات للممارسات التي تحمل معني في كل السياقات الثقافية، ويتبدي ذلك في إجراءات التفكيك والتحليل والتفسير. فمجال النقد الثقافي إذن هو ما يسمي بالدراسات الثقافية وهي مفهوم حديث نسبيا بما ينطوي عليه من دراسة الثقافات الرفيعة والشعبية والفرعية والأيديولوجيات والأدب وعلم العلامات، والحركات الاجتماعية، والحياة اليومية، ووسائل الإعلام، والنظريات الفلسفية والاجتماعية ونحوها، علي أن يتخذ من كل ذلك أدوات للتحليل والتفسير دون هيمنة لإحداها علي سائرها، أو استبعاد متعمد لبعضها. بعبارة أخري، لايمارس النقد الثقافي عمله وكأنه خطاب متخصص مثل الخطاب الفلسفي أو السياسي أو

الاقتصـــادي...إلخ، الذي يتناول الواقع القائم بمنظور ذلك الخطاب وأدواته، فلا يمكن التسليم بوجود واقع خارج الممارسات المولدة للمعني، وهي جميعا وسائط ثقافية.

وقــد نشــأ مصـــطلح الدراســـات الثقافية عام١٩٧١ عندما بدأ مركز الدراســات الثقافــية المعاصرة بجامعة بيرمنجهام في نشر صحيفة "أوراق عمـــل فــــي الدراســـات الثقافية" ولكنها لم تستمر طويلا. ولقد سبق ذلك ما اســـتخدمه عالم الاجتماع بيرنباوم، وهو من اليسار الجديد في ستينات القرن الماضـــي، مـــن مصـــطلح التحليل الثقافي، وقصد به دراسة التعبيرات أو التمــثلات الرمزية والأيديولوجية عن موقف تاريخي معين، بوصفها جزءا مـــتكاملا ومحددا لهذا الموقف. فهو يري أن هذه التمثلات لاتعكس ببساطة الضـــغوط الماديـــة، بل قد تستبق أو ترهص، أو ربما تخلق إمكانيات مادية جديـــدة للمواقف التاريخية. ولا يعني التحليل الثقافي في نظره مجرد تكرار للقـــول القديـــم بالتفاعل بين القاعدة والبنية الفوقية، بل هو يمثل تأثيرا علي الماركســـية نفســـها، واكتشـــافا جديدا، فبدلا من تحليل الوعي، ينبغي تحليل الثقافة.

ولـــم يقدر للتحليل الثقافي أن يكون ذا خطر أو أهمية إلا عندما تحددت القســـمات الحديـــثة للمـــناخ الفكري في التسعينات، فخبا حماس الماركسيين الجـــدد في التفرقة بين القاعدة والبناء العلوي، فعندئذ أقبلوا علي النقد الثقافي دون تصريح بالمصطلح، فهذا تيري ايجلتون عام٢٠٠٠ يؤلف كتابا بعنوان "فكـــرة الـــثقافة"، ومـــن قبله بخمسة أعوام يختار فردريك جيمسون عنوان "المنعطف الثقافي" لمجموعة مقالاته عن ما بعد الحداثة التي يعتبرها المنطق الثقافي للمرحلة الأخيرة للرأسمالية.

ولايهـــم الموقـــف أو وجهـــة الـــنظر التي يتخذها المفكر لكي يشتغل بالنقد الثقافـــي، ففـــي ساحته الفسيحة تختلف الآراء، ولكن يبقي في النهاية أسلوب المواجهة للموضوعات، وكذلك الاتفاق إلي حد كبير علي استعمال الأدوات نفسها.

بعـــبارة موجـــزة، يعمـــل الـــنقد الثقافي علي مهاد متسع من منجزات وتطـــورات العلـــوم الاجتماعية والإنسانيات والعولمة وما بعد الحداثة، ولا نبالغ كثيرا إذا ما زعمنا أنه المرحلة الراهنة الأخيرة للاشتغال بالفلسفة.

العولمة والنظام العالمي الجديد

نخلـط كثـيرا بيــن العولمة والنظام العالمي الجديد ونجعل منهما شيئا واحدا. فمصطلح النظام العالمي الجديد يعود إلي الرئيس بوش الأب بعد أن فــرغ مــن تأديــب النظام العراقي في حرب الخليج الثانية، وخلو المسرح السياســي من الشرير السوفييتي، وكلمة نظامOrder التي استخدمت تعني أيضـــا الترتيب، والأمر، ومعني هذا أن العالم علي امتداد تاريخه حتي اليوم يمــثل تعاقبا للنظم العالمية التي تسيطر فيه دولة ما علي دول أخري كثيرة، فهــنا يشير الترتيب بين الدول إلي مركز وأطراف، كما يعني "الأمر" هيمنة دولة ما علي أخرى.

وهو نظام جديد لأنه جاء بعد اختفاء قطب آخر منافس كان هو المركز بالنسبة لأطراف أخري، وكان يمثل هيمنة علي دول تابعة له.

أما العولمة، فهي صيغة أخري ومختلفة تماما عن النظام العالمي، فعلي حيــن تهيمــن دولـــة ما علي غيرها بما تملك من نفوذ اقتصادي بشركاتها القومية وبنصيبها الكبير في الشركات المتعددة الجنسيات أو القوميات، تعتمد العولمـــة علـــي الشـــركات المتعدية أو المتجاوزة للقوميات، أي التي لايهم أصـــحابها مصـــالح دولهـــم بل يكون انتماؤهم رهنا بتلك الكيانات المستقلة الجديدة.

وللعولمـــة، وجهـــان، الأول هو الاقتصادي وما يتبعه سياسيا، والثاني ثقافي، فأما الوجه الأول فلم ينجز بعد مهامه التي تتمثل في سيادة الشركات المـــتعدية الجنسية، وليست المتعددة، وهذا من شأنه، إذا ما تم، أن يؤدي إلي تحـــولات فادحة في دور الشركات والمصالح القومية، فضلا عن مؤسسات الدولة الراهنة مما يفضي بدوره إلي التأثير في سائر المؤسسات.

أمـــا الجانب الثقافي فقد كان حظه موفورا بما حققته الأدوات العولمية التكنولوجـــية من تغيير بالغ الخطر في قنوات التواصل والتداول بين الأفراد حيث أوشكت علي نسف المسافات بين أطراف العالم.. وتسمي هذه الأدوات بالنانوتكنولوجيا أي التكنولوجيا خاطفة السرعة (النانوثانية= جزء من بليون مـــن الثانـــية)، وكذلـــك التيلتكنولوجيا أي المؤثرة عن بعد، ومن ثم أوشك الإنســـان علـــي قهـــر فاصل الزمن وبعد المكان كما تتبدي بعض آثاره في الســـماوات المفتوحة، والتعامل مع برامج الكومبيوتر، والإنترنت علي سبيل المثال.

غير أننا اليوم، وهذا سر الخلط بين الأمركة (أي النظام العالمي الجديد) وبيـــن العولمـــة، نجتاز مرحلة تمفصل مازال الجديد مشتبكا فيها مع السائد القديـــم، فـــثمة مفصـــل يربط بينها وهو ما نتبينه في تطور الرأسمالية إلي الاقتصـــاد المالـــي بـــدلا من الاقتصاد العيني لسهولة نقله وتداوله، وسرعة معـــدلات دوران العملات والتوظيفات المالية، والاتجار في العملات استنادا إلـــي المضـــاربات وألعاب الحظ والمصادفة مما حفز علي تسميته باقتصاد الكازيـــنو أحيانا واقتصاد الفقاعات أحيانا أخري، وكان من نتيجة ذلك تركز الأصـــول المالـــية والإنتاجية بتأثير حركة الاندماجات بينها في صور نشاط مشـــترك، وتقسيم الأسواق، وتخليق كيانات عملاقة تضم مصارف وشركات تابعـــة للعمل في مجالات متنوعة، وكان لابد لهذه الاندماجات أن تسلم إلي انخفـــاض المنافسة في بعض ميادين الاقتصاد العالمي بسبب سيطرة قلة من الشـــركات علـــي هذه الميادين، وبطبيعة الحال ماتزال الدول الغربية وعلي رأسها أمريكا تستأثر بالغلبة والنفوذ في نطاق مصالحها القومية.

وبيـــنما تتضـــاءل المسافات والفواصل في هذا الاقتصاد المالي، تتسع الهوة بين الأغنياء والفقراء، وتزداد البطالة بين الشباب.

وحينـــئذ يمكـــن أن نتفهم مقاومة الشباب ومظاهراتهم المنددة بالعولمة فـــالعدو الحقيقـــي لـــيس العولمة، بل هو النظام العالمي بقيادة أمريكا الذي يستغل أدوات العولمة ووسائطها. ولا يعني هذا أن العولمة أفضل من النظام العالمـــي الجديد ولكنها تعني أنها تؤدي إلى نتائج أخري إذا ما أنجزت شقها الاقتصـــادي، أهمها نهاية الهيمنة علي توابعها، وانفراط المركزية الغربية، وزوال القبضـــة القومـــية للدولـــة، وانحسار وظائفها. وبدلا من الهيمنة أو التبعية، سيكون الاختيار بين المشاركة أو التهميش.

ومهما يكن من أمر، فقد تحقق الكثير من نتائج العولمة الثقافية مما تنبئ بـــه حـــال السيولة والفوضى، وغياب المعايير. فالعالم، كما يقول برجنسكي يغلـــب عليه الشمول والتفتت معا مما أدي إلي نشأة العديد من الجيتو داخل إطـــار البلد الواحد، فقد أحدثت الثورة في التكنولوجيا الإلكترونية أزمة توتر بين الإنسان الداخلي والإنسان الخارجي، كما أن تدفق المعلومات أو انفجار المعـــرفة يـــؤذن بخطر التشظي الفكري بازدياد حالة عدم اليقين كلما ازداد التوسع المتاح للمعرفة. وربما تسمح الخشية من عجز الإنسان علي التكيف

مـــع الـــتعايش بين المجتمعات أو الثقافات المتفاوتة؛ ربما تسمح بتقويض ما كان يعد من قبل جوهرا إنسانيا واحدا لايمكن المساس به.

ومـــن هـــنا يشتد حنين الإنسان المعاصر إلي خصوصية حميمة حينما يحـــيا فـــي بيئة متشابكة مربكة وخالية من الخصوصية أو الهوية القومية، وذلك إزاء الزوال القريب للدولة- الأمة.

كمـــا يؤكد توفلر علي ذلك بتنويعة مختلفة بقوله ببزوغ الخصوصيات الثقافـــية لكـــل إقليم أو منطقة مع إثارة المشكلات العرقية ونشوب الحروب الأهلـــية، ويـــرد ذلـــك إلـــي تفكك المجتمع الجماهيري، أي مجتمع الجملة المتكـــتل، وقيام ما أسماه بديموقراطية الموزايكو، وكأننا إزاء طبق سلاطة تخـــتلط فيه المكونات محتفظة بتفردها ضد التجانس القديم، أو ضد ما يسمي بـــبوتقة الانصهار التي تواجه مقاومة متزايدة.

وربمـــا كـــان مـــن علامات الانشقاق عالية النبرة ما نصادفه اليوم من الأهمـــية المتصـــاعدة للمجـــتمع المدني المحلي والعالمي، وجماعات حقوق الإنســـان، وكذلـــك النزعات الجديدة مثل النسوية وغيرها ويضاف إلي ذلك النزعات الأصولية الدينية.

العلوم الاجتماعية وما بعد الحداثة

كـــان علـــم الـــنفس وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا أشد فروع العلوم الاجتماعـــية تأثـــرا بالعولمة وما بعد الحداثة في السنوات الأخيرة من القرن الماضي وبدايات هذا القرن، ويفصح علم النفس عن ذلك التأثير في مجالين، الأول فـــي الفروع العلمية الجديدة التي توصف بأنها ثقافية، مثل علم النفس الثقافـــي، وعلـــم النفس عبر الثقافي (أو التبادل الثقافي) الذي يستند إلي علم نفـــس الشعوب، وعلم النفس المجتمعي (وليس الاجتماعي) وعلم النفس البين ثقافـــي، وكذلك علم النفس الانثروبولوجي، والانثروبولوجيا المقارنة. وتتفق هـــذه الفروع جميعا علي أن الثقافة مكون رئيسي في فهم السلوك الإنساني. ويقـــول أصحاب علم النفس (دون أن نضيف إليه وصفا أو تخصصا بعينه) أنه إذا ما وضع في عين الاعتبار أثر الثقافة علي السلوك الإنساني (وكذلك العكـــس) فلن نغدو في حاجة إلي تخصيص علم نفس ثقافي لأن علم النفس، بوصفه كذلك، سيتعهد بهذه المهمة تلقائيا.

والمجـــال الثاني لعلم النفس هو نظرية الشخص، أو الذات، ولقد برزت نظـــريات جديـــدة تماما في هذا الصدد، وانقلبت علي المفهوم التقليدي الذي كـــان يجعـــل مـــنهما هوية وذاتا مكتفية بذاتها علي نحو ما تكون متجانسة داخلـــيا، ومتمـــيزة عـــن غيرها خارجيا، فلقد كان هذا امتدادا وتطبيقا لفكر النزعة الإنسانية المتمثلة في الأنا الديكارتية، والفكر الفردي النزعة مما أدى إلى إسقاط مفهوم "الشخصية".

ولهـــذا خرجـــت نظرية الذات الحوارية التي تتجاوز الفردية والعقلانية كمـــا يقول أصحابها هرمانس، وكمين، وفان لون من هولندا، فهم يرون أن الطـــابع الفـــردي والعقلاني للنظريات السيكلوجية عن الذات (Self) إنما يعكس نظرة المركزية العرقية الأوروبية للشخصية، بينما يرون علي نقيض ذلـــك أن الذات يمكن أن تدرك بوصفها حوارية بحيث تمثل أصواتا متعددة داخلهـــا ممـــا يـــتجاوز كلا النزعتين الفردية والعقلانية، كما يقدم سامبسون مـــراجعة وتنقـــيحا لمفهوم النظام الشخصي والاجتماعي تحت ما يسميه لا مركـــزية الهويـــة (أو الذاتية المنقسمة)، وهو بذلك باحث ينتمي إلي ما بعد البنـــيوية لأنـــه يـــرفض البنية المركزية والمتوازنة للشخصية التي هي في صـــيرورة متصلة، وأسهم هازل ماركوس وبولا نوربوس في طرح مفهوم الـــذوات الممكنة في مجال معرفة الذات، وتشتق الذوات الممكنة من تمثلات (أفكار) الذات عن نفسها في الماضي وفي المستقبل، وهي تختلف وتنفصل عـــن ذوات اللحظة الراهنة، والفرد حر في خلق تنوع من الذوات الممكنة، ولكـــن الحوض الذي تتجمع فيه يتألف من المقدرات التي يجعلها الفرد مهمة رفـــيعة الشـــأن عن طريق السياق الاجتماعي- الثقافي والتاريخي الخاص بالفـــرد، وبوساطة النماذج والصور والرموز التي تتيحها له وسائل الإعلام، وبمقتضي خبراته الاجتماعية المباشرة.

ويـــبدو مـــن تلك التطورات الأخيرة في علم النفس سمة مشتركة وهي تفكـــك الـــذات وانقسامها، وخروجها من عزلتها الداخلية إلي فضاء الثقافة المتعدد الجوانب.

ونجـــد مثل ذلك في علم الاجتماع والأنثروبولوجيا، فيعتقد ويلسون في أن الحـــوار والـــتعاون في البحث مع الزملاء من البلدان الأخري يمكن أن يعجـــل بتحقـــيق ما يسميه بـــالمقافزة Consilience التي تعني القفز معـــا للخـــروج من التخصصات المعزولة لتحقيق النتيجة التي يثمرها ربط

الوقائع بالنظرية المؤسسة علي الوقائع عبر الفروع المختلفة والمنوعة لخلق إطـار مشـترك للتفسير، فالقفز معا أو المقافزة العولمية هي التحدي الذي يواجه الباحثين في الألفية الراهنة كما يقول.

ويطـرح أبا دوراي مفهوما عن الانديياح (أو اتساع المشهد) الثقافي من ثـنايا الانديـاح الاعلامـيMediascape والفكـري، والتكنولوجي، والعرقـي، والمالي، ولابد في نظره من درس المشهد العام بأسره وليس في بلد دون الآخر، أو ثقافة دون أخري.

ويوثـق روبرتسـون بيـن العولمـة والمحلية في مصطلح واحد هو العولمحلية، لأنه يري أن العولمة لا تمتد بنفوذها إلا من خلال ماهو محلي.

ويـتفق الباحثون في تلك العلوم علي أن الفردية أو الأنا لم تعد الوحدة الاجتماعـية للتحلـيل والتفسـير، فالإنسان ليس فردا يملك أدوارا، بل هو مجمـوع أدواره، كمـا أن الأشـخاص كـيانات تـتحدد هوياتهم بمواقعهم الاجتماعية.

كمـا يعترفون بأن اجتهاداتهم واكتشافاتهم مساوقة لحقبة ما بعد الحداثة فهـي تعـبر عـن مـناخ افتقد فيه اليقين، والتحديد، وتحللت فيه النظريات الكـبري، فهي إذن مجموعة النتائج المترتبة علي انقشاع الأوهام التي كانت تحكمنا كحقائق مطلقة تنتظم وفقا لها الأمور جميعا، وتدور حول مركزها.

فلـم تعد ثمة سلطة نهائية، ومن هنا سادت الأناركيا أي اللاحاكمية، أو اللاسـلطة الـتى ترجمـت من قبل بالفوضوية، كما ذاعت البارالوجيا أي الخـروج عـن مركز التخصص إلي الهوامش التي تشتبك بسائر الأشياء، وضـد التصـنيف الذي هو قهر وتحديد مسبق، لأنه تقرير جازم، وتكرار ملح.

ولئن كان الواقع متعدد الأبعاد، فإن اللغة التي تعبر عنه، ونتواصل بها أحاديـة البعد، ولا سبيل إلي تطابقهما، ولا يمكن فهم ذلك الواقع عن طريق التفكير فيه أو التفاعل معه دون شفرات السياق الثقافي ووسائطه وأعرافه.

ولأنـنا فـي مرحلة انقشاع الأوهام فقد انصرفنا عن تشييد صروح من المذاهب أو النظريات الكبري، كما كان الحال سابقا، وليس في مقدورنا، إن آثـرنا الأمانة والمصارحة إلا أن نغرس أوتادنا بثقة وثبات في تلك الأرض الزلقة مما يتيسر لنا من النقد الثقافي.

الفصل الأول

معني الثقافة.. ومفهوم الحضارة

ربمـــا نكرر أمرا بديهيا إذا ما ذكرنا أن الثقافة ليست صفقة واحدة كما لـــو كانـــت كـــلا متجانسا يشارك فيه المواطنون أو أعضاء المجتمع كله، ويتقاسمه الأفراد بحسب أنصبتهم الشرعية، كما أنها لا تثبت علي صورة أو صيغة واحدة، بل تتغير وتتبدل بحيث تتعاقب علي المجتمع أو الأمة ثقافات مختلفة.

ولا تقتصـــر الثقافة علي دلالتها التي تحظي بالشهرة والذيوع بوصفها الاســـتنارة العقلية، وسعة الاطلاع، وتذوق الفنون علي النحو الذي ترعاه به وزارة الـــثقافة ومؤسســـاتها، فهي تتضمن علي هذا الوجه الصور المرهفة للوعي الاجتماعي المنعكسة علي المرايا المصقولة لأدوات التعبير والإبداع، ومن ثم يطلق علي منتجها ومستهلكها اسم المثقف، ويستقل بذلك عن مطالب المهـــنة أو الحـــرفة التي تتيح الارتزاق منها عن طريق إعداد سابق محدد الإجـــراءات والخطـــوات، فعندئذ لا يعبر المثقف عن مطالبه الشخصية أو المهنية، بل يتجاوزها إلي التعبير عن القضايا العامة، لأن المفترض فيه أنه يعـــبر عن الجميع، في نفس الوقت الذي يخاطب فيه الجميع دون تخصص، مادامـــت ســـاحته التي يعمل في نطاقها، وأدواته التي يستعملها هي وسائل النشر والإعلام.

فهـــنا نطرح قضية الالتزام أو الانفصال، ونناقش، مثلا، مسائل المثقف العضوي الذي يعكس الحياة الاجتماعية انعكاسا مباشرا، أو المثقف المنعزل أو المغـــترب، وذلـــك مـــن خلال المواقف التي يتخذها، كما تثار المسائل المتعلقة بالأيديولوجيات.

أمـــا الـــثقافة بمعناها الذي ينتسب إلي مفاهيم العلوم الاجتماعية، فيجمع إلـــي مـــا ســـبق كـــل مـــا يصوغ الرصيد الكلي للعمل الإنساني ومنتجاته

الاجتماعــية، فـــي مقـــابل مـــا ينقل عبر الوراثة البيولوجية، فهي مجموع الأنشـــطة أو الفاعليات الإنسانية التي تتجلي في السلوك العملي والعقلي معا وهـــو ســـلوك قـــابل للتعلم والتداول من ثنايا النظم والمؤسسات الاجتماعية والاقتصـــادية والسياســـية والعلمية والعقائدية والفنية...إلخ، وإذا ما زودت الطبيعة الإنسان بالمواد الأولية، فإن الثقافة هي التي تحدد أسلوب استثمارها لخدمة حاجاته ومطالبه، وتعد الجوانب البيولوجية في الإنسان جزءا من خام الطبيعة التي تضع الثقافة أساليب أدائها ومعاييرها.

ويضـــم هذا الأسلوب في المعيشة العادات والمعتقدات والمهارات، كما يـــنطوي علي البواعث والأهداف التي تحث علي المشاركة في إنشاء النظم والمؤسســـات، الماديـــة وغـــير المادية، علي السواء، وبينما تحكم القوانين الطبيعية، تسود القيم والمعايير عالم الإنسان، أي ثقافته.

فللـــثقافة إذن جانـــبان، روحـــي أو غـــير مادي، وهي القيم والمعايير والاعـــتقادات والتقالـــيد، ويمـــثل الجانب المادي التجسيد المحسوس للجانب المعنوي علي نحو ما يتبدي في أدوات وتقنيات ومنشآت، وهذا هو ما يسمي بالحضـــارة، شريطة أن تستقر الثقافة في موطن محدد لايرتحل منه أصحابه أو يتجولون.

١- الثقافة والحضارة

ولكـــن لمـــاذا نقـــنع الـــيوم بتوصيف الثقافة وفقا للجانب غير المادي، والمعـــنوي، والروحـــي، ولا يشـــغلنا الجانب المادي كثيرا، بل نكاد نغفله ونهمله تماما؟؟

كانت الحضارات، أي الجانب المادي من الثقافة، قديما جزءا لصيقا بها بحيث كان من الممكن أن تتمايز الحضارات بتمايز المجتمعات وثقافاتها في العصـــور القديمـــة والوسطي عندما كانت المسافات بعيدة، والتبادل محدودا بحيـــث تسمت الحضارات، علي الأغلب، بموطنها الجغرافي أو العرقي أو القومي، أو الدينى. وعندما توسع التبادل بين المجتمعات في الجانب المادي من الثقافة، أي الحضارة، ازداد انفصال الحضارة عن الجانب الروحي الذي ظـــل فيه التبادل بين المجتمعات محدودا، ومن ثم صارت الثقافة عنوانا لهذا الجانب غير المادي، وحينئذ بات من الميسور أن تشترك ثقافات متعددة في حضارة واحدة، بعد أن كانت الحضارة في القديم جزءا لاينفصل عن الثقافة.

وعسانا نكسب مزيدا من التأييد لذلك الرأي إذا ما تذكرنا أن لفظ حضارة هو بعينه ما يؤديه لفظا مدنية، وتمدين في كل اللغات.

فلسهولة التبادل المادي بين المجتمعات المختلفة، وتعذر ذلك في الجانب الروحـــي، اقتصـــرت الـــثقافة علـــي ذلك الجانب المعنوي بحيث تكون لها خصوصيتها داخل الحضارة المشتركة.

٢ – مستويات الثقافة وطباقاتها

فـــإذا مـــا فحصنا الثقافة في أي مجتمع أو أمة من الأمم، فسنجدها ذات مســـتويات أو طـــباقات ثلاثة، الأول هو ما يمكن تسميته بثقافة الجلد، فجلدة المـــرء عشـــيرته، وأجـــلاده أعضاؤه وجوارحه، وهي التي تتحدد بالعرق والديـــن واللغـــة بدرجات متفاوتة، وهي المرحلة الأولي في بداية محاولات الإنسان للسيطرة علي الطبيعة توطئة للسيطرة علي غيره من البشر، عندما كـــان لايفرق بين فرديته وبين انتمائه لجماعة أو بدنة معينة، ولكنها ماتزال تمـــارس نفوذهـــا دون اختيار أو تمحيص يجريه المرء علي صعيد الوعي والانتـــباه، وهـــي تحـــيز خفي يكمن تحت السطح، وقد ينفجر كالبركان في مواقـــف معيـــنة لأنهـــا تعبر عن الأغوار السحيقة للمرء التي تقذف حممها عندما تحين لحظة ضعف في السطح الخارجي عند مواجهة احتلال أجنبي، أو مشكلات حدود، أو حرب أهلية.

وعـــندما تواجـــه الأمـــة حـــالات مـــن الهزيمة والانكسار، أو التبعية والانحســـار، وتشـــعر بأن ماراكمته فوق جلدها الثقافي من قيم ومعايير، أو مواقـــف وأوضـــاع معاصرة لم يعد يسعفها في التصدي للتهديد الداخلي أو الخارجي علي السواء، عندئذ يلتهب جلدها الثقافي الذي لم تعد تحميه أردية الثقافة المعاصرة، فهو الذي يمثل المرجع الأولي أو البدائي.

والطـــباق الثانـــي مـــن الـــثقافة هو الذي يمكن تسميته بـــالمشترك أو المتصـــل القومـــي وهو الذي يستمر ويواصل نفوذه عبر تلك الجوانب التي تـــتجمع وتترســـب عـــن الثقافات المتعاقبة، وتتشابك معا لتبقي حية مؤثرة، ونقصـــد بـــه مجمـــوع الجوانـــب المشاع لدي أعضاء الأمة رغم اختلافهم وتفاوتهم، وهو بمثابة مجري جوفي أو تيار تحتي متدفق دون وعي أو تدبر في أغلب الأحيان، ويتألف من رواسب ثقافية ذات روافد متعددة، فقد تختفي العقائد القديمة ولكنها لا تكف تماما عن مزاولة تأثيرها.

أمـــا الطـــباق الأخير، فهو الثقافة المعاصرة للمجتمع أو الأمة، ورغم صبغتها الخاصة الغالبة التي تميزها عن غيرها من الثقافات، إلا أنها ليست متجانســـة لأن الصبغة السائدة هي التي تعبر عن توجهات الفئات المسيطرة ومصالحها، ولذلك نجد داخلها أقاليم زمنية متفاوتة رغم العصر الواحد الذي يحـــتويها، فالثقافة صيغة من صيغ الفكر والسلوك، وأسلوب للاستجابة للعالم والتأثـــير فـــيه، ومـــن ثم قد يستعار ذلك الأسلوب أو تلك الصيغة من ثقافة مـــرحلة سابقة، وتتصادم الأقاليم الزمنية في سعي كل منها إلي تخليد رؤيته الخاصـــة للعالم والانتصار لها، وعلي هذا النحو، تكون الثقافة متخلفة إذا ما تشـــبثت بجمود آلية التذكر التي تؤدي إلي الضيق والتقلص، وتكون متقدمة إذا ما تفتحت إمكاناتها للتوسع والامتداد، فهناك بعض جوانب المجتمع الذى بدأ مستقبله أو غده، وهناك من لم يبلغ أمسه بعد، ويختلف الجميع ويتفاوتون فـــي استجاباتهم للمتغيرات العالمية التي تتجاوز حدود مجتمعهم، ويمكن أن نسمي ذلك المستوي بالمشتبك العالمي، أو المعترك الراهن أو الحالي.

ونظـــرا لسيادة آليات السوق الرأسمالية العالمية، وتغلغل وسائل الإعلام فـــي كـــل مكـــان، فلابـــد أن نتوقع نفوذا لأنماط عالمية مشتركة من الفكر والســـلوك، وهي الأنماط التي يفرضها أصحاب المصالح العالمية كما تتمثل فـــي الشـــركات العابـــرة للقـــارات، وتلح تلك الفئات العالمية علي ترسيخ الاعـــتقاد، أو الوهم، بوجود ثقافة إنسانية واحدة، ولا أقول حضارة إنسانية، واحدة، لأنها أمر وارد.

وعلـــي أيـــة حال، فإن الثقافة المعاصرة للمجتمع أو الأمة هي أضعف طـــباقات الـــثقافة التي يمكن أن تعصف بها ثقافة الجلد، كما يحدث الآن في معظـــم أنحاء العالم، وذلك مع انهيار الاعتقاد أو اليقين في صحة قيم الثقافة العالمية ومثلها العليا.

٣- عندما يلتهب الجلد الثقافي عندنا

ويؤدي مجمل ثقافة الجلد إلي تحويل التاريخ الفعلي إلي أسطورة تتسلل إلي معظم ما نتداوله أو نتناقله من آراء ومواقف، بل تتسرب إلي منهجنا في توصـــيف ما يواجهنا من متغيرات وتفسيرها، فتودي بمصداقيتنا وجديتنا في اتخاذ مبادرات حقيقية.

ومن أبرز قسمات الأسطورة التشخيص الدرامي، والتصنيف الثنائي للمتغيرات التي تنفخ فيها الروح، وتتحول إلي كائنات حية أو شخصيات تحب وتكره، ترضي فتغدق وتغضب فتنتقم. وأبرز هذه الكيانات الموهومة التي ابتذلت من كثرة الاستخدام ما يقال عنه الأنا والآخر. ويعد هذا امتدادا لنزعة أسطورية قديمة هي الإحيائية (الأنيميزم) التي تتعامل مع الظواهر الطبيعية كأشخاص لها نواياها وحيلها. وهنا تسود الفكرة الساذجة للمؤامرة وليس الفكرة المقبولة عن المؤامرة بمعني استراتيجية الخصم وخططه التي يمكن معرفتها أو كشفها من خلال تقاريره وممارساته المعلنة. أما المعني الساذج الذي نستريح إليه فهو أنها خفية مستترة وتحاك خيوطها في الظلام، وبالتالي فلسنا في حاجة إلي التحليل الموضوعي للبيانات والمعلومات التي تؤدي إلي الفهم واتخاذ موقف إزاءها.

وأغلب الظن أن أسطورة الأنا- الآخر اعتناق غير واع لنسخة مهذبة من ثقافة اليهود التي تقسم البشر إلي إسرائيل والأغيار أو الأمم، وقد نقلبها ضدهم، ونحن في غفلة لتلمذتنا البليدة عليهم، فنفسر كل شيء كما سبق هتلر إلي ذلك في كتابه كفاحي بمؤامرة اليهود لصنع الشر في العالم، ومن أنواعه الماركسية والشيوعية، وربما نعتمد في ذلك علي اكتشاف الأدلة في كتاب زائف هو بروتكولات حكماء صهيون.

بل إننا نصنع ذلك أيضا فيما نسميه الغرب، فهو الشيطان المريد الذي يكفينا مئونة الفهم أو المبادرة، فقد تحددت الأمور، وصنفت سلفا، وليست في حاجة إلي مزيد من التحليل أو التفعيل.

فالغرب أصبح شخصا واحدا، رغم كل تنويعاته، وله دور واحد في هذه الدراما بوصفه البطل المضاد، علي أن نختار لأنفسنا دور البطل التراجيدي الذي تنزل عليه المصائب من هذا البطل الشرير، وهنا تختلف فصائل الرواة فيجعل البطل الأقطار العربية، بينما يختار الآخرون دور الإسلام أو المسلمين، وبعدها ترسم حبكة الصراع بين الشخصيتين.

غير أننا ولأول مرة في التاريخ المعاصر استطعنا أن نؤثر في الإعلام الغربي أو العالمي، ففرضنا عليه تسويق مسلسلنا الدرامي: الإسلام والغرب، إلا أنه انقلب سريعا بعد أحداث١١ سبتمبر وغزو أفغانستان إلي مسلسل هزلي حيث نحشد قوانا الثقافية والإعلامية وكذلك السياسية لتحسين صورة الإسلام لدي الغرب، ونتزاحم بالمناكب لتقديم صحيح الإسلام الذي أفسده

إسلام القلة المنحرفة، فنحن إذن ندفع ثمنا باهظا، وأحسب أنه سيذهب هدرا لمـــا سبق أن اقترفناه، عن جهل وسوء تقدير، عندما انخرطنا منذ فترة عقم طويلـــة فـــي اصـــطناع صراع درامي بين الإسلام والغرب، وتحدثنا عن حضارة الإسلام وحضارة الغرب بطريقة الطيب والشرير، عسكر وحرامية، الـــروح والمادة، الرحمن والشيطان، فسطاط الإيمان وفسطاط الكفر والعياذ بالله، إلي آخر الثنائيات المأثورة.

والواقـــع أنـــنا لم نحترم قواعد اللعبة، أو نلتزم بجدول أعمال الحوار، فنـــتحدث عـــن النصـــوص، فـــي نفس اللحظة التي نتحدث فيها عن البشر المســـلمين بعـــد وفاة الرسول، وننتقي من الوقائع والحكايات ما يروقنا، لم نفـــرق بين الدين الإسلامي وبين أعمال وأقوال الحكام المسلمين، وهذا خلط لا يخضـــع للمـــنطق أو يسلم إلي نتيجة محددة. لا نعرف عمن ندافع، عن الديـــن كعقيدة وشريعة كما تجلوها النصوص التي أعلن الرسول في خطبة الـــوداع أنها اكتملت: "اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكـــم الإســـلام ديـــنا" أو عمن أتوا من بعده فأصابوا أو أخطأوا، عدلوا، أو ظلمـــوا، ونجعـــل من أفعالهم وأقوالهم امتدادا لوحي السماء، هل الأمر من الغمـــوض والالتـــباس بحيث لانستطيع أن نميز أو نقارن بين دين الإسلام، وحضارة من الحضارات، فليس الدين حضارة، إن شئنا دقة المعني العلمي، لأن الحضـــارة مـــن صنع البشر، فالخلط بينهما يسلمنا دون وعي إلي نوع آخر من الصهيونية التي تجمع الدين والأمة بمعني البشر أو القوم. الحضارة الإسلامية حضارة مسلمين وشارك فيها غير المسلمين، ولا يصح أن تضاف أو تنسب إلي دين الإسلام بأمجادها أو نقائصها، فالمسلم يمكن أن ينتمي إلي حضارات مختلفة، ولا يفقد إيمانه إذا كان في حضارة هندية، أو أوروبية أو أمريكية.

كمـــا لا ينبغـــي أن نخلـــط بين الدلالات المختلفة للأمة فنعاملها جميعا بمقياس واحد، فنخلط بين الأوراق مما يؤدي بنا إلي أتعس النتائج.

فالأمة في النص الديني لاتعني الأمة بالمعني السياسي القومي الحديث، بـــل تعنـــي جماعة المؤمنين بالمعتقد الواحد، كما تعني المذهب في القرآن الكريم: "إنا وجدنا آباءنا علي أمة" وهي التي تقابل كنيسة في المسيحية التي تعنـــي بالســـريانية الجمعـــية والمجمع والاجتماع كما هي في العبرية تعني

الجمعـــية العامـــة التي هي الكنيست، وكلمة كنيسة لم تكن تعني أصلا محل الاجتماع، بل جماعة المعتقد الواحد، أو أمة المؤمنين.

ولكننا سرعان ما نخلط بين الأمة الإيمانية والأمة السياسية، فنجعل من أمة الإسلام أمة بالمعني الحديث الذي كان يقابله في النصوص القديمة قوم، وأقـــوام، وهنا نخترع أمة عند احتدام الصدام باستعارة تراث، ولملمة تقاليد مـــن هنا وهناك، ورصها ورصفها جنبا إلي جنب، ونتوهم بذلك أننا أحسنا صنعا، حتي تأتي الطامة، فندفع ثمن التفاخر والتهجم والتطاول الذي لم نكن نملـــك ثمن الدفاع عنه، ولم نملك أصلا مقوماته الواقعية، فيتهاوي الصرح الـــذي شيدناه من قصاصات وأقاصيص، وكنا نحتمي من خلفه، أو نتوهمه ســـلاحا باتـــرا، ولكـــنه ما لبث أن انقلب علينا ووجه لصدورنا ليدفعنا إلي موضـــع الدفاع وظهورنا إلي الحائط، وكأننا نصرخ من خلف القضبان في محكمة أفلام سينمائية قديمة: مظلوم يا حضرة القاضي، أنا متسامح، أنا أقبل الآخر، أنا أدعو إلي التعددية وحقوق الإنسان، أنا ديموقراطي يا بيه!!

٤- حقيقة الإسلام وحقيقة الغرب

لـــيس الدين في ذاته العامل الوحيد أو الحاسم لقيام الحضارة الإسلامية، وإلا لكانـــت مكـــة والمدينة هما النموذج المثالي لهذه الحضارة، ولكن ثمة عوامـــل موضـــوعية أخـــري صنعتها، وإلا لكان تدهور هذه الحضارة في القـــرون التالـــية ســـببه الردة علي هذا الدين. وكثيرا ما نفخر بفتح الأندلس كعلامة علي الأثر الديني، ولكننا نعرف أن هارون الرشيد، في قمة ازدهار الحضـــارة الإسلامية، كان يستميل شارلمان إمبراطور الفرنجة ليكون حليفا لـــه ضد حكام الأندلس المسلمين الأمويين، فالمسألة لاترد إلي الدين، كما أن فـــتح العثمانيين مصر وبلاد العرب لم يكن دفاعا عن الإسلام، وإليهم يعود التصـــور الغربـــي المغلـــوط عن الإسلام والمسلمين أثناء احتلالهم لأجزاء واســـعة من أوروبا حتي القرن التاسع عشر، بينما الحقيقة أننا اكتوينا أيضا نحن المسلمين العرب بغلظتهم وجهلهم وتخلفهم.

ولقـــد أدت عوامـــل موضوعية، يمكن أن تخضع لبحث علوم السياسة والاقتصـــاد، إلـــي تخلـــف شـــرق أوروبـــا، وكذلك أقطار الشرق العربي، والفارســـي والهـــندي، والصيني، وجنوب البحر المتوسط، وذلك في الوقت الـــذي شـــرع فـــيه ما يسمي بالغرب الأوروبي فى النهوض من عصوره

الوسـطي بنشـأته الرأسـمالية التي سبق أن ساهمت فيها الحضارة العربية الإسلامية بما يسميه راندال روح بيكون التي تطمح إلي توسيع حكم الإنسان وسـيطرته علي الطبيعة، وعاونها علي ذلك تعدد مراكز الحوار في صقلية والأندلـس ونشـاط حركة الترجمة من العربية إلي اللاتينية. ولم يكن نداء العـودة إلي الآداب القديمة الإغريقية والرومانية، إحياء عنصريا- لأسلاف مـزعومة- لأنها لم تكن عودة إلي النصوص، بل كانت استجابة مباشرة لما اتسـمت به تلك التقاليد القديمة من قبول صريح للحياة، واختيار نقدي لكافة المشـكلات السياسـية والأخلاقية، والاجتماعية، وجسارة فكرية حازمة في البحث، واستعداد للمضي إلي الحد الذي يفرضه الحوار. ولم يكن ذلك متاحا إلا بعـد أن انجلى الحوار الموضوعي مع الشرق علي ساحة مادية وفكرية جديدة جري فيها التبادل بين السلع التجارية والمنجزات الفكرية مما غير من علاقـة الفـئات الاجتماعية بعضها بالبعض الآخر وأنشأ فئات بورجوازية جديـدة تـتخذ مـن العودة إلي الآداب القديمة ذريعة وقناعا وشعاراً يغلف تمـردها، وتحـول قيمها، ووعيها الجديد للإنسان. ومهما يكن من أمر، فإن الحـركات الكلاسيكية، والعلمية والإصلاحية الدينية كانت روافد صبت في مجري واحد شقه من قبل الحوار والتفاعل السابق بين الشرق والغرب.

ولكن ما لبث أن تسارع إيقاع التقدم للإنجاز الغربي الذي اندفع بصحوة الشخصـية الفردية، وتكون الدولة القومية وحفزته القيم الرأسمالية من حرية المنافسـة والرغبة المحمومة في الفتح والغزو. ورغم أن هذا المنحي الجديد يقـوم علـي الفردية والعصامية إلا أنه كان يستهدف العالمية لأنها المجال الفسـيح الطمـوح للكشف، والتملك، والغزو، أي الاستعمار بعبارة موجزة، وبذلـك أصبحت الظاهرة التي نشأت في الغرب منذ عصر النهضة لأسباب موضـوعية وليسـت دينية، ظاهرة إنسانية عالمية ولا ينبغي أن يستفز ذلك مشاعرنا، فالدين المسيحي الذي يدين به الغرب صادر من شرقنا، إلي جانب كثـير مـن الإنجـازات الأخرى التي يعترف بها المفكرون الغربيون دون غضاضة.

ولقد علمتنا الحضارة الإسلامية العربية إبان صعودها أن صحة الفكرة، أو كفـاءة الإنجـاز لاتقـاس جدارتهمـا بمسقط رأسيهما، بل بما تجلبه من مصـالح ومنافع، كما أن الدين، بحكم تعريفه دعوة عالمية لا فرق فيها بين عربي وعجمي أو غربي.

وعلي أية حال، علينا أن ندخل إلي المنافسة التي تتطلبها الرأسمالية في كـل تطوراتهـا. والأمـل الوحـيد في البقاء علي قيد الحياة هو أن نصنع رأسماليتنا القادرة علي فك قيود التبعية. وعلي هذا النحو سيكون الصراع أو الصـدام أو المنافسـة، كشأنه في جميع الأزمان، بين مستويات مختلفة من النمو أو التخلف مادياً كان أو فكرياً وليس دينياً.

ولا مـبرر للخشية علي عقائدنا، إلا إذا كان البعض يراها شيئا ماديا لا يستطيع الصمود إلا إذا حفظناه في حرز مكين وأشرعنا السيوف دونه.

ونحـن مدعـوون للمشـاركة في الحضارة العالمية، ولا أقول الثقافة العالمية، عن طريق المنافسة وفقا لشروط اللعبة وقواعدها، كما لاينبغي أن نتصـايح خوفـا علي هويتنا، لأن الهوية هي ما نصنعه بالفعل، أو نبدعه، وليست بطاقة شخصية، أو حجة ملكية قديمة نخشي عليها من الضياع إذا ما شاركنا في مباريات الحضارة العالمية.

الفصل الثاني

نقد الأوهام والأساطير الثقافية

١ – التاريخ والأوهام

لعلـنا فـي حاجة إلي إعادة النظر فيما ألفناه من مسلمات أو بديهيات، وذلك كي نتفهم ما يجري في العالم اليوم من حادثات تثير الحيرة، وتعصف بما استقرت عليه المذاهب والنظريات من تحليل وتفسير.

وأغلـب الظن أن أية محاولة لإعادة النظر أو التشكيك فيما ارتضاه أو اعـتاده الجمهور لابد أن توصم بالبعد عن الوقار والاحتشام إلا أننا لا نري بأسا في هذه الوصمة لأن فضيلة الوقار والاحتشام في شئون الفكر والبحث إنمـا تعبر عن هوية مستعارة من المجموع، وصاحبها يعلن انتسابه لإحدي القـبائل الفكـرية الكـبري، ويكشف عن انتمائه لأغلبية موقرة، ويقيم بذلك حاجـزا منـيعا ضد النقد طالما أن حديثه متفق عليه بين جمهرة ذات شأن. ويضاف إلي ذلك، أن متسربل الوقار يدعي عادة الانصراف عما تضطرب بـه الحـياة فلا تشغله إلا حقائق الأمور، وما يقترن بها من مثل عليا وقيم أصـيلة، مطمئنا إلي أنها انحدرت إليه ممن أورثوه إياها وغدت من بين ما يمتلكه، أو يحرسه، أو يتحدث باسمه!

ولـنعد إلي ما يحدث اليوم، في الشرق والغرب، في الشمال والجنوب فستصيبنا الدهشة، أو بالأحرى الصدمة، لما نشاهد من مقاتلين في كل مكان وقد انحسرت عنهم الأقنعة التي لم تعد تخفي ما استتر من قبل من رغبة كل مـنهم في السيطرة علي الآخر بكل ما يتاح له من وسائل، ومبعث الصدمة أن مـا يجري الآن من صدمات عرقية أو طائفية يمتد إلي المجتمعات التي اعتدنا الاعتقاد بأنها قد قطعت شوطا طويلا في المدنية الحديثة.

فمـا كـان يمر دون أن يلفت الأنظار في بعض البلدان المتخلفة، أو ما كـنا نسـلم بـه في العصور القديمة أو الوسطي، أصبح اليوم أمرا متكرر

الحدوث في أوروبا وبريطانيا وأمريكا وبلدان الاتحاد السوفييتي السابق على نحـــو مـــا يواجهنا من تفجر النزاعات الأصولية في العالم أجمع بصورة لم نعهدها من قبل.

ولاريـــب أن هذه لحظة تاريخية متفردة ليس في وسعنا أن نسلكها في نســـق تفسيري قائم، أو نجعلها حادثا مطردا في مسار تاريخي معلوم، ومن هـــنا تنشـــأ الحاجـــة إلي إعادة النظر في مسلماتنا، ومن ثم ينبغي علينا أن نطرح الأسئلة الساذجة والبريئة من أية إجابات سابقة.

لماذا لاتكون اللحظة الراهنة لحظة كاشفة عن أخطاء في تصوير الثقافة الإنســـانية أو تفسير مراحل التاريخ؟ ولماذا لاتكون تلك اللحظة نتاجا واعيا أو غـــير واع لانقشـــاع الأوهام عن تصوراتنا السابقة التي انتزعت لطول ترديدها والإجماع عليها مصداقية لاتجدر بها؟

وقـــد تيسر لنا المقارنة بين التاريخ المحكي، أي التأريخ، وبين التاريخ الفعلي الذى نحن في سبيل اقتراحه لتفسير مختلف للممارسة الإنسانية.

فالتاريخ الفعلي شبكة من التفاصيل والوقائع المتعددة مثلما نحياها اليوم فـــي عصـــرنا الراهن، أما كتابة التاريخ فتختار ناظما أو محورا يضم تلك التفاصـــيل والوقـــائع في ائتلاف أو مسار معين هو الذي يحدد الدلالة التي يفضـــلها المـــؤرخ، فـــتجري إعادة بناء الوقائع والملابسات، وتقسيمها إلي جوهـــر، وأعـــراض تـــدور مـــن حـــوله، فيختار المؤرخ من بين الوقائع والشخصـــيات والحوادث ما يصلح في نظره جوهرا أو نواة أو بنية أساسية تعـــاد صـــياغة غـــيرها مـــن الوقائع بوصفها عرضا أو مظهرا. ويتعامل المؤرخـــون مع الحوادث كما لو كانت برادة حديد لاتستعيد انتظامها إلا في دائـــرة المجال المغناطيسي باستخدام قضيب ممغنط هو الذي يصبح المحور أو الجوهر أو البنية الأساسية. وتتباين مؤلفات المؤرخين بتباين ذلك الجوهر المختار الذي يعد عند كل منهم حقيقة موضوعية فرضت نفسها عليه فرضا، وعلـــي هذا الوجه يعاد النظر أو تراجع العلاقات بين هذه وتلك من الوقائع وفقـــا لكل تصنيف. ولاشك أن هذا الأسلوب المألوف في التأريخ يعين علي فهـــم واســـتيعاب شتات الوقائع، كما يذلل صعاب التعامل معها، إلا أنه ينتج أنواعا متضاربة من إعادة بناء الوقائع التاريخية.

ونســـتخلص مـــن هـــذا شيئا أخطر وأفدح وهو أن البشر في تعاملهم وتواصـــلهم يصطنعون أوهاما لا مندوحة عنها في تشكيل ثقافتهم ويشبه هذا

مـــا يصـــطنع في الأدب القصصي بوجه عام، فنظرتنا التي نرتاح إليها في تـــناول معطـــيات الواقع يغلب عليها ما اصطلح عليه بـــالعدالة الشعرية أي الفنية، التي تقوم بالتوزيع المثالي للثواب والعقاب عند نهاية العمل الخيالي.

ولا أعني بـــالأوهام هنا معناها الشائع، أي الخروج عن الواقع وخداع الـــذات، بـــل أعني بها صنعة الإنسان التي يضفيها علي الوقائع كمادة خام لـــيجعل مـــنها وقائع إنسانية ثقافية. وهي بعبارة أخري، التعامل مع الواقع بأســـلوب الفن دون أن يكون الناتج أعمالا فنية، وهو ما نجده بارزا واضحا فـــي الأساطير القديمة التي نتعامل معها اليوم كأعمال أدبية، ولكنها لم تكن كذلـــك عـــند أصحابها الأصليين. ويبدو أن جهودنا وإنجازاتنا الثقافية التي نؤثـــرها بإعـــزازنا وتقديـــرنا ســـتتحول عـــند الأجيال التالية إلي نوع من الأساطير، ولكن بعد أن تعبر اللحظة المحتدمة الحالية. وقد اقترنت نشأة هذه الأوهـــام بـــمسيرة الإنسان في صياغة ثقافته، بمعناها العلمي، أي باعتبارها أسلوب الإنسان الخاص في الحياة الذي يختلف به عن سائر الأحياء، وكانت هـــذه الأوهـــام ضـــرورية لـــتوزيع مبادراته في هذا العالم، وتوسعة نطاق سيطرته علي الآخرين.

فـــالذي جعل الإنسان مختلفا عن غيره هو سعيه للسيطرة علي الطبيعة مـــن خلال سعيه الدؤوب للسيطرة علي غيره من البشر، فكل لبنة من لبنات الـــثقافة الإنســـانية مصنوعة من رغبة الإنسان في السيطرة علي الإنسان، ولإخفاء هذه النواة المركزية لكل تصرفات الإنسان تمت صياغة الكثرة من المـــثل والقـــيم والمبادئ التي تختلف أحيانا من مرحلة إلي أخري، أو تتخذ هيئات متعددة. ولقد كان هذا شأن الإنسان دائما في ممارساته، فالحب، علي سبيل المثال، نواته الأصلية هي الجنس، ولكن سرعان ما كساه الإنسان ثيابا لا تـــزال تـــتكاثف ابـــتداء من الغلالات التي تشف عن نواته في العصور القديمـــة، إلي المعاطف الثقيلة التي تكاد تخفيه ليصبح الحب تضحية وتساميا عن ابتذال الوصال أي الاتصال الجنسي.

ولا تعنـــي السيطرة علي الآخر التهامه وتدميره، بل تعني القدرة علي الامـــتداد والتوســـع بمقتضي ما يستقطعه من الغير ليلحقه بذاته فتغدو أكبر وأشـــمل، وهـــو مـــا نـــراه مـــتحققا في كل صور الثقافة كالنظم السياسية والاقتصـــادية وغـــيرها مما يؤلف العالم الإنساني داخل الطبيعة، وهو نفسه الثقافة.

٢ - الخيال، والعقل، والقيمة، والحقيقة

الخـــيال أصل الثقافة الإنسانية وجذرها، ففي نطاقه الموهوم يتم تحقيق الغايات التي هي امتداد نحو المستقبل، والأفعال الإنسانية جميعا تتصف بهذا الإسقاط علي المستقبل الذي لم يحدث بعد، والخيال تصور، أي خلق صور. والصـــورة المتخـــيلة التـــي انفصل الإنسان بموجبها عن المشهد الطبيعي، وحققـــت ســـيطرته عليه مؤلفة من مكونات ثلاثة: إطار يفصل محتواه عن الســـديم الخارجـــي، ولـــيس مجرد حد يحصر داخله ما اقتطعه من أجزاء المشهد بنفس الترتيب الفعلي الموجودة عليه، وعناصر أو محتويات مختارة من هنا وهناك، وعلاقات جديدة بين هذه العناصر تقيم ترتيبا وانتظاما جديدا لهـــا. فالخيال إذن إدراك أو تصور للغائب عن الإدراك الواقعي لأنه تصور للغايـــة المنشودة وهي في سبيلها إلي التحقيق، أي أن تحققها الفعلي لايزال غائـــبا غير ماثل في الواقع، وينظر الإنسان بهذا الخيال إلي الأشياء جميعا بوصـــفها ممكنات، أي يمكن أن تكون علي نحو آخر مختلف عما عليه في الواقع.

فالخـــيال هو الذي يخترق عتمة أو ظلمة الأشياء وغلظتها وضرورتها وجمودها علي ماهيات ثابتة ليذروها، ويعتجنها، ويلوكها ليصوغ منها شيئا جديـــدا يحقق به غاياته، فهو مهاد الإبداع، بل هو أيضا، بوصفه استحضارا للغياب، أي جعل الغائب حاضرا، منتج اللغة وكل أدوات الاتصال، فالإنسان يختلف عن الحيوان في تواصله مع أفراد نوعه باللغة التي هي منظومة من العلامـــات والرموز، بينما يستخدم الحيوان أفعالا حسية بما يريد أن يبلّغ به أفـــراد قطيعه أو سربه عن طريق الحركات أو الصيحات أو الرائحة، وليس في مقدوره أن يتعامل مع أشياء الطبيعة أو يعبر عنها في غيابها، علي حين أن الإنسان يستخدم الكلمات، وهي نوع من التمثلات، أي استعادة المثول أي الحضـــور، فيـــتعامل مـــع ما هو غائب بما يستحضره من كلمات لا علاقة لحـــروفها بأصـــلها الحسي، ولا تشير إليه في حالة وجوده الفعلي فحسب، ولأن اللغـــة محررة من الوقائع المباشرة، ومستولدة من رحم الخيال، فإنها تقـــوم بوظـــائف متعددة منها الاتصال، والتعبير، والدعوة إلي سلوك معين. ولكن سرعان ما ينسي ذلك الأصل الخيالي، فتتحول اللغة، في وهم الإنسان إلـــي بديـــل للواقع، وتصبح أداة من أدوات سيطرة الإنسان علي غيره من

البشـــر مـــن خلال تنظيمها للأشياء والأفعال وخلع قيم معينة عليها، وتقوم بذلك بدور الوكيل الثقافي في الصراع المادي بين البشر.

ويشـــبه النســـق اللغوي كل الأنساق الثقافية الأخرى من جهة إضفائها شـــكلا وصياغة محددة للممارسات الإنسانية تخرجها عن أصولها الحيوانية، كمـــا تتـــبدى فـــي أنســـاق أو طقوس الزواج، والوفاة، والميلاد، والطعام، والحرب، والإنتاج وغيرها، فلكل مجال أو فاعلية إنسانية في زمن معين أو مجـــتمع بعيـــنه شكل أو إطار خاص من التواصل الذي قد يتبدل أو يتطور بدرجة أو بأخري.

وتتراتـــب هذه الأطر والأشكال من التواصل من حيث درجة انتشارها وامـــتدادها حتـــي تصل إلي أكثر الأشكال أو الأطر عمومية وتجريدا، وهو الاســـتدلالات المنطقية الفارغة من المحتوي لقابليتها للتطبيق علي كل مجال بمقتضـــي اتســـاعها وشمولها. وهذه العملية أو هذا الإطار هو الذي نسميه عقـــلا، ولأنـــه لا يـــتطور أو يتغير إلا عبر حقب زمنية طويلة جدا رسخ الاعـــتقاد أو الوهـــم بأنه واحد، ثابت، أزلي، ولقد عاون علي هذا الاعتقاد طبيعة اللغة التي تحول العلاقات والأفعال إلي كيانات توهم بالشيئية، فالعقل إذن هـــو الـــذي يتبوأ قمة أطر الاتصال بين البشر بوصفه القواعد أو القيود الملـــزمة لعضـــوية الإنسان الصحيحة بمجتمعه، وإلا عد مجنونا أقرب إلي الحيوان.

ومـــا اصطلح عليه بالقيم لا يفلت من سطوة الخيال، فالضرورات التي تـــتحول إلـــي ممكـــنات أو مادة غفل لابد أن ينتقي منها ما يصلح أن يكون وسيلة إلي تحقيق الغاية، ومن ثم تتفاضل الممكنات وتتراتب، ويقبل بعضها وينبذ غيرها، وهنا تتسلل القيمة التي هي وعي بالممكنات، واختيار للغايات والوســـائل للتأثـــير في العالم، والسيطرة علي غيرنا من البشر. وعلي هذا الوجه تصبح القيمة طابع وجود العالم بالنسبة للإنسان من حيث أن العالم هو ممكنات متفاضلة متراتبة، كما تكون أيضا أسلوب وجود الإنسان إزاء العالم حيث يقدّر بعض جوانبه، ويحتقر غيرها.

وربمـــا ينبغي علينا أن نفرق بين أمرين طال العهد بالخلط بينهما وهما الواقع أي مجمل الأشياء، والحقيقة أي الحق والصدق.

فـــــالواقع هـــو الأشـــياء أو الأمور أو ما يحدث من وقائع تهمنا، أما الحقـــيقة فهـــي وصف لأحكامنا واعتقاداتنا عن هذا الواقع، وبالتالي فليست

الحقــيقة كــيانا موجودا هناك، علينا أن نكشف عنه الغطاء، أو نلهث خلفه حتـــي نلحــق به، بل هي وصف لما نعتقده، فما هو ملائم هو حق وإلا فهو بـــاطل، وبذلــك تــتعدد الحقــائق وتتضـــارب بالنســـبة لأصحاب الأحكام والاعتقادات، وكم من دماء سفكت في الخلاف حولها.

وتحمل اللغة مسئوليتها عن ذلك لأنها تجعل من وصفنا لآرائنا كلمة أو اسما فنتوهم أن هناك مقابلا كيانيا وعينيا لهذه الكلمة أو الاسم.

وأكـــاد أســـمع من يحتج علي ما قدمت من شطط أو سرف بما يصنعه العلم، وحسبه في هذا الاحتجاج أن يشير إلي الحقائق العلمية.

بيد أننا لا نستثني العلم من مزاعمنا هذه، فعلم الطبيعة ليس هو الطبيعة نفســـها بل هو طريقة معرفتنا بالطبيعة، وهي ممارسة إنسانية قابلة للتعديل والتــبديل. ورجـــل العلم يفرق بين عالم الحس، أي عالم الأشياء أو الواقع، وبيـــن الصـــورة العلمية الخاصة بفرع علمه، وهي التي يعمل في نطاقها، وتـــتطور مـــن مرحلة إلي أخري بدليل أن الصورة العلمية لدي بطليموس ليســـت بعيـــنها عـــند نيوتين أو بلانك وآينشتين. هذا من ناحية، ومن ناحية أخـــري، فإن العلم لا يتقدم إلا من خلال التكنولوجيا التي هي تطبيق لنتائج علمـــية ســـابقة وباعـــث علي اكتشاف نتائج لاحقة، والتكنولوجيا، كما هو معلوم، ليست من بين قرارات العلماء، بل هي بيد النظم السياسية والعسكرية والاقتصـــادية بل والعقائدية أحيانا، والهدف منها في نهاية الأمر إتاحة أكبر قـــدر من السيطرة علي الطبيعة من ثنايا إحكام السيطرة علي الغير من بني الإنسان.

٣- الحداثة وما بعد الحداثة

خضـــع البشر خلال تاريخهم لصور متعددة من السيطرة بما تحمل من أوهامها الخاصة، بالدلالة التي أسلفناها للأوهام، وتوزعت هذه السيطرة في أقالـــيم لكل منها نسقه الثقافي، وإن حاولت كل من هذه الأقاليم أن توسع من رقعتها علي حساب غيرها، إلا أنها لم تستطع أن تستوعب العالم كله، حتي توغلـــت الرأســـمالية الغربـــية، لعوامل متعددة فكادت أن تتسلط علي العالم بأسره.

وقـــد أفلحـــت الرأسمالية إبان صعودها ومقاومتها للثقافات السابقة، في تقديـــم نســـق ثقافي جديد بمنظومته الخاصة من القيم والمعايير مثل الحرية

الفردية والتمثيل النيابي والنظرة العلمية وغيرها، ولكن بعد أن تربعت علي القمـــة وتســـللت بسيطرتها علي كل شئون الحياة، وأشعلت الحروب وغزت الشعوب، اكتشف أنصار الحداثة في الفكر والفن من داخل الغرب الرأسمالي نفســـه، بعــض أوهام عالمها، فظهرت الدادية احتجاجا صارخا ضد الثقافة السائدة، ثم تهذب الاحتجاج في صورة السيريالية التي حاولت أن تبني عالما فـــوق الواقـــع المفعم بالأوهام. كما سادت تيارات التغريب والتجريب التي حاولت فضح الأوهام المستقرة بعقد علاقات جديدة غير مألوفة بين مفردات معيشـــة معـــتادة. وكذلك ظهر أدب أو مسرح العبث أو اللامعقول الذي نشأ نتـــيجة لـــنزع الـــدلالات الســـابقة المستقرة لأدوات التواصل وأنساقها لكي ينكشـــف عالم مختلف لا ينتظم في سلك القواعد السابقة، بل إن الزعم بافتقاد المعني في كل شيء إنما هو خطوة لاكتشاف أننا الذين نصنع المعني، ومن ثـــم فينبغي رفض لغة التواصل التي تنطوي علي سيطرة دلالات فئة أخري تحاول أن توهمنا بأن لغتها تعبر عن الحقيقة.

ثم سرعان ما احتل ما يسمي بـــما بعد الحداثة واجهة المسرح الثقافي. والفرق بينهما أن الحداثة كانت تحاول أن تستبدل بالعالم الزائف عالما أكثر حقـــيقة، وبذلـــك كانت تحمل طابع التمرد والنضال، أما ما بعد الحداثة فقد رفضـــت الأوهام في وجود عالم موحد متسق منسجم، ولكنها لم تقدم بديلا، فاستســـلمت إلي التعبير عن التدمير، ونقض البناء، واللاترابط، واللاتمركز، ومـــا لا يمكـــن تخـــيله، وتجـــاوز الذات، والانقسام، والتفسخ، والانفصال، واللاعقلانـــية، كما فصل إيهاب حسن فيه، وكأنها بذلك تتحدث عن الأصل قبل أن تغزوه الأوهام الإنسانية التي أثبتت في نظرها فشلا ذريعا.

وعـــندما تتقشـــع الأوهام أو عندما يهتز اليقين بالمسلمات الثابتة تنفرط المواقـــف أو الاســـتجابات المتعددة، ولكنها رغم اختلافاتها، تعتصم جميعا بمـــلاذ مشـــترك يتعاملون معه سواء في الغرب أو الشرق بأساليب منوعة، ويتجلي هذا الملاذ المشترك في التركيز علي الجسد، وإغفال الزمن.

فـــالعودة إلي الجسد هى بمثابة العودة إلي الأصل الذي أبهظت الأوهام كاهله، ونفي الزمان هو الارتداد إلي البكارة الأولي.

ويـــرد الاختلاف والتنوع في أساليب الاستجابة في المجتمعات الشرقية والغربـــية؛ يرد إلي اختلاف لغاتهم الثقافية حيث نجد في الغرب مثلا أفكارا عن نهاية التاريخ، كما نجد لدينا من يلغي التاريخ لحساب وهم قديم.

وبالنسبة للجسد، نجد بعض الغربيين يتعاملون معه علي أساس فني، في أدب ما بعد الحداثة أو علي أساس إطلاق كل حريات استخدام الجسد بحيث لايفــرق بين السواء والشذوذ، أما عندنا فقد يستخدم بوصفه مجتلي للبرنامج الدينـــي المنشـــود بـــإطلاق اللحـــية وارتداء الجلباب، كما أنه حامل الفكرة والمعتقد ولابد من تصفية جسدية لمن يحملون فكرا آخر.

ومهما يكن من أمر، فإن موجز زعمنا هو أن محرك الفاعلية الإنسانية هـــو الســـيطرة علـــي الغير من البشر، وتتعدد أدوات السيطرة ورموزها، وتغلف هذه الأدوات تغليفا مثاليا هو ما نسميه بالأوهام أو الأنساق الثقافية.

وربمـــا نتبين ذلك فى بعض أساطير مثقفينا العصرية وبطبيعة الحال لم يصف مبدعو الأساطير القديمة أعمالهم بأنها أساطير لأن مفهوم الأسطورة، مهمـــا تنوعـــت وتعارضت تفسيراتها العلمية، وصف لاحق لما كان يعتقده الأولون أو القدماء بصحته وصدقه.

فإذا ما استخدمناه الآن فإننا نصف به أوهاماً تنكرت فى إهاب الرصانة العلمية.

ولا تـــروج الأساطير العصرية إلا حيث يفتقد الحوار العقلاني الرشيد، وتســـود الأماني بديلا عن الفعل والمبادرة، أو تنشط الطموحات الفردية في اللهفة علي قيادة الغوغاء حيث يتربع الجهل راسخا مطمئنا.

ولعـــل ظروفا معينة قد حالت بين المثقفين وأداء دورهم، كما أن كثيرا مـــن الشـــعارات قـــد هوت علي الناس من قمم السلطة، وتأقلم الناس علي تداولهـــا والـــرطانة بها دون حوار سابق أو اقتناع، فقد أدي ذلك إلي الألفة والاعتـــياد علي انفصال خطاب المثقفين عن الواقع الفعلي أو الفكر العلمي معا علي السواء.

وأغـــري ذلك بعض المثقفين علي أن تكون لهم بضاعتهم الخاصة التي لا يشـــترط فـــيها الإشارة إلي الواقع، أو الالتزام بالأسلوب العلمي ومن ثم أغرقت أسواق الإعلام بأساطير عصرية اكتسبت أهميتها ورواجها من كثرة الترديد والتكرار، والإلحاح علي الأذن والعين.

أسطورة العصر الذهبي

يمكـــن القـــول أن الماضي كله يصاغ كما تحكي الأسطورة التي توزع الأدوار الرئيســـية والـــثانوية كما يراها المؤرخ، وتكتسب مصداقيتها بكثرة

تكـــرارها، فذلـــك ييســـر فهم شتات الوقائع وتناثر التفاصيل، كما يسلم إلي التعامل الهين المريح معها.

فالأســـطورة، بوجه عام، صياغة أو قراءة لبعض أحداث الماضي في لغـــة الحاضـــر وأمانيه، فهي لاتكتسب دلالتها من المنطق والواقع بقدر ما تستدينه من قيم الحاضر ومثله العليا.

ومن هذا التصور الأسطوري تضفي القداسة علي بعض الشخصيات أو الحـــوادث التـــي تعد جوهرا أو محورا لتتحول إلي رموز تنزع من سياقها الزمنـــي والمكاني الذي تتشابك معه، وتفرز وتعزل من بين ركام المفردات الوقائعية لتشكل صورة تاريخية تفرق بجلاء بين الأرضية الباهتة، وبين تلك المعالم المنتقاة التي تصطبغ حينئذ بألوان حادة ناصعة. ومن ثم يكون الفارق بيـــن مؤرخ وآخر في انتقاء المتغيرات، أي المفردات الوقائعية التي يجعلها أرضـــية محـــايدة متجانســـة، وإيثار غيرها لتكون معالم أو مراحل بارزة مؤثرة.

ويترتب علي هذه الصياغة الأسطورية أن يكتسب القديم المختار قداسة تـــتجاوز بمعايـــيرها مقايـــيس العلم الموضوعية، وتعفينا من مشقة مواصلة البحث وما يقترن به من معاناة الشك وافتقاد راحة اليقين.

فالعصـــر الذهبي الموهوم ليس واقعة تاريخية بالمعني العلمي بقدر ما هو معيار قيمي محتجب غير معلن لأنه خلاصة منتقاة علي نحو متميز من وقائع صرفت عن مواقعها المكانية والزمانية الأصلية، وصفيت من علاقاتها الاجتماعـــية والسياسية والشخصية بحيث أصبحت مثالا نموذجيا منتزعا من تفاصـــيله النســـبية، لـــيعود مقياسا لكل وقائع التاريخ مثلما يستخدم البعض مفهومـــات مـــثل حـــزب الله، وحزب الشيطان، المجاهدين والمنافقين(أي أنصـــار حزب مجاهدي خلق في إيران) والفتنة بدلاً من الثورة.. كما تحتل أمريكا موقع الروم القديم، والاتحاد السوفييتي السابق موقع الفرس، أو يدمغ المجتمع المعاصر بالجاهلية...إلخ.

وتنتمـــي أســـطورة العصر الذهبي إلي عالم سحري يستبدله المثقف أو الداعـــية المعاصـــر بالعـــالم الموضـــوعي الـــذي يمكن أن تحلل عناصره ومتغـــيراته وتفســـر بمعزل عن رغباتنا تمهيدا للتنبؤ بها، علي حين تسود العلاقـــات الشخصية بين عناصر ذلك العالم السحري بما تحمل من عواطف

وانفعـــالات تؤلـــف حركـــتها الدرامـــية التي تصنع منها أسطورة في نهاية المطاف.

ويفـــترض أصـــحاب أســـطورة العصر الذهبي أن لحظة من لحظات الماضـــي هـــي مســـتودع أو ترسانة علينا أن نتفرغ جميعا لجرد ما فيها، وتصـــنيف محـــتوياتها لاختـــيار مـــا يصلح لحل مشكلاتنا المعاصرة. كما يفترضـــون دلالـــة معيـــنة للـــزمان تفقـــده حركته وتدفقه لتجعله مجموعة انقطاعـــات عـــن النبع الأصلي الذي يتخذ إطارا مرجعيا لقياس كل لحظات الزمان. وهنا يضفي طابع الثبات والإطلاق، بل والتقديس أيضا علي كل ما ينسب إلي ذلك العصر الذهبي!

أسطورة الوسطية

ربما أدي تعدد المواقف إلي شعور بعض المثقفين بالمشقة في الاختيار مـــن بينها فسعوا إلي تجنبها بالاحتماء بنزعة توفيقية أو تلفيقية تصف الثقافة العربـــية حينا، أو الإسلامية حينا آخر(وفقا لمساحة جمهور القراء المتوقع) بالوسطية.

فمـــن الوجهـــة المنطقية تفترض الوسطية أن الحقيقة تقف في منتصف الطـــريق بين ضدين أو طرفين، هذا إذا كانت توفيقا، فإذا كانت تلفيقا، فإن الحقيقة سلة يلتقط منها أفضل ما أنتجته المواقف جميعا.

وعلـــي هذا الوجه، تفترض الوسطية أطرافا سابقة ثم يأتي دورها لتقف في وسطها، فهي إذن وصف لاحق، بعدي، رهين بموقفين سابقين أو مواقف سابقة، وهي جميعا متعارضة متطرفة، فتحتل موقعها بين إفراط وتفريط.

والواقـــع أنـــنا لا يمكن أن نقبل وجود ثقافة عربية متميزة لاتملك من أمـــرها شيئا إلا أن توفق بين ضدين أو أضداد، فهذا وصف سلبي يعبر عن موقـــف يؤثـــر الاعتدال والتوسط بين معسكرين، ولايليق بنا أن ننقل مفهوم عـــدم الانحـــياز أو الحـــياد الإيجابي الذي يفترض وجود الاتحاد السوفييتي وأمريكا، أو المحور والحلفاء من قبل، إلي شئون الثقافة، فهذا الوصف يفتقد الإطـــار المرجعـــي الخاص لأنه يقتات أو يتطفل علي أطر مرجعية سابقة خاصـــة بأوضـــاع تاريخية وسياسية واجتماعية معينة، ويحاول أن يقف في منتصف المسافة بينها.

كمـــا لايفـــيدنا في هذا الصدد أن نستعير مفهوم أرسطو الأخلاقي عن الفضـــيلة بوصـــفها وســـطا بين رذيلتين، ونطبقه علي سائر مجالات الثقافة ببساطة ويسر فهذا نوع من الكسل العقلي الذي يوشك أن يكون نفاقا سياسيا.

فإذا ما حاول بعض المستثمرين للنصوص الدينية أن يفحمنا قائلا: ماذا نصـــنع بقـــوله تعالي: وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء علي الناس (١٤٣ الـــبقرة)، فلـــيس لنا إلا أن نحيله إلي كتب التفسير التي شرحت اللفظ "وسطا" بما كان يستخدمه الرسول(صلي الله عليه وسلم) وجماعة المسلمين عـــند نـــزول القـــرآن قبل أن يتسلل مفهوم أرسطو عن الوسطية إلي ثقافتنا العربـــية، فعلـــي سبيل المثال، لا الحصر، يفسرها الزمخشري في كشافه: خـــيارا وفضـــلا وعـــدولا، ويفسرها ابن كثير: خيار الأمم، والوسط ههنا: الخيار والأجود، كما يقال قريش أوسط العرب نسبا ودارا، أي خيرها، وكان رســـول الله وســـطا في قومه، أي أشرفهم نسبا كما جاء في تفسير الجلالين خـــيارا وعـــدلا، أما المفسر المحدث فريد وجدي فيقول: خيارا أو معتدلين متحلين بالعلم والعمل.

ولا أحسب أن وصف ثقافتنا بأنها خير الثقافات يضيف شيئا أو يميزها عن غيرها.

ومهمـــا يكـــن من أمر معني الوسط في القرآن الكريم، فإنه يشير إلي ســـياق الإيمـــان والعقيدة الذي جاء فيه الإسلام خاتما، بعد عقائد أو مواقف سابقة كان ينبغي أن يتحدد موقعه منها، وأغلب الظن أن نقل اللفظ في سياقه الديني إلي سياق الثقافة المضطرب بالجديد من المتغيرات لن يجدي شيئا.

أسطورة الأصالة والمعاصرة

نـــوع من الرصف أو اللصق اللفظي الذي يجمع النقائض معا في صرة أو جـــراب واحـــد مـــثلما نجمـــع بين ما يسمي بالتراث والتجديد، والاتباع والإبـــداع، الخصوصية والعالمية...إلخ، وهو حل يسير هين ككل ضروب التوفيق والتلفيق التي تخلق وهما بالإنجاز، وتقتصد في إنفاق الجهد والبحث في مواجهة الخصومة.

فـــإذا ما أمعنا النظر في المفهومين المتلاصقين لوجدنا أنهما لا يميزان شيئا، ولا يضيفان جديدا، كما لا يرفضان شيئا فهما معا لا يدعواننا إلي أمر

دون الآخـــر، وجمعهما معا علي صعيد واحد لا يمثل موقفا محددا ينبغي أن نتخذه.

فالأصـــالة إذا كانـــت تعنـــي التمسك بالهوية، فهذا شيء لا جديد فيه، والمعاصـــرة إذا كانـــت دعوة إلي أن نتواءم مع تغيرات عصرنا فذلك أمر محمود لا خلاف حوله.

ولابـــد إذن لكـــي يحمـــل هذا القول مغزي أو دلالة أن يشير علينا بما ينبغـــي أن نـــأخذ أو نترك، فهذه مسألة ترتد إلي البرامج المختلفة التي يتقدم بهـــا المواطـــنون في نطاق المجالات الرئيسية المتعددة للممارسة السياسية والاقتصـــادية والاجتماعـــية، فحينئذ يصرح بالخلاف في الاجتهاد، وهو ما يتجلـــي في الأساليب المنوعة لطرح المشكلات الحقيقية، والبرامج المقترحة لحلها، فلسنا في حاجة إلي ترديد مفهومات نصف بعضها إلي جوار بعض، ونثـــير الشـــغب بيـــنها عوضا عن مواجهة المشكلات الفعلية والسعي إلي الخروج منها.

وبـــدلا مـــن البحـــث عـــن دلالة للمفهوم الذي نضعه، ثم نختلف حول تعـــريفاته واشـــتقاقاته، ونمضـــي الوقـــت في مناقشة دلالاته، وننفق الجهد والطاقـــة فـــي توزيـــع الأنصبة علي ما يخص الأصالة، وتلك التي تنسب للمعاصـــرة، بـــدلا من ذلك، علينا أن نتصدي للواقع الراهن نفسه، وننازل مشـــكلاته فـــي مجالاتها الأصلية، وتخصصاتها المحددة، بعيدا عن اللافتات اللفظـــية التـــي لا تعني شيئا بعينه يمكن الخلاف أو الاتفاق حوله في حوار جاد.

أسطورة الغزو الثقافي

لا مـــندوحة عـــن الإقرار بأن الثقافات جميعا قد تبادلت التأثر والتأثير بطـــرق متعددة منها السلمي ومنها المسلح، ولا تخلو ثقافة قائمة من عناصر دخلتها عنوة أو طواعية، وما يدخل عنوة هو ما يجدر أن نطلق عليه الغزو الثقافـــي أما ما يتسرب دون سلاح فليس غزوا، بل اختيارا من فئات محلية تؤثر مصالح مادية أو غير مادية مقابل فئات ومصالح أخري.

فالغـــزو إن كان ثقافيا فلابد أن يكون مفروضا بقوي أخري غير ثقافية لأن الثقافة أمور تخص العقل والوجدان أي الوعي.

وافـــتراض الغـــزو الثقافي دون قوي مادية أي دون قهر، إنما يفترض أمورا غير مقبولة علي الإطلاق أهمها:

١- أن المواطن خامة طيعة بلا شخصية، أو هو بالأحرى جوال فارغ يمكـــن لأي عابر سبيل أن يحشوه ببضاعته الفكرية، وبالتالي علينا أن نغلق الحـــدود دون الفكر الدخيل. أو أن المواطن مريض يخشي عليه من لفحات الهـــواء، ومن الخير إغلاق النوافذ تحسبا للتيارات الوافدة التي قد تسبب له التهابا عقليا أو فكريا وخيم العاقبة.

٢- أن الحشـــو الســـيئ الذي ينبغي مقاومته هو دائما وافد من خارج الحـــدود، لأن العـــدو يـــتربص بـــنا للتسلل إلي عقولنا الفارغة لكي يملأها ببضـــاعته الثقافية. أو أن ما نتداوله من وسائط أو معارف ثقافية ليست في حاجة إلي مزيد. أو إنه أفضل مما يتناوله الناس جميعا في كل أنحاء العالم.

٣- أن هـــذا العدو الخارجي لا ينتج إلا نوعا واحدا وفاسدا من الثقافة، ومن ثم فلا يتطلب تصديا لسبب البلاء والنكبات إلا إغلاق الحدود، وإعلان الحظر علي الفكر المستورد، ومحاكمة عملائه من المثقفين المشبوهين.

٤- ويضـــمر كل ذلك في نهاية الأمر افتراضا أخطر وأفدح، وهو أن جهـــة مـــا تعلونـــا جمـــيعا، وتملك الوصاية علي عقولنا وهي التي تحظي بتفويضـــنا الكـــامل، هذه الجهة، أي الحكومة، هي التي نناشدها ونرفع إليها التماســـاتنا لأنهـــا وحدها التي ستقوم بكل الإجراءات لدفع هذا الغزو الثقافي الأجنبي، وليس لنا، بوصفنا مثقفين، أو لعقولنا من الأمر شيء.

وأحسب أن الاتهام بالغزو الثقافي تصور مادي غليظ يقيس كافة الأمور بمقـــياس السلع والسوق والمنافسة حينما يسعي أصحاب الاتهام إلي المغالاة فـــي رفـــع الرســـوم الجمركـــية علي ما يسمونه أفكارا مستوردة باستعداء الســـلطات وغلق أبواب النشر، وإثارة استنكار الجماهير. فنحن نغتبط ونهلل عـــندما نكتشـــف أن أحد مصطلحاتنا أو إحدى أفكارنا قد بلغت الغرب وأفاد منها، ولكننا نسخط ونستنكر استخدام البعض لمصطلح أو فكرة وافدة، ونحن هـــنا لا نصطنع ميزانا عادلا، إلا إذا كنا نقصد الميزان التجاري لأنه وحده الذي يقدر السعي إلي زيادة الصادرات علي الواردات!

الفصل الثالث

ثقافة الجلد أو الكفاف واختراع شبح الآخر

لاتعنـــي الـــثقافة كمصطلح أو (دال) مدلولا واحدا بعينه، ولايهمنا هنا دلالـــتها الشـــائعة التي تقلص مساحتها إلي مجموع الصور المرهفة للوعي الاجتماعـــي التـــي تنعكس علي المرايا المصقولة لأدوات التعبير والإبداع، وهي التي ينتجها المفكرون والفنانون.

أمـــا الذي يعنينا فهو دلالتها المقبولة في العلوم الاجتماعية، التي تشير إلي جملة الفاعليات والمجالات الإنسانية التي تتبدي في السلوك والتفكير معا مما ييسر تعلمه ونقله عبر الأنساق والنظم الاجتماعية.

فهـــي إذن ذلك الكل المعقد المتشابك من أساليب الحياة الإنسانية المادية واللامادية(أي الفكرية أو الروحية) التي ابتدرها الإنسان واكتسبها، ومايزال يكتســـبها بوصـــفه عضوا في جماعة أو مجتمع في مرحلة معينة من تاريخ تطوره، وتكون الثقافة علي هذا الوجه، ما يصوغه الإنسان في قلب الطبيعة مـــن جوانـــب مرئـــية وغير مرئية ليقيم عالمه الإنساني الخاص مما يغزوه مـــنها، ويروضـــه، ويدجـــنه، ويهجنه، ويضفي عليه رداء إنسانيا من قيمه ومعايـــيره، ويضع له قواعد الإباحة والتحريم، فبينما تحكم القوانين الطبيعة، تسود القيم والمعايير عالم الإنسان، أو الثقافة.

١- بنية الثقافة

ولكـــل ثقافـــة بنـــية تتشكل من جوانب ثلاثة: المقومات أو المكونات، والمحـــتويات، والعلاقـــات. فأما المكونات أو العناصر فهي أطر أو هياكل عامـــة تشـــترك فـــيها الثقافات المختلفة جميعا كاللغة والفن والدين والأسرة والسلطة وغيرها، والمحتويات هي المتغيرات أو المنتجات النوعية الخاصة التي تملأ الإطار العام، وتختلف من ثقافة إلي أخري.

وتصـــاغ أو تعقـد علاقات معينة بين هذه المحتويات أو المتغيرات من شـأنها أن تحـدد الأوزان النسبية لهذه المتغيرات فيما بينها، وغلبة بعضها علـي البعض الآخر، أو احتواءها له، أو صراعها معه، وهي علاقات غير مستقرة أو ثابتة لأنها هي التي تشير إلي اتجاه حركة المجتمع وفقا لمحتوي المنتجات الثقافية، ومطالب أو مصالح الفئات أو القوي البشرية المسيطرة.

فمـن كل ذلك جميعا تتألف بنية الثقافة التي لاتكاد تستقر حتي تعصف بها نشأة علاقات جديدة بين عناصرها ومتغيراتها فتحدث التوتر في نسيجها السائد، وتدفع إلي تعديلها أو تغييرها، وهذه العلاقات في كل ثقافة هي التي تحدد الطابع أو الصبغة، أو ما يسمي بالخصوصية، ومن ثم لا يظل العنصر الواحـد هو نفسه، سواء في محتواه أو علاقته بغيره في كل التفاعلات، لأن المكـون الثقافي كاللغة والدين والعلم مثلا، لايعمل بمفرده ككيان مستقل، بل يعمل بوساطة بشر يمارسونه، ويفهمونه، ويستخدمونه علي نحو دون آخر، في سياق معين أو غيره.

ومـن هـنا يمكـن أن نفـرق داخل المتغير أو(المحتوي) الواحد بين جانبين: ثابت استاتيكي، ومتحرك ديناميكي، فأما الأول فهو ما يتعلق بالنص المحفـوظ، أو المخـزون السـابق. والثاني هو الممارسات الموظفة لما هو محفـوظ وهـي ممارسـات تتغير مواقعها من الثقافة، ويتفاوت دورها من مـرحلة إلي أخري، ومن فئة أو جماعة دون غيرها. ويتألف من الجانبين، المحفـوظ والموظف، في فترات سابقة، ما يسمي بالتراث. ولايستقر التراث كمجـرد رصيد، بل يصير حدثا تاريخيا تحتويه الأحداث اللاحقة، وتتفاعل معـه، ولكن علي أنحاء شتي ومستويات متعددة. فقد ينطلق أحد جوانبه من حاضـنته الثقافـية لـيؤثر فـي ثقافـات أخري ويصير ملكا مشاعا لسائر الإنسـانية، كما قد يؤلف بعض منه تمثلا واحتذاء لأجزاء من ثقافات أجنبية أخـري، وقـد تنفصل عنه بعض الجوانب التي تذوي ويتوقف دورها بوفاة طبيعـية، وربما تدمر بعض جوانبه عمدا واغتيالا مثلما يحدث أثناء الغزو الأجنبي لصالح جوانب من ثقافة أخري، أو وسط مغاير تنقل منه غرسة أو شـتلة لـيعاد اسـتنباتها في المجتمع المقهور. غير أن جوانب أخري تظل صـالحة للبقاء والاستمرار داخل الثقافات المتنوعة التي تتعاقب علي الأمة الواحدة مثل اللغة أو الاعتقاد وغيرهما من أمور.

٢ – التراث: المعيش والمدون

فـــي كل ثقافة يترسب في بنيتها الأساسية تراث، وهذا التراث المترسب تشكيلة من عناصر متعددة من ثقافات سابقة تتابعت علي الأمة الواحدة، فهو لايمثل ثقافة واحدة بعينها، وعناصره ورموزه المستخدمة لاتعني شيئا واحدا لأن العنصر الواحد تتفاوت دلالته وممارسته، ويختلف محتواه من ثقافة إلي أخري، كما تتباين علاقاته بسائر العناصر، وهنا ينبغي الإلحاح علي أمرين:

الأول: أن الـــتراث لايعنـــي النص في ذاته، بل فهم البشر له في زمن معين، وطرق استخدامه وتوظيفه، ومواقفهم المتعارضة منه.

الآخـــر: أن الـــتراث ليس ما جمد أو ثبت عند مرحلة معينة سابقة من مـــراحل تطـــور المجتمع الذي ينتمي إليه التراث، أو ما اقتصر علي انتقائه من إحدى الثقافات التي سادت المجتمع أو الأمة في فترة بعينها.

فليس للمجتمع أو الأمة ثقافة واحدة مستمرة طوال العصور، ولكن الذي يســـتمر هـــو تلـــك الجوانب التي تتجمع عن الثقافات المتعاقبة وتتشابك معا لتبقـــي حية مؤثرة، وتؤلف ما يمكن أن نسميه المتصل القومي أو المشترك القومـــي، ونقصـــد به مجموع الجوانب المشتركة لدي أعضاء الأمة، رغم اختلافهم في النوع والدين والجيل، والمهنة، والتعليم، وتتفاوت مواقعهم علي نقاط ذلك المتصل القومي من حيث عناصر الموروث المستمر.

وهـــو، علي أية حال، ليس مجرد رقع متراصة مقتبسة من هنا وهناك، بـــل هـــو بمثابة مجري جوفي، أو تيار تحتي متدفق دون وعي أو تدبر في أغلب الأحيان.

ولكـــن عـــندما تتردد اليوم كلمة تراث، ينصرف الذهن دون تحرز أو رويـــة، إلـــي مـــا دوّن وسجل منه، وحفظ في وثائق مما يلقي اليوم عناية مـــتزايدة في التحقيق والنشر، وهو ما يختلف اختلافا بيّنا عن التراث الفعلي المعيش.

فهـــذا التراث المدون شديد التنوع في محتواه، كما ينطوي علي تناقض حاد في توجهات مبدعيه، ولابد أن يقوم داعية التراث بعمليات انتقاء وتخير وفقـــا لموقفـــه الراهـــن والخـــاص، فهو إذن موقف معاصر لم تحمل عليه اكتشـــافات فـــي الـــتراث المـــدون، بل هو وجهة نظر من قضايا معاصرة مطـــروحة لا يلبث صاحبها أن يكر راجعا إلي الوثائق والنصوص بحثا عن التأيـــيد والتـــبرير. فلديه دون ريب موقفه ومصلحته الراهنة مثل غيره من

الناس، ولكنه بعد اتخاذ موقفه الفعلي وتقدير صالحه الخاص الذي يصرح به أو يخفـيه؛ يؤثـر أن تكـون أسانيده من التراث المدون التي تخيرها بعناية وقصد.

وينبغي علينا أن نفرق منذ البداية بين التراث الفعلي التاريخي، والتراث المدون:

فالأول: هو الوقائع والمواقف التي حدثت في فترات زمانية ممتدة عبر سـياقات اجتماعـية وسياسـية مخـتلفة ومتـباعدة، وعبرت عن اتجاهات متعارضـة ونـزاعات دمويـة أحيانا، ويضم التراث، علي هذا الوجه، كل المـبادرات التـي اجترحها البشر الذين يقع اختيارنا عليهم ونعدهم سلفا لنا، وهي مبادرات تصدت لمشكلات نشأت في زمانهم وقدمت حلولا متباينة لها، ملائمة لها أو غير ملائمة.

أما التراث المدون:

فهـو الـذي بلغنا اليوم عبر قنوات متعددة، وما يزال يعد بالكشف عن المـزيد منه، فلا يعد تعبيرا شفافا نقيا عما حدث أو سجل بالفعل، فهو ينوء بكـل التحيزات التي تثقل كافة محاولات تدوين التاريخ، وأبرزها يرجع إلي حقـيقة واضحة بسيطة وهي أن التاريخ يكتبه المنتصرون ولابد بالتالي أن نكون علي بينة من أن تراث المعارضة لم يستنقذ منه إلا النزر اليسير. ولا يكشـف التراث الباقي عن التناسب الحقيقي لكافة المدونات وأوزانها النسبية الفعلية، مما يفضي إلي تحريف الصورة الواقعية للتاريخ. ويشبه هذا التراث المـدون مـا نكتشفه من آثار بالمصادفة، وربما يكتشف في وقت لاحق ما يقلب أو يعدل من وجهات النظر إلي واقع أصحاب الآثار.

بـل إن مـا بقي بأيدي حفظته ليس شيئا واحدا، فقد خضع لإجراءات قاسـية مـن التخير والتحيز، فإذا ما اتخذنا مثلا مؤسسة واحدة فحسب هي الجـامع الأزهر في مرحلتين من مراحل تاريخه لألفينا تناقضا لافتا بين ما كـان يلقـي مـن دروس إبـان الفاطميين الإسماعيليين، وما أضحت عليه الدراسـات بعد غلبة الأيوبيين السنيين، فمن شأن هذا أو ذاك أن يدفع تراثا بعيـنه إلـي الاندثار والاختفاء. ولسنا في حاجة إلي الإفاضة في الاتجاهات المخـتلفة في علم مصطلح الحديث وإلي تباين المصادر لدي السنة والشيعة،

فكلهـا مسـائل تـتعلق بالـتراث المدون، وطرق إعادة تركيبه وتأليفه، بل واختراعه أحيانا كثيرة علي أغلب الظن!

ويضـاف إلي هذا كله اختلاف مناط التركيز والاهتمام لدي قارئي هذا التراث، فكثيرا ما نصادف أولئك الذين يمكن أن نطلق عليهم صيادي التراث أو مسـتثمري التراث في المواد المنشورة والمذاعة اليوم، عندما يصورون لـنا الأمـة العربـية تصويرا خياليا مريحا من خلال المساجلات والأقوال والأشـعار بين ندماء الخليفة أو الأمير. ولا ريب أن هذا التراث الرسمي لا يمـثل مـا كان ينبغي أن يسجل من التراث الفعلي لأنه أغفل أو أسقط جانبا مهمـا لـم يصلنا منه إلا القليل الشائه وهو التراث الشعبي البعيد عن تراث السلطة، وكذلك تراث المعارضة.

فلقـد كـان هذا التراث الرسمي محلقا بعيدا في الدواوين والبلاط وكدنا نصـدق أنـه كـان الزاد اليومي للبسطاء من الناس. فنحن ننقل أوضاعنا الراهنة ونسقطها علي الماضي الذي لم يكن فيه تعليم نظامي عام أو صحافة أو إذاعـة حتي يمكن القول إن هناك رأيا عاما، فتلك مناطق مجهولة لنا ولا يستقيم فهمنا للتراث بأن نستبدل به تراث النخبة وندماء الأمير أو غرمائه.

ورغـم ذلـك فإن ما ظفرنا به حتي اليوم، من تراث مدون في العلوم العربـية في الطبيعيات والرياضيات وغيرها، هو وحده الذي يمكن أن نعفيه مـن الريـبة والـتحفظ وذلك لأن تلك العلوم لم تتخذ من النصوص الدينية مرجعا أو تأويلا، ولم تخضع لرقابة السلطة السياسية ومراجعتها لأنها كانت بعـيدة عـن الشئون السياسية والاجتماعية، فلم تخاطب الأمير أو الجماهير علـي السـواء؛ لأن مصـداقيتها لم تكن رهنا بتأييدها، ولذلك لم تسبغ علي خطابها أو تزينه بما يجذب هذا أو ذاك أو يرضي غروره.

ومهمـا يكن من أمر التراث معيشا كان أو مدونا، فثمة اقتناع عام بأنه يـنطوي علي مبادرات ومنتجات تجاوز بها إنتاج ثقافات أخري سابقة عليه أو معاصـرة له، وهـذا حق، فماذا نصنع به أو بماذا نفيد منه؟ ولا شك أن التراث؛ أي ما سبق من وقائع ومواقف وخبرات حية لجماعات أو أشخاص تعارضت مصالحها واتجاهاتها في نطاق أوضاع تاريخية معينة، قد تصدي لمشكلات محددة، وقدم لها حلولا مختلفة أفلح بعضها وأخفق بعضها الآخر. فأما ما أفلح من حلول أو خبرات فقد كانت تمثل قطيعة مع حلول أو خبرات

لمن سبقهم أو عاصرهم، فأمامنا إذن أمران مختلفان، فإما أن نأخذ بالفعل أو الاجتهاد، أي القطيعة مع الغير، أو نأخذ بالنتيجة المدونة.

نحـــن نفاخـــر بتراثـــنا لأنه صنع شيئا جديدا في عصره، غير أن هذا الجديـــد فـــي زمانـــه لم يصبح كذلك اليوم لأنه كان نقطة ابتداء أو انطلاق لغيرنا ممن واصلوا الخطي واستأنفوا المسير بعده، ولا يمكن الإغضاء عما بلغه غيرنا من نتائج جديدة، فإحياء التراث إذن لا يتم إلا بإهمال الميراث أو بعـــبارة أخري؛ علينا أن نحتذي صنيع التراث عندما شق طريقا جديدا، ولا نقفـــو اثـــر منتجاته، تماما كما يصنع العلم، أي المبادرة إلي الجديد وإنكار القديم ولكن بالمنهج العلمي الذي يبقي علي الدوام جوهر العلم.

تلك هي الفائدة الرئيسية من التراث، وهي أن ننقلب علي إنتاجه السابق الـــذي استبدل به اليوم إنتاجا أفضل، أى ينبغي علينا أن نواصل المسير بعد الشوط الأخير. فكما أنكر أسلافنا ما بلغهم، ننكر مثلهم ما بلغنا منهم، إن لم يكـــن قـــد واصل سيره وتقدم من بعدهم فنستلهم من التراث روح المبادرة، علي أن نحفظ منتجاته موضوعا للبحث والمقارنة والمناقشة.

فنحـــن إذن في حاجة إلي ذاكرة مضادة إن صح هذا الاصطلاح، كالتي يصطنعها العلم، فنعمل فيما سكت عنه التراث، ولم يفكر فيه، ومالم يواجهه أو يقـــترح له حلـــولا، ولا نقـــنع بـــأن نكون مجرد تلاميذ يحفظون ما قال الأولـــون، فهـــذا لن يدفع إلي معرفة جديدة، بل نصنع مثلما صنعوا عندما انفتحوا علي كل الثقافات، ونقدوها، وأبدعوا جديدا نفخر به.

وما نسمعه اليم من دعوات ضجيج وصخب لاستلهام التراث أو إحيائه لـــم تـــثمر شيئا حتي الآن، ولم تضف إلي معارفنا شيئا غير الإلمام ببعض جوانب التاريخ القديم. ولا أدري فيما هذا الصراخ العالي والتنادي بين القوم إلا أن يكـــون طلبا للإذن والترخيص بمزاولة إحياء التراث ليبدأ عملهم ولا اعتقد أن أحدا يمنعهم من ذلك!

٣- ثقافة الجلد:

أمـــا ثقافـــة الجلد فهي العناصر المشتركة التي لا تفرق بين البشر في ســـائر المجـــتمعات والثقافات في اكتسابها، ولا يتفاضل فرد عن آخر فيما يمـــتلكه مـــنها وهي العرق والدين واللغة، فهي حظ مشترك بين البشر علي

السـواء، فلكل عرقه الذي ينتمي إليه ودينه الذي يعتنقه، ولغته، التي يتحدث بها بين قومه.

وتكـاد تـورث تلـك الثقافة بأقرب مما تورث به العناصر البيولوجية وربمـا تماثلها في أنها تمارس نفوذها دون اختيار أو تمحيص يجري علي مسـتوي الوعي والانتباه، غير أنها تؤثر كنوع من التحيز الخفي الذي يكمن تحـت السطح وقد ينفجر كالبركان في مواقف معينة لأنها تعبر عن الأغوار العمـيقة فـي الفـرد التـي قد تثور عندما تحين لحظة ضعف في السطح الخارجي في مواجهة احتلال أجنبي، أو مشكلات حدود، أو حرب أهلية.

وهـذه العناصـر أو الجوانب من الثقافة اللصيقة بالجلد لا فضل لأحد علي آخر في امتلاكها لأنها مشاع بين الجميع علي السواء، ويبدأ الكسب أو الامتـياز بين فرد وآخر بما يحققه فوق هذه العناصر من طبقات أو درجات فـي سـلوكه وفكره أي عندما يكسو ثقافة الجلد ثيابا وأردية لأنها وحدها لا تكفي مميزا وفارقا.

ويـؤدي الاكتفاء بهذه الثقافة إلي القناعة بالجهل الذي يسبغ عليها قداسة وتوقـيرا، وعـندما يدخـل الفرد في منافسة أو مواجهة مع الغير يعمد إلي تقلـيص ملعـب المنافسـة إلي الحدود التي يألفها ويحفظ مفرداتها وتكون المـبارزة نوعـا من التفاخر والمباهاة بأمور تتعلق بالعرق والعقيدة واللغة، وهـنا تضـفي الأهمية القصوي علي أسوأ صور التحيز أو التعصب، كما تصعّد أشد التجريدات ضحالة وسطحية إلي مراتب المثل العليا.

فلا تصلح ثقافة الجلد إطارا مرجعيا إلا لدي من لا يملك تراكما معرفيا فسيحا، وخبرات إبداعية، ومبادرات مؤثرة. ولا يعنينا هنا من يستخدمها عن سوء قصد لإثارة الجماهير وسوقها إلي مغامرات دموية مدمرة كما صنعت الفاشية، علي اختلاف شعاراتها ودعاواها، أو كما صنع الغرب في العصور الوسطي في سطو مسلح علي الشرق إبان الحروب الصليبية.

فبدلا من مواجهة المشكلات الفعلية في أرضها وساحتها وأدوات حلها، يـنزع أصـحاب ثقافة الجلد أو ثقافة الكفاف، إما عن فقر في المعرفة، أو عجـز عن الفعل، إلي إثارة حرب زائفة بين عناصر تلك الثقافة، بين الدين والعـرق مـثلما نـري فـي السـجال بين الإسلام والعروبة، أو ما يسمي بالشـعوبية، ومحاولـة إخضـاع أو إدراج أحدهما في الآخر إلي آخر هذه

المماحكـــات العقـــيمة التـــي تثير غبارا كثيفا يحول دون صفاء وجه الواقع الراهن أمام الوعي؛ لنكشف مشكلاتنا الحقيقية ونعاون علي حلها.

٤ – صورة الآخر: مقلوب صورة الذات

لـــم يكـــن من المتوقع منذ بضع سنوات خلت أن تتسيد ثقافة الجلد في معظـــم أنحـــاء العـــالم، وخاصـــة في أوربا، بعد أن راجت مقولة مارشال ماكلويـــن عـــن حياتـــنا اليوم في قرية عالمية فتدفق المعلومات عبر وسائل الاتصـــال أو الإعلام، واقتحامها لسمع وبصر كل إنسان، لابد أن يؤثر في اتخاذ القرارات الاقتصادية والسياسية في كل مكان، غير أن ما نطالعه اليوم فـــي الحروب المشتعلة بين القوميات والطوائف الدينية يحملنا علي التشكك في قيام القرية العالمية.

وأغلـــب الظـــن أن مفهوم القرية العالمية مثل غيره من المفهومات أو الشـــعارات التـــي أطلقهـــا أصحاب الطموحات السياسية بما ترتبط به من مصالح خاصة مثل الكوسموبوليتانية الخاصة بإمبراطورية الإسكندر الأكبر، والعـــالم المســـيحي الروماني، ودار الإسلام أو الخلافة، الأممية الاشتراكية وغـــيرها، فالقـــرية العالمـــية إذن تعبير عما يطمح إليه أصحاب المصالح الرأســـمالية العالمية. فهذه القرارات المعتمدة علي وسائل الإعلام إنما تؤثر مباشـــرة فـــيما يخص الجوانب المادية من ثقافات الشعوب، علي حين تظل الجوانـــب الأخـــرى متخلفة لصيقة بثقافة الجلد، ومن ثم لا تمس المعلومات المـــتدفقة أو المقـــتحمة سوي السطح والقشرة، وتظل الأعماق أسيرة لثقافة الكفاف الخاصة بالجلد، وجلد المرء عشيرته، وأجلاده أعضاؤه وجسمه كما يذكر المعجم.

وتفـــترض ثـــورة المواصـــلات هذه أن المعلومات تفيض دون عوائق ليـــتعرض لها الجميع، بيد أن الأبواب والقنوات لا تفتح في كل البلدان دون رقابـــة، كمـــا لا يـــتكافأ المواطنون جميعا في تعرضهم لها، أو في درجة وصولها لهم، فثمة وسائط متفاوتة لنقلها وتعريض المواطنين لها.

وحتي إذا ما افترضنا أن الجميع يتلقونها علي السواء، فإنها سرعان ما تـــترجم إلـــي شـــفرات ثقافية خاصة بالاستقبال؛ لأن الجماعات، إن لم يكن الأفـــراد لا يسمحون بمرور المعلومات إلا عن طريق شاشات أو مرشحات ثقافية لها آلياتها الخاصة للترجمة والتأويل، ومن ثم للتقدير والتقويم.

فعلـــي ســـبيل المثال، نقرأ أو نشاهد أو نسمع أن برلمانا أوروبيا أجاز حـــرية الشـــذوذ الجنســـي واستبعده من قائمة الجرائم المعاقب عليها قانونا، فســـرعان مـــا يترجم ذلك أو يفسر علي أن الديمقراطية تحث علي الشذوذ الجنسي وتشجع عليه وإذن، فالديمقراطية ضد الدين والأخلاق!

وعـــند هـــبوط الإنسان علي القمر مالبثت أن ذاعت الأخبار أن أول ما سمعه الهابطون هو الأذان للصلاة! وربما أدي التدفق أو الاقتحام الإعلامي إلي أن ينزوي البعض كنوع من التماس'الأمان والتشبث باليقين الذي أوشك علـــي الانهـــيار بالتدخل المتسارع للإعلام. فالاعتزال يعصمه من طوفان المعلومات التي تدفعه دفعا إلي الخضوع لمقاييس مختلفة عما ألفه من ثقافة الجلد، وفي مقابل هذا التهديد تكون اللهفة علي تكريس الخصوصية واستنفار التعصب دفاعا عن النفس التي أوشكت علي الغرق والضياع.

فعندما تواجه الأمة حالات من الهزيمة أو الانكسار والتبعية والانحسار، وتشعر أن ما راكمته علي جلدها الثقافي من مواقف أو من أوضاع معاصرة لم يسعفها في مواجهة التهديد من الآخرين، عندئذ يلتهب جلدها الذي لم يعد تحميه أردية الثقافة المعاصرة، ونجد مصداقا لذلك في ألمانيا النارية، وفلول الاتحـــاد السوفيتي، ويوغوسلافيا حروباً بين الأعراق والأديان واللغات، كما نواجه اليوم في بلادنا العربية جماعات الجهاد والإنقاذ الإسلامية، إلي جانب التنظيم العالمي للقاعدة.

فـــبدلا مـــن الحوار يكون الصدام، فالحوار يفترض تبادلا ومقايضة إذا أنجز في نطاق الثقافة العصرية ولكنه يغيب إذا ما سيطرت ثقافة الجلد، ولا يبقـــي إلا استخدام القوة المادية أو العضلية، لأن السلاح مجرد امتداد لقبضة اليد، أو الظفر والناب.

ولهـــذا كانـــت الأفكار المختلفة للخصوم في نظر أصحاب ثقافة الجلد– محـــض عـــتاد لـــغـــزو ثقافي ينبغي أن يواجه بما يلائمه من أسلحة القتل والتدمـــير، ويتسع التدمير ليستوعب استعداء السلطات، والتكفير، والحظر، والفصل من المناصب، أو التفريق بين الزوجين تمهيدا للاغتيال!

وفـــي غمـــرة الصدام الدموي، تستدعي من معجم التاريخ القديم لثقافة الجلد تسميات بديلة.

فالــثورة تصـــبح فتــنة، أو خــروجاً، وأفراد العصابات مجاهدين أو مهاجريــن. ويســـمي المعارضـــون في إيران بـــالمنافقين، وتصبح أمريكا الشيطان الأكبر كما يصير المختلف في الرأي مرتدا أو فاسقا...إلخ

والتاريخ علي امتداد القرون يقدم لنا الأمثلة العديدة فكل من يختلف عن أمـــة مـــن الأمم هو من البرابرة. وكان الصليبيون يعدون المشرق العربي وثنـــيا، كمـــا كان يعد ما هو خارج عن دار الخلافة الإسلامية دار كفر أو حـــرب.. وكـــان الاتحـــاد السوفيتي السابق إمبراطورية الشر لدي الإدارة الأمريكـــية، بينما كان يمثل الفرس لدي الجماعات الإسلامية، وكانت أمريكا لديهـــم هـــي الروم بمصطلحات القرن السابع الميلادي وذلك قبل أن ينقلب المجاهدون على أمريكا.

وفـــي رحـــم ثقافة الجلد تتولد صورة الذات أو(الأنا) في مقابل صورة الآخر، وتقوم صورة الذات علي مستوي تجريدي أو مثالي، أي مصعّد إلي قـــيم ومعايـــير أعلـــي فأعلي، فهي ضرب من النمط المثالي المصنوع من مفاهـــيم مخـــتزلة مجـــردة، ولا يكـــتمل إلا في ثنايا عمليات من الاستبعاد والاســـتبقاء لبعض الخصائص العامة، للممارسات اليومية التي يتسامي بها وعي زائف إلي مرتبة المثل العليا.

وبالآلـــية نفســـها، ولكن بطريقة عكسية، يتم تصوير الآخر كـــمكافيء موضوعي للسيطرة أو المقاومة، أو الابتلاع أو الاحتواء...إلخ

والوعـــي الـــزائف هـــو الحـــامل أو الناقل لآلية صوغ صورة الذات، وبالتالي صورة الآخر في آن معا، وهو وعي زائف لأنه غير موضوعي لا يمـــثل الواقع أو يفسره، بقدر ما يبرر أهداف الجماعة، ويحشدها أو يحفزها إلي السيطرة علي الآخر أو مقاومته علي السواء.

فـــلا تنفصـــل صـــورة الذات عن صورة الآخر لأنهما لا تعرّفان ولا تنـــتجان أثرهما إلا باعتماد الواحدة علي الأخرى، فكل منها دالة للأخرى- بالمعنـــي الرياضـــي- حيث تتوقف قيمة الواحدة علي قيمة الأخرى؛ ويمكن مـــتابعة تشكيل صورة الآخر خلال الحقب التاريخية، في اختلاف السلطات، وتباين الشيع والطوائف والقوميات أثناء صداماتها.

وتـــتحول صـــورة الآخـــر إلي قالب جامد تنتخب له بضع سمات قليلة مطردة وثابتة، بحيث تكون حوافه حادة قاطعة، وهي في نهاية الأمر متخيل الـــذات بالنســـبة لثقافة الجلد، ومحتواها مختار من هنا وهناك ليؤدي وظيفة

معيـــنة تجـــاه الآخر هي وظيفة الاستفزاز والاستنكار، وتميل إلي التبسيط المـــبالغ فيه والمقاوم لكل الشواهد الوقائعية التي قد تناقض ذلك المحتوي أو تختلف معه.

وتقوم صورة الآخر التي تفرزها ثقافة الجلد علي التأويل السابق وليس التفســـير لأنهـــا تضم كل ما هو جديد مجهول إلي ما هو معلوم سابق، فهي ترد إلي الأول المعطي دون أية مشقة أو شكوك فالهدف هو الاحتفاظ بسكينة اليقين وثباته لتمارس فعلها في عالم سحري، وليس في العالم الموضوعي.

وهـــذا العـــالم الســـحري الذي تتعامل معه ثقافة الجلد امتداد للذات إلي الخارج كواقع بديل تؤلفه الرغبات والأمنيات.



الفصل الرابع

الأصولية: الثورة المضادة للثقافة

لامفـــر من الاعتراف بأن ثمة مسوغات موضوعية لإثارة قضية صدام الثقافات أو الحضارات في الوقت الراهن.

فهـــي توجـــد دوما في كل عصور التاريخ السابقة، والحالية أيضا، فى بـــيانات الساسة والقادة لحشد الجماهير وابتعاث حماسها للدفاع عن مصالح النخـــب الحاكمـــة، وتوفـــير وقـــود الحرب من الشباب، وتوزيع الاستشهاد والخلود للقتلي علي كلا الجانبين.

غـــير أنها تشغلنا اليوم كقضية جديرة بالحوار والبحث، بصرف النظر عن تباين المقاصد لدي الذين يؤثرونها بالاهتمام.

فهـــي تشـــير إذن إلي استجابات جديدة لمثيرات موضوعية حديثة تبرر مشـــروعية تصـــدرها لجدول أعمال الحوار الساخن الذي يدور اليوم ونحن نواجه عصرا أو عالما جديدا لم تتحدد بعد قسماته.

١- أعراض لأزمة وليست علة

فمـــن بيـــن الباحثين الذين أسهموا في استشراف المستقبل القريب، نجد بريجينسكي عام١٩٧٠ الذي تنبأ في كتابه عن العصر التكنتروني بأن العالم قـــد أصـــبح قـــرية كوكبية، ولكن دون علاقات القرية وقيمها التقليدية. فهذا العـــالم الجديـــد في سبيله إلي تكوين جيتوات، جمع جيتو؛ في كافة أرجائه، فهو يجمع بين الشمولية والتفتت معا، ويؤدي ذلك إلي التفكك وانقسام الذات بمـــا تحدثـــه الـــثورة التكنترونية (تكنولوجيا الكترونية) من أزمة توتر بين الإنســـان الداخلـــي، والإنسان الخارجي، وأن انفجار المعلومات أو المعرفة يـــؤذن بخطـــر التشظي الفكري بازدياد حالة عدم اليقين، كلما ازداد التوسع فـــيما هو مطروح للمعرفة. وأن الخشية من قدرة الإنسان علي التكيف بقيام

الــتعايش بيــن المجــتمعات المتفاوتة، قد تسمح بنسف ما كان يعد من قبل جوهــرا إنســانيا لا يمكــن المساس به، ومن هنا، يشتد حنين الإنسان إلي خصوصية حميمة وهو يحيا في بيئة متشابكة مربكة تغيب عنها الخصوصية التي تنحسر بعيدا عن القومية بعد زوال الدولة- الأمة.

وجاء توفلر من بعده بعشرين عاما١٩٩٠ في حديثه عن الموجة الثالثة وتحــول الســلطة، متنبــئا بتــيارات تأكــيد الأصــالة الثقافية- السياسية- التكنولوجــية لكل إقليم أو منطقة وذلك بانفجار المشكلات العرقية، واشتعال الحــروب بيــن الأقليات، ورد ذلك إلي تفكك المجتمع الجماهيري السابق، وقــيام ديمقراطــية الفسيفســاء. فعدم التجانس هو سمة النظام الجديد لخلق الثروة، علي نقيض التجانس القديم، فأصبح المثل الأعلى هو التنوع، فكأننا، كمــا يقول، إزاء طبق سلاطة تختلط فيه مختلف المكونات محتفظة بتفردها ضد التجانس، وضد ما يسميه بوتقة الانصهار التي تتزايد مقاومتها.

ولقــد انتشر هذا الطراز من الكتب استجابة لما تثيره الأحداث الراهنة في العالم من مشكلات وأسئلة لا تجد حلولها أو إجاباتها في النماذج السابقة أو النظريات والمذاهب المألوفة حتي وقت قريب، فكان لابد من وضع جديد للمشــكلات، يســلم إلــي إجابات جديدة بطبيعة الحال، وتختلف كثيرا عن الإجابات السابقة أو الجاهزة.

وتنتسب هذه المؤلفات إلي ما يسمي بعلم المستقبليات، ورغم الاختلاف فــي اجــتهاداتها، فإنها دراسات علمية تحاول أن تستخلص مما يحدث من متغيرات علمية وتكنولوجية واقتصادية وسياسية، ما يترتب عليها من نتائج اجتماعية، وثقافية.

ولئــن أسفرت هذه الدراسات عن استباق أو توقعات بصيغ وأشكال من الصــدام بيــن البشر تتخذ شعارات ثقافوية أو أصولية، فإنها تردها إلي ما يحــتدم فــي ساحتها المادية من تفاعلات أو صراعات بين آليات المصالح الجديــدة، أي أن مــا يبدو من لافتات ثقافوية أصولية، يحملها المتصارعون ليســت الســبب أو العلة، بل هي النتيجة أو الأعراض لما يحدث في السياق المادي الموضوعي.

وهــذا يــناقض مــا يذهب إليه الأصوليون جميعا، سواء لدينا، أو لدي الغــرب مثل هنتنجتون، فالصدام الثقافي عند الأصوليين هو السبب والعلة،

وغير ذلك مجرد أعراض ومصادفات لا ينبغي أن نقف عندها أو نوليها اهتمامنا.

فهؤلاء الذين يدفعون الصدام الحضاري أو الثقافي إلي الصدارة والواجهة، وعلي أساس مقاييسه التقليدية نفسها، إنما يستغلون ذلك في مخططاتهم الفظة التي تصلح لاستعمال رجال السياسة أو الحكام متواضعي المعرفة في أغلب الأحيان، والذين يعملون وفقا لقاعدة من اليد إلي الفم في كل الأحيان، كما تنجح في سوق الجماهير، ولا أقول قيادتها، نحو تحقيق أهداف استراتيجية لخدمة أصحاب المصالح المهيمنة. هذا علي المستوي الانتهازي لهذه الاستخدامات، كما صنع هنتنجتون. أما علي المستوي العاطفي الانفعالي، كما هو الحال عند أصوليينا، فإنها وصفة ناجعة للذين يخشون التهميش، ويبحثون عن حضن دافئ في برد العراء الذي يحيط بنا من أوضاع الانحسار والانكسار للذات القومية، وهنا يكون للتعصب أو العنف وظيفة الثوب الذي يستر العري في الوجود في خلاء العولمة أو الكوكبية. فلا يهم إذن افتقاد شروط العضوية العاملة في النادي الدولي، لأن لدينا خصوصيتنا، وتراثنا، وأسلافنا، فهذا هو ظهرنا القوي، وتلك هي عصبتنا في وجه محدثي النعمة من الفرنجة أو الغرب!

وربما يقدم لنا علم الاجتماع، أو علم النفس الاجتماعي، العون في فهم هؤلاء بما يميز به بين الجماعة الأولية والجماعة الثانوية.

فعلي حين تكون العلاقات بين أعضاء الجماعة الأولية وثيقة وتتم وجها لوجه، مثلما هو الحال في القرية أو القبيلة، لا تكون العلاقات في الجماعات الثانوية علي هذا الوجه كما هو في المدينة أو المجتمع الكبير، حيث تتحدد العلاقات وفقا للعضوية في الاتحادات المهنية والنقابات ونحوها من المؤسسات التي لا تشترط الوجود معا، أو عقد الصلات الشخصية الحميمة. وأغلب الظن أن الأصولي يخترع جماعته الأولية التي ييسر له خياله الطليق أن يتوحد فيها مع المجد القديم، ويصنع بمقتضاه انتماء دافئا. ولأنها جماعة أولية متخيلة، ينتقي الأصوليون جميعا علي تفاوت أقدارهم ومراتبهم دور أو مكانة الفئة الحاكمة من الخلفاء، والأمراء، والوزراء، والولاة، والمحتسبين، ويغفلون أن المجد القديم لم يكن من نصيب الرعية في الولايات، وهي تلك الأغلبية التي تدفع الجزية أو الخراج، أو تساق إلي القتال، أو الأرقاء، أو أهل الذمة، أو غيرهم من العامة. وحسبهم من كل ذلك أن يتوحدوا خياليا

مـع نخـبة الحكـام أو الحاشية التي في عاصمة الخلافة التي تتدفق عليها المكـوس والعشـور والغـنائم، فهذه هي جماعتهم الأولية المنتقاة، وأحلام اليقظة، كما نعلم، لا تخضع لرقابة العقل أو الواقع.

٢ - الثقافة والحضارة

والأصـولية، بكل أنواعها وشعاراتها، نزعة ثقافوية، بمعني أنها تثبت مجمـل تاريخ الإنسان وسلوكه عند عامل أو متغير من عوامل أو متغيرات الثقافة، بحيث يغدو فطرة أو غريزة لا تتحول وبالتالي يميز أمة من أمة، أو بالأحرى، يميز نوعا بشريا من نوع آخر مرة واحدة وإلي الأبد. وإذا كانت الحيوانات تصنف بسمات بدنية، فإن البشر، عند هؤلاء، يصنفون، في أغلب الأحـوال، طبقا للعقيدة الدينية التي لا تتصل بموضوعات الطبيعة، بل بنظم الـثقافة وعناصـرها، ويتفق الأصوليون الإسلاميون مع هنتنجتون علي أن محور التصنيف هو الدين.

وقـد اسـتخدم فـي هـذا الصدد مصطلحا ثقافة، وحضارة علي سبيل الترادف في أكثر الأحيان.

وعليـنا الآن أن ننصـرف عـن كل من الخطاب السياسي الانتهازي بطبيعـته، والخطـاب الانفعالي اللذين هما في نهاية الأمر مقال ديماجوجي (غوغائـي)، وان تباينـت أهداف أصحابه، وذلك كي نمضي إلي الخطاب العلمي، عسي أن نكشف الخلل في منطق تلك النزعة الثقافوية.

تنطوي الثقافة علي عدة دلالات، فمنها المشهور وهو سعة الاطلاع، أو مجمـوع الصـور المـرهفة للوعـي الاجتماعي التي تنعكس علي المرايا المصقولة لإنجازات التعبير والإبداع التي ينتجها المفكرون والفنانون، وتلك الأخيرة هى الدلالة الأدبية الشائعة.

أمـا دلالتها المقبولة في العلوم الاجتماعية، فتتسع كثيرا جدا لتشير إلي جملـة الفاعليات والمجالات الإنسانية التي تتبدى في الفكر والسلوك معا مما يمكن تعلمه، ونقله عبر الأنساق، والنظم، والمؤسسات.

أو هـي، بعبارة وجيزة، أسلوب حياة الإنسان في المجتمع، متميزا عن سلوك الحيوان، وبذلك تكون للمجتمعات البدائية ثقافتها ما دامت قد انفصلت عن عالم الحيوان.

فهـــي إذن ذلك الكل المعقد المتشابك من أساليب الحياة الإنسانية المادية وغـــير الماديـــة، أي الفكرية أو المعنوية أو الروحية، التي ابتدرها الإنسان، واكتســبها، ولا يـــزال يكتســبها بوصفه عضوا في جماعة أو مجتمع، في مرحلة معينة من تاريخ تطوره، تقدما كان أم تدهورا.

وتكـــون الثقافة بذلك، ما يصوغه الإنسان، أو الجماعة، أو المجتمع في قلب الطبيعة، من جوانب مرئية أو غير مرئية، ليقيم عالمه الإنساني الخاص ممـــا يغـــزوه من الطبيعة، ويروضه، ويدجنه، ويهجنه، ويضفي عليه رداء خاصا من قيمه ومعاييره، ويضع له قواعد الإباحة والتحريم.

وبيـــنما تحكم القوانين الطبيعة، تسود القيم والمعايير عالم الإنسان، أي ثقافته. وتقدم الطبيعة المواد الخام، وتقرر الثقافة طرق استخدامها وتشكيلها، وتعد الجوانب البيولوجية في الإنسان جزءا من خام الطبيعة، التي تضع لها الثقافة نظم أدائها ومعاييرها.

ولــــثقافة جانبان، روحي أو غير مادي وهو الذي يضم القيم والمعايير والـــنظم والاعتقادات والتقاليد، والمادي وهو الذي يمثل التجسيد المحسوس للجانب المعنوي فيما يصاغ من أدوات ومنشآت، وهو ما نسميه بالحضارة.

وتتفاعل ثقافات المجتمعات المختلفة علي كلا الجانبين علي الوجه الذي تنشـــأ فـــيه ثقافات جديدة تتعاقب علي كل مجتمع، لأنها ليست ثابتة جامدة، فليس لكل مجتمع أو أمة ثقافة واحدة لا تتغير علي مر العصور.

وكانـــت الحضـــارات، أي الجانب المادي من الثقافة، جزءا لصيقا بها بحيث كان من الممكن أن تتمايز الحضارات بتمايز المجتمعات في العصور القديمـــة والوســـطي، ولكن عندما توسع التبادل بين المجتمعات في الجانب المـــادي مـــن الـــثقافة، أي الحضارة، ازداد استقلال الحضارة عن الجانب الروحـــي الـــذي ظل فيه التبادل بين المجتمعات محدودا، وأصبحت الثقافة عنوانا لهذا الجانب الروحي أو المعنوي، وعندئذ اشتركت ثقافات متعددة في حضارة واحدة بعينها بعد أن كانت الحضارة في القديم جزءا من الثقافة.

ومن ثم انفصلت الحضارة أو كادت تستقل بنفسها عن الأصول الثقافية التي أدت إليها، وذلك لسهولة التبادل المادي بين المجتمعات المختلفة، وتعذر ذلك في الجانب الروحي الذي استقل أخيرا بمفهوم الثقافة.

ولعل من الإنصاف العلمي أن نلفت النظر إلي أمرين:

الأول: أن الـــثقافة بحســـب اشتقاقاتها في مختلف اللغات، دون استثناء، تؤكـــد الفاعلـــية الإيجابية سواء اشتقت من الزراعة، أو التقويم، أو التربية والتهذيب، أو الصقل والتشكيل.

والثانـــي: أن مدلـــول الـــثقافة، ليس له كلمة أو دال أصلي خالص، بل تســـتخدم فـــي كل اللغات علي المجاز، أي لما أريد به غير ما وضع له في محـــل الحقـــيقة، كمـــا يقول أصحاب البلاغة، ويعني هذا أنها تفيد التجاوز والخروج عن الأصل الطبيعي أو المادي.

ويفضي بنا هذان الأمران إلي أن الثقافة، بحكم التعريف، لا تعتبر أمراً ثابـــتاً نهائـــياً، كمـــا يـــزعم أصحاب النزعة الثقافوية من الأصوليين. فهم يجمـــدون، ويثبتون ما ليس كذلك، فهذه النزعة إذن أدني إلي أن تكون نزعة طبيعـــية أو بيولوجـــية، أو مادية في نهاية التحليل، لأنها تجعل من صنيعة الإنسان وإرادته واختياره شيئا لصيقا بجسمه.

ويترتب علي هذا التصور الجسماني المشيأ نتائج فادحة:

١- إن الرأي أو الفكرة، أو الموقف، أو الاعتقاد في نظر هؤلاء عضو أو جارحة من كيان صاحبه الذي يتألم ويثور للتعريض أو المساس به، كما يســـتعذب بالتالـــي دغدغته بتملقه وتمدحه. ولا يعامل الرأي أو نحوه كإنتاج مـــتجدد يعرض للفكر وليس للجسم، ويمكن العدول عنه أو الإضافة إليه، بل بوصـــفه عاهـــة مستديمة، ومن هنا لا يفرق الأصولي الثقافوي بين الرأي وصـــاحبه، وبالتالي فإن تفنيد الآراء المخالفة لايتم بالحوار العقلي، بل بقتل الجســـد الـــذي يحمـــل الفكرة أو الرأي، وهو ما يطلق عليه حديثا مصطلح "الإرهاب" وهو أمر متسق جدا مع النزعة الثقافوية.

٢- يعامل الرأي عند الثقافويين كـــشيء أو تقدمة، أو هدية تزجي لسيد مـــا، قد يكون قبيلة أو جمهورا مفترضا، أو جهة ما، أو سلطة بعينها يرجى نـــوال عطائهـــا أو مثوبـــتها، وبالتالـــي تكون المنافسة دموية بين أصحاب الـــتقدمات والقرابين الاعتقادية حتي يتقبل من أحدهم دون الآخر! ومن هنا لاتكـــون المزاحمة بين آراء، بل بين أصحابها الذين يتقاتلون. ولا يعبر هذا عـــن نزعة فردية، بل هو مقلوب الفردية، لأن الفرد لدي هؤلاء لا قيمة له إلا بوصـــفه جـــزءا من كل هو جماعته الأولية المرجعية، ويعزي ذلك إلي سيادة قيم الثقافة الرعوية القبلية.

٣- والأخطـــر مـــن ذلك، تصور الثقافوية للزمان، فهو بعد واحد هو الماضـــي، وهـــو الأصـــل، ويستبعد الحاضر بوصفه سقوطا وانحرافا عن

الماضي، بينما المستقبل هو استعادة للماضي بإلغاء الحاضر الذي لايعدو أن يكون محض شوائب تعلقت بالماضي– الأصل.

وهــنا ينتصب العصر الذهبي مثالا نموذجيا، وعلامة مؤكدة علي هذا الأصل، أي الماضي. والواقع أن العصر الذهبي ليس واقعة تاريخية بقدر ما هــو معيار قيمي مقنع، لأنه خلاصة متخيرة ومتحيزة لوقائع قديمة صرفت عــن مواقعها المكانية والزمانية الأصلية، وصفيت من علاقاتها الاجتماعية والسياســية، بحيث أصبحت نمطا مثاليا منتزعا من ملابساته النسبية، ليعود ثانــية فيصير مقياسا لكل وقائع التاريخ. ولذلك يتسق الأصوليون مع أنفسهم عــندما يســتعيرون، أو يستدعون التسميات العتيقة لإطلاقها علي ما يستجد علــي المســرح المعاصـــر للأحــداث، مثلما يسمي المعارضون في إيران بـــالمنافقين، أو الفتنة بديلا للثورة المضادة، أو حزب الله والمجاهدون بديلا لأنصارهم، والجاهلية بديلا للمجتمع المعاصر...إلخ.

وبذلك يغدو التطور والتاريخ لديهم نوعا من التناسخ أو الاستنساخ!

٣– حضارات قديمة متعددة، وحضارة عالمية واحدة:

ازدهــرت الرأســمالية فــي الغــرب لعوامل موضوعية ساهمت فيها الحضارة العربية الإسلامية، واقترن بها، فضلا عن نشأة القوميات، النزعة الفــردية، والفصـــل بين السلطة الدينية والسلطة السياسية، ونشاط المجتمع المدنـــي، والتمثيل النيابي، وتقدم العلم والتكنولوجيا، فقدمت بذلك، لأول مرة فـــي الـــتاريخ، قيما ونظما عالمية شاملة، لأن الرأسمالية تستلزم في آلياتها، الانفـــتاح علـــي العـــالم كلـــه، سواء كان غزوا أو استعمارا، أو تبادلا، أو تنافسا...إلخ.

وبذلـــك أصـــبحت الظاهرة التي نشأت في الغرب في عصر النهضة، ظاهـــرة إنسانية عالمية. ولا ينبغي أن يستفز ذلك مشاعرنا، فالدين المسيحي الـــذي يســـود الغرب كله صادر من شرقنا، إلي جانب كثير من الإنجازات الأخري التي يعترف بها المفكرون الغربيون دون غضاضة.

ولقد علمتنا الحضارة العربية الإسلامية إبان صعودها أن صحة الفكرة أو كفـــاءة الإنجـــاز لا تقـــاس جدارتهما بمسقط رأسهما، بل بما تجلبه من مصـــالح ومنافع، بل إن الدين، بحكم تعريفه، وهنا يكمن التناقض الصارخ في مزاعم الثقافوية، دعوة عالمية لا فرق فيها بين عربي وعجمي.

وعلي أية حال، علينا أن ندخل إلي المنافسة التي تتطلبها الرأسمالية في كـل تطوراتهـا، والأمـل الوحـيد في البقاء علي قيد الحياة هو أن نصنع رأسماليتنا الوطنية القادرة علي فك قيود التبعية.

ولاينبغـي أن نتذرع بالقول بأن الاشتراكية لم تصمد في بلادنا، وكذلك الرأسـمالية الليبرالية السابقة عليها، وأن نتعلل بالأمل في طريق ثالث، فهذا طـرح سقيم لمشكلتنا لأننا لم نجرب الاشتراكية حقا، كما لم نستطع مواصلة الطريق الرأسمالي قبلها لأن القوي الخارجية وحلفاءها المحليين الانتهازيين قصيري النظر، لم تمهلنا حتي نجربه كاملا، ونجني ثماره، أو نعاني عيوبه ونقاومهـا. فقـد أجهضـت الليبرالية، كما ضربت رأسمالية الدولة المسماة بالاشـتراكية لينفسـح المجـال أمام رأسمالية عميلة تابعة لا تعدنا بخلاص قريب.

وعلـي هـذا الـنحو، فلن يكون الصراع القادم، كما هو شأن الصراع السـابق أيضا، سوي صراع بين مستويات مختلفة من النمو، وليس بالتالي بيـن عناصـر ثقافية، أو كما يحلو للبعض(دينية أو عنصرية)، فهذه كلها أغطية للرأس لا تستر حقيقة الأوضاع العارية.

ونحن مدعوون للمشاركة في الحضارة العالمية الواحدة القائمة بالفعل، عن طريق المنافسة، وفقا لشروط اللعبة وقواعدها.

ولا مـبرر للخشـية علي عقائدنا، إلا إذا كان البعض يراها شيئا ماديا لايستطيع الصمود إلا إذا حفظناه في حرز مادي مكين.

كمـا لاينبغي أن نتصايح خوفا علي هويتنا، لأن الهوية هي ما نصنعه بـالفعل أو نكسـبه، أو نبدعه، وليست مجرد بطاقة شخصية أو حجة ملكية قديمـة نخشـي علـيها مـن الضياع إذا ما شاركنا في مباريات أوليمبياد الحضارة العالمية.

ولن يتبقي من بيانات الإمساكية القديمة التي كانت تحدد مواقيت شروق الحضـارات وغروبها، ومواعيد إطلاق مدافع المعارك بينها، لن يتبقي منها إلا حضـارات متعددة قديمة سميت بأقاليمها الجغرافية، إلي جانب حضارة عالمية واحدة معاصرة ذات ثقافات محلية متنوعة.

وعليـنا أن نشـحذ أدواتنا ونتهيأ للقيام بدورنا في حلبة المنافسة، وإلا تخلفنا عن السباق، وقعدنا تحت ظلال حائط للمبكي!

الفصل الخامس

النقد الثقافى لنظرية صدام الحضارات*

يمـــثل هــذا الكتاب الحلقة الأخيرة، أو بالأحري آخر صيحة في عالم المصــطلحات المثــيرة للجــدل فــيما يسمي علم المستقبليات الذي استأثر بالاهتمام مع انعطافة القرن الماضى، استجابة لما تثيره الأحداث الراهنة في العـــالم من مشكلات وأسئلة، لاتجد حلولا لها، أو الإجابات عنها في النماذج السابقة، أو النظريات والمذاهب المألوفة والمقبولة حتي وقت قريب.

فالوضــــع العالمـــي المعاصــــر الذي تمثل فيه أمريكا وأوروبا الغربية محــــركه وآلته، يقدم أمام أبصارنا وقائع تثير الحيرة، وتعصف بما استقرت علـــيه المذاهــب والنظريات من تحليل أو تفسير. فلا ريب أننا نواجه لحظة مـــتفردة لـــيس بوســـعنا أن نسلكها في نسق تفسيري قائم، أو نجعلها حادثة مطردة في مسار تاريخي معلوم قابل للتنبؤ، ومن ثم نشأت الحاجة إلي إعادة النظر في مسلماتنا جميعا.

ومـــع تسارع التحولات في عالمنا اليوم، لايكاد يفيق المرء من تسمية جديـــدة للعصـــر، حتي يدهمه وابل غزير من تسميات أخري، وربما تسعي تلـــك المصـــطلحات الجديـــدة إلي اختزال كل ما يطرأ من تغيرات متعددة ومتباينة، وحصرها في قبضة متغير واحد يهيمن علي سائرها، ليغدو تنظيرا وتفســـيرا واحـــدا لاشـــريك له. وعلي أية حال، فإن ما يطلق عليه العصر التكنترونـــي، أي التكنولوجي الإليكتروني، والموجة الثالثة، أو تحول القوة، والمعلومات، وما بعد الحداثة، والتفكيكية...إلخ، هي جميعا استجابات جديدة لمثيرات موضوعية جديدة، وهذا ما يبرر إدراجها في جدول أعمال الحوار الســـاخن الـــذي يدور اليوم، ونحن علي عتبة عصر أو عالم جديد لم تتحدد قسماته بعد.

* هــذا الفصل هو المقدمة النقدية الشارحة التى نشرت مع الترجمة العربية لكتاب صدام الحضارات لهنتنجتون.

لكـــن ســـرعان ما تصدر مفهوم صدام الحضارات الذي سكه صمويل هنتنجـــتون جدول أعمال هذا الحوار الصاخب، بل وما لبث، لأسباب معينة ســـنعرض لها، أن أزاح غيره من مفاهيم وتسميات ومصطلحات عن دائرة الاهـــتمام أو الحـــوار. فالصـــراع فـــي العالم الجديد، كما يقول، لن يكون أيديولوجـــيا أو اقتصـــاديا، بل سيكون الانقسام الكبير بين البشر، والمصدر الغالب للصراع ثقافيا.

ولقد سبق أن وضع المؤلف تسلسلا لمراحل الصراع في التاريخ، فكان قديما بين الملوك والأباطرة، ثم بين الشعوب، ويقصد الدول القومية، ثم بين الأيديولوجـــيات، لكـــن بعـــد انـــتهاء الحرب الباردة سينشب الصراع بين الحضـــارات مـــع حلـــول الـــنظام العالمي الجديد. فما يهم الناس ليس هو الأيديولوجية أو المصالح الاقتصادية، بل الإيمان، والأسرة، والدم، والعقيدة، فذلـــك هو ما يجمع الناس، وما يحاربون من أجله، ويموتون في سبيله. كما يعلـــن أن الدين محوري في العالم الحديث، وربما كان القوة المركزية التي تحـــرك البشـــر وتحشدهم. والحضارة عنده هي الكيان الثقافي الأوسع الذي يضـــم الجماعـــات الثقافية مثل القبائل والجماعات العرقية والدينية، والأمم، وفـــيها يعـــرف الـــناس أنفســـهم بالنســـب والدين واللغة، والتاريخ، والقيم، والعـــادات، والمؤسسات الاجتماعية بدرجات متفاوتة وفقا للجماعات الثقافية الداخلة تحت حضارة واحدة.

والحضـــارات -كمـــا يقـــول- هـــي القبائل الإنسانية الكبري، وصدام الحضـــارات صـــراع قبائلي علي نطاق عالمي، والفروق الثقافية هي التي تحتل الأساس والمركز في التصنيف والتمييز بين البشر اليوم.

وتتحدد الهوية الثقافية عنده بالتضاد مع الآخرين، وفي الحروب تترسخ الهويـــة، ويـــتحقق التماسك الاجتماعي بدلا من الانقسام الذي يتطلب زواله وجود عدو مشترك، والزعم بالحضارة العالمية إنما هو في نظره أيديولوجية الغرب في مواجهته للثقافات أو الحضارات غير الغربية.

ولذلـــك يكـــرس هنتنجتون جزءا كبيرا من كتابه لتفنيد هذا الزعم حتي يحمـــي القارئ من أن يغرر به الأمل الكاذب في إمكان المشاركة في وفاق إنســـاني عالمـــي، فالعـــالم اليوم متعدد الحضارات، متعدد الأقطاب، ويمكن تقســـيمه، لســـهولة التصـــنيف فـــي رأيه إلي عالم غربي واحد، وكثرة من العواصـــم غير الغربية. أو هو الغرب، والباقي بحسب تعبيره- أي الآخر-

إن شـئنا تعبـيرا أكثر تهذيبا. الغرب يمثل عنده حضارة أو ثقافة تميزه عن غيره، وليس ممثلا لحضارة عالمية يمكن أن تضم سائر أقطار العالم، وذلك لأن حضارة الغرب تمتد جذورها في التاريخ إلي أكثر من ألف عام.

ويرد هنتنجتون علي الدعوي القائلة بأن حضارة الغرب ينبغي أن تكون حضـارة العالم بتفرقته الصارمة بين التحديث والتغريب، فالتحديث هو الذي يمكن أن يشارك فيه العالم غير الغربي، وإن كان الغرب هو تربته الأصلية منذ القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، بينما كان الغرب قبل التحديث غربيا منذ زمان بعيد.

ولنـنظر فـي السمات الفارقة للغرب، أي الخصائص والأصول التي تمـيزه فـي زعمـه قـبل أن يجـري تحديثه، ويحصيها المؤلف في ثمان خصائص هي:

١- التراث الكلاسيكي من الإغريق والرومان.

٢- المسـيحية الغربـية الكاثوليكـية والبروتسـتانتية مسـتبعدا منها الأرثوذوكسية.

٣- اللغات الأوروبية.

٤- الفصل بين السلطتين الروحية والزمنية.

٥- حكم القانون.

٦- التعددية الاجتماعية والمجتمع المدني.

٧- الهيئات التمثيلية.

٨- النزعة الفردية.

ويسـتدرك المؤلـف قائلا بأن الغرب، فيما يتعلق بكل واحدة من تلك السمات، لاينفرد بها دون سائر الحضارات، ولكن اتحادها معا في توليفة أو مركب، هو الذي أتاح للغرب تفرده بها.

ولا نخـتلف مع المؤلف فيما أجمله من سمات مميزة للغرب الآن، إلا أنـنا نختلف معه إلي أبعد مدي للاختلاف، عندما يجعلها سمات تاريخية أو خصائص جوهرية أصيلة في الغرب قبل أن تجري عمليات التحديث. وقبل أن نـناقش تلك السمات الأزلية للغرب، أرجو أن يلاحظ معي القارئ الكريم تركيزه علي مصطلح التحديث المحايد لصرف الانتباه عن محتواه أو دلالته الاقتصـادية والسياسـية الخاصـة بسياق تاريخي موضوعي معين، وكأنه

معطــف خارجي ميسور لأن ترتديه أية أمة أو مجتمع أو دولة في أي زمن تشاء.

فالواقع أن كل تلك السمات التي يدعي أنها كانت موجودة قبل ما يسميه بالتحديث، لم تنشأ فى رأينا قط قبل عصر النهضة، وهو العصر الذي يقرنه المؤرخــون بالتحديث، وقد بدأ في القرن الخامس عشر أو السادس عشر في إيطالــيا بحيــث كان يسمي بــالشنكويشنتو أي الخمسمائة، وتفاوتت أنصبة ســائر البلدان الغربية منها، والتي لم تكن تسمي غربية إلا بعد قرون وعلي مــراحل متــباعدة. لكــنه لكي يثبت أصالتها الغربية القديمة استخدم بتوسع طــريقة فــي الاســتدلال، والــتقاط المعلومــات لايمكن وصفها بأقل من الاســتخفاف بعقــل القارئ الرشيد. وقد يشفع له في ذلك القصور، أو يدينه علــي الســواء، أنــه ليس عالما أو مؤرخا بقدر ما هو مخطط استراتيجي سياسي أمني.

ففيما يتعلق بالتراث الإغريقي الروماني كسلف عرقي مزعوم، نجد أن الأوروبيين لم يتذكروه، أو بالأحرى لم يوظفوه إلا عندما أحسوا بالحاجة إلي شــعارات جديــدة تشــجع علي الفردية والحرية الشخصية، وتمجيد مملكة الإنسان علي الأرض، والرغبة في إعادة اكتشاف العالم والإنسان معا بعيدا عــن ســطوة الشــروح الكنســية لسفر التكوين. وتغافل تماما عن الحقيقة التاريخــية المعــروفة، وهي أن إحياء التراث الكلاسيكي وما اقترن به من الــنزعة الإنسانية، والحركة العلمية، كان تعبيرا عن قيم جديدة مضادة لفكر الإقطاع والكنيسة الكاثوليكية الحامية له آنذاك، واحتجاجا عليه.

بل إن هذا التراث الكلاسيكي في معظمه كان مدفونا أو مجهولا، ونقل إلــي الغرب كما يعترف المؤرخون الغربيون، عن طريق الحضارة العربية الإســلامية فــي الأندلــس، كما فر به بعض البيزنطيين (أي الأرثوذكس المحروميــن مــن الحضــارة الغربية في نظر مؤلفنا) من القسطنطينية إلي بعــض مــدن إيطالــيا عــام١٤٥٣ عــندما فتحها العثمانيون، فكانت هذه المخطوطــات بيــن أيدي هؤلاء، ولكنها لم تستثمر أو تستخدم لأنها وجدت تربة فتية جديدة في مدن إيطاليا أو ثغورها البعيدة عن نفوذ الإقطاع، والتي كانــت ســاحة حــوار موضوعي مع الشرق العربي الإسلامي، جري فيها التــبادل بيــن السلع التجارية والمنجزات الثقافية، مما أدي إلي تغيير علاقة الفــئات الاجتماعية بعضها ببعض، وأنشأ فئات برجوازية جديدة، أي سكان

المـــدن مـــن الطبقة المتوسطة بين النبلاء والفلاحين، اتخذت من العودة إلي ذلك التراث، المضاد للنزعة الكهنوتية، ذريعة وقناعا وشعارا يغلف تمردها، وتحول قيمها، ووعيها الذاتي الجديد بالإنسان.

لــم يكــن تــراثا حقيقيا تاريخيا، بل كان تراثا مستعارا لخدمة أهداف جديــدة، أو هــو أقــرب إلـــي نوع من اختراع التقاليد لتلبية حاجات جديدة للمجتمع الحديث.

ولقــد صـــنع الـــنازي فيما بعد ما يماثل ذلك بالتراث الإغريقي عندما فســروا إبداعاتـــه الكلاســـيكية بردها إلي الغزاة الأقدمين من القبائل الآرية الجرمانـــية الذين نزحوا من الشمال واستقروا في بلاد الإغريق، وذلك لكي يزيلوا كل شبهة بتأثر الإغريق بحضارات الشرق والجنوب.

بــل إنـــنا لـــندهش مـــن هنتنجتون نفسه عندما يستبعد أحفاد الإغريق المعاصرين، ومن سبقهم، وينزع عنهم عضويتهم في عالم الحضارة الغربية لأنهـــم ينـــتمون إلـــي الأرثوذوكسية. ولا أدري كيف يستقيم الزعم بالجذور الأصيلة التاريخية البعيدة في تراث الإغريق لحضارة الغرب، ثم يطرد منها أحفاد أصحاب التراث؟ إلا أن يكون المقياس قائما علي وقائع حديثة، وليس علي أرومة عنصرية أو جوهر ثابت أصيل.

وبالنســـبة لمـــا يســـميه بالمسيحية الغربية، يسقط المؤلف من الذاكرة الحـــروب الطاحنة بين الكاثوليك والبروتستانت وكأنها نوع من المشاجرات أو الخلافـــات بين الرفاق، ولم يذكر لنا لماذا نشأت البروتستانتية في القرن الســـادس عشـــر بالذات، ولماذا ازدهرت في المجتمعات الصناعية الحديثة، بينما سادت الكاثوليكية في الدول الأقل نموا في النظام الرأسمالي.

وربمـــا نضيف إلي ذلك أن المسيحية لم تكن ابتكارا غربيا بحيث يمكن أن نجعـــل مـــنه ســـمة فارقـــة للغرب. أما ما يذكره عن اللغات الأوروبية بوصـــفها إحـــدى الخصـــائص المميزة للغرب، فأمر يبعث علي السخرية، فالغـــرب عنده يتميز بتعدد اللغات، أي بعبارة أدق، ليس متميزا بلغة، وهو منطق طريف لأن ما يعارض فرضه بالتميز، يصبح حجة ضد التميز!

وإذا مـــا تأملنا مسألة الفصل بين السلطتين الروحية والزمنية لوجدنا أنه لـــم يكـــن متاحا إلا بعد صراع عنيف بين السلطات الحاكمة باسم الدين، أو باســـم الحـــق الإلهي للملوك، فمصطلح الحكومة الدينية، أي الثيوقراطية، لا نعرف له أمثلة صريحة إلا في تاريخ الغرب في العصور الوسطي، وقد تم

الانقــلاب علــيها لترســيخ الحرية الفردية والعصامية التي اقترنت بالمثل الجديــدة للنظام الرأسمالي، أو البرجوازي الوليد، ولعلنا لا ننسي سلطة البابا وتــتويجه للملــوك والأباطــرة، كما لا نستطيع أن نمحو من ذاكرة التاريخ ممارسات محاكم التفتيش، وحرق المناضلة جان دارك باسم الدين علي سبيل المثال.

وكذلــك ما يسميه حكم القانون الذي يزعم المؤلف أنه راسخ عريق في حضـــارة الغــرب، ومــوروث عن الرومان، وكأن علينا، نحن القراء، أن نصــطنع لأنفسنا ذاكرة جديدة تخلو من حكم الاستبداد في العصور الوسطي الــذي جعل الغربيين أنفسهم يطلقون عليها العصور المظلمة. ولا أحسب أن حكــم القــانون المزعوم يمكن أن يسري عندما يسود الظلام! فلم يعمل حكم القانون إلا عندما انتزعت البرجوازية الصاعدة الضمانات الملائمة لــحرية العمل والمرور التي أصبحت فيما بعد شعار الثورة الفرنسية.

أما حكاية الماجنا كارتا التي يحرص عليها هنتنجتون عنوانا للأصولية الغربــية، فقد أصدرها الملك جون الذي اغتال شقيقه الملك ريتشارد- قلب الأســد- فــي طــريق عودته إلي إنجلترا بعد أن أبلي بلاءه المعروف في الحــروب الصليبية المقدسة، وكانت الماجنا كارتا مجرد بيان لحقوق النبلاء الإقطاعيين إزاء الملك، وليس للشعب أو العامة نصيب فيها.

ويــبلغ المؤلف أقصي مدي في الاستخفاف بعقل القارئ عندما يتحدث عن التعددية أو المجتمع المدني، بوصفهما مميزين للغرب منذ قديم الزمان.

فبدلا من مفهومها الواضح الذي نشأ فقط في المجتمع الرأسمالي تعبيرا عــن الهيــئات والمنظمات غير الحكومية، يضعها عنوانا علي كل الطوائف والجماعات مثل نظم الرهبنة والأديرة، وطبقة النبلاء الأرستقراطية، وطبقة الفلاحيــن، وطوائــف الحرفيين... إلخ، وكأن المجتمعات الأخري ليس فيها مــثل تلك الجماعات أو ما يقابلها. فكل مجتمع، بحكم التعريف، يضم عديدا مــن الجماعات والهيئات والتخصصات، لكنه لم يقل لنا، لكي يتميز مجتمع عن آخر، أو حضارة عن أخري، من كان يسيطر علي من في هذه الكوكبة المــتعددة مــن الجماعــات أو الفئات أو الطوائف، وما علاقة الصراع، أو الاحــتواء، أو التحالف بين القوي المختلفة، لكنه قنع بجمعها أو جردها جنبا إلــي جنــب، دون إشــارة إلي الخلاف أو التغيير، أو نوع الصلة بين هذه التجمعات وبين السلطة أو الدولة. وأصدق مثال يفضح خفته وسطحيته قوله

بـــأن الهـــند لديهـــا مثل الغرب نظام للطبقات. فهل يا تري يشبه ذلك نظام الطبقات المغلقة في الهند، وهو الذي ينضوي تحته المنبوذون!

ويرتب هنتنجتون علي تصوره الشائن للمجتمع المدني نتيجة هي وجود الهيـــئات التمثيلـــية للفئات والطبقات السابقة، ويستخلص منها ببساطة نشأة مؤسسات الديمقراطية الحديثة من برلمانات وأحزاب.

وهـــذا مفهـــوم شـــاذ عـــن الديمقراطية يجعل منها مجرد وجود فئات متجاورة يعبر كل منها عن مصالحه. فهو لا يذكر لنا كيف تعبر عن نفسها، هل سرا، أم علانية، وهل تلجأ إلي الإرهاب أم إلي الحوار، إلي الانتخاب أم القهـــر، كما لا يفصح عن طريقة ممارستها لسلطتها أو تحقيق مصالحها، أو كـــيف يتم ترشيح فئة ما للاستيلاء علي السلطة، أو تنظيم العلاقات بين هذه الفئات.

ويخـــتم ســـماته الفارقـــة للغرب بقوله إن النزعة الفردية هي العلامة المحوريـــة الممـــيزة لحضـــارته، ولـــم يذكر - كعادته- متي حدث ذلك في الغـــرب، وكأنها سمة أزلية للغرب منذ فجر التاريخ، وكلنا يذكر أن الفردية لـــم تكـــن شيئا مذكورا من قبل استقرار النظام الرأسمالي في الغرب، ولعل احـــتجاج مارتـــن لوثر علي وساطة الكهنة في فهم النص المقدس، وإعلانه لضـــرورة الفحـــص الحـــر للكتاب المقدس علامة صريحة وجديدة بطبيعة الحال، علي إعلاء شأن الفرد.

وموجـــز القول في كل ذلك، أن تلك السمات أو الملامح السابقة تنتسب جمـــيعا إلـــي مرحلة تاريخية هي عصر النهضة وما تلاه، وهو الذي كان محصلة لتفاعلات، وتبادلات، وصراعات دامية بين الإمبراطورية الإسلامية فـــي الشرق عبر البحر المتوسط، والدويلات العربية في الغرب علي حدود فرنســـا مـــن جهة، والإمبراطورية الرومانية المقدسة، وما انفرط عنها من إمارات وممالك متناحرة من جهة أخري، ولم يبدأ الشعور بما يسمي الغرب إلا بعد فترة طويلة من ازدهار النظام الرأسمالي، وما أدي إليه من استعمار لبلدان الشرق.

ويتبيـــن مـــن أســـلوب استخلاصـــه للسمات السابقة وقوفه عند النتائج والأعـــراض والمظاهر متخذا منها العناصر التي تشكل الهوية وكأنها- أي النتائج- هي الأسباب العميقة التي تميز الغرب بوصفه كياناً حضارياً مستقلاً مـــتفرداً بصـــرف الـــنظر عن الظروف والأوضاع التاريخية التي كان من

الممكـن لـو تحققـت في مكان آخر لأدت إلي تخليق تلك السمات. بعبارة أخـري، لا يفـرق هنتنجـتون بين الأسباب والنتائج، أو بين العلل الفعلية والأعـراض. ويواصل مؤلفنا أسلوبه في عرضه لمسلسل مراحل الصراع فـي الـتاريخ، فقـد كان الصراع عنده قديما بين الملوك والأباطرة، ثم بين الشـعوب، ثم الأيديولوجيات في الحرب الباردة، ثم ينذرنا بأن الصراع الآن هو الصدام بين الحضارات.

ففي المرحلة الأولي يتحدث المؤلف كما لو كان التاريخ حكاية أو قصة مسـلية تلعـب فيها أهواء الحكام وأمزجتهم الشخصية الدور الرئيسي دون أدني اعتبار لمتغيرات التطور في السياق الاقتصادي والسياسي والاجتماعي التي تعبر عنها النخب الحاكمة، وتحدد اتجاه الصراع ونوعيته. وبالنسبة إلي المرحلة الثانية، صراع القوميات أو الدول، فلم يحدث مصادفة أو تبعا لخطة خفـية لمسار التاريخ كشف الوحي عنها لمؤلفنا، وجعله يمضي من مرحلة إلـي أخري حتي يصل إلي محطته الأخيرة عند صراع الحضارات. فنشأة القومـيات، أو الـدول القومـية، كما يدرسها الطلاب، كانت إحدي النتائج الرئيسية لسيطرة الفئات التجارية والصناعية التي كانت في حاجة إلي إطار محدد، بعيدا عن الإقطاعيات المنقسمة، والإمبراطوريات المترهلة، للمنافسة علـي الأسـواق فـي العالم، والاستيلاء علي المواد الخام، وتشغيل الأيدي العاملة الرخيصة، لذلك لم يشهد العالم حروبا شاملة إلا بين الدول الرأسمالية كمـا حـدث في الحربين الأولي والثانية، وهي التي حشدت فيها الجنود من الفـئات الدنـيا مـن الشـعب للدفاع عن أصحاب المصالح الذين نفخوا في الجنود، وألهبوا مشاعرهم القومية.

وأمـا مـا يسـميه هنتنجتون بحروب الأيديولوجيا، فلم يكن كذلك في الواقـع، بـل اسـتمرار للمرحلة الرأسمالية، ولا يجب أن ننسي أن الحرب العالمـية الثانـية، وهي التي تنتمي عند هنتنجتون إلي المرحلة السابقة علي الحـروب أو الصراعات الأيديولوجية، بحسب تصنيفه لمراحل الصراع، لا ينبغـي أن ننسي أنها لم تنشب إلا بعد اثنين وعشرين عاما من قيام الخصم الأيديولوجي للغرب وهو الاتحاد السوفيتي.

ولـم تكـن خطـورة الماركسـية السـوفيتية في نظر الغرب تهديدا أيديولوجـيا، فلقد كانت أقوي الأحزاب الشيوعية نشطة في الكثير من بلدان الغـرب، بل كانت تهديدا بإمكان أو احتمال ظهور دول تنافسها علي أسواق

العـــالم، فلقد كان الاتحاد السوفيتي بعد لينين نوعا من رأسمالية الدولة التي تحكمهـــا طبقة برجوازية بيروقراطية لا تملك أدوات الإنتاج، علي مستوي الشـــركات الخاصـــة، لكـــنها كانـــت تملك اتخاذ القرار في أدوات الإنتاج. واســـتفحل خطـــرها عند تشجيعها لبعض قادة أو شعوب العالم الثالث علي الخـــروج عـــن طاعة الغرب، مما يؤدي إلي التقليل الفادح من مكاسبه بعد إخراج ألمانيا وإيطاليا واليابان من حلبة المنافسة الدموية بعد الحرب الثانية. ولـــم يكـــن من قبيل المصادفة في تلك الحروب الأيديولوجية المزعومة، أن الـــدول التـــي كانـــت علي صلات وثيقة مع الاتحاد السوفيتي مثل مصر، والعـــراق، وســـوريا، وليبيا، وغيرها من دول العالم الثالث، لم يكن يحظي فـــيها الشـــيوعيون المنظمون إلا بالسجون والمعتقلات. فالمسألة إذن لم تكن نـــزاعا أيديولوجيا. وما يسمي بالحرب الباردة لا يصلح مفهوما دقيقا إلا إذا كـــان يعني الحرب العالمية، لأن ما كان حادثا كان حروبا ساخنة تنشب هنا وهناك في العالم الثالث بـــالوكالة عن القوي العظمي العالمية، فلم تكن حربا باردة، بل حروبا ساخنة بالوكالة، إن أبيح ذلك التعبير!

وفـــرض اخـــتفاء المنافس العنيد، وهو الاتحاد السوفيتي، نفسه كحادث جديـــد علي الساحة العالمية بما آثار ردود أفعال متباينة يسعي كل منها إلي الإســـراع قـــبل غيره لشغل ذلك الفراغ المتاح للجميع، كل بحسب مصالحه السياســـية، أو توجهاتـــه الـــنظرية، ومن ثم صيغ مصطلح النظام العالمي الجديـــد، الـــذي يعنـــي إجرائـــيا السطوة العالمية المنفردة الجديدة، وكتابات هنتنجتون تفضح ذلك صراحة.

ولســـنا في حاجة إلي ترديد ما تعلمناه من تاريخ تطور العلم أن الوقائع الجديـــدة تفـــرض علينـــا البحث عن تفسير جديد يلائمها، مما من شأنه أن يصرفنا عن التفتيش في دفاترنا أو نظرياتنا القديمة، كما صنع هنتنجتون في اختـــياره لصدام الحضارات مفسرا لما يحدث الآن، وكما سبقه فوكوياما في تصوره لنهاية التاريخ بانتصار وغلبة الليبرالية الرأسمالية الديمقراطية علي كل شئون العالم بعد سقوط حائط برلين عام١٩٨٩.

فمـــا يســـمي بـــالعولمة، وهو أمر جديد لا يمكن إنكاره، إنما يرد إلي ســـيادة الشـــركات العابرة للقارات والقوميات التي ستفضي في النهاية إلي تحطـــيم قـــدرات الدولة القومية، ومنها أمريكا نفسها، وإلي تعظيم النزاعات الداخلـــية في نطاق الدولة الواحدة لإضعاف مقاومتها لسيادة السوق العالمية.

ولـــم يكـــن سقوط الاتحاد السوفيتي سببا في استفحال العولمة، فقد انعقد في طوكيو مؤتمر السياسات النقدية والمالية العالمية، قبل ذلك بسنوات، وأصبح الهيكل العالمي الاقتصادي ناميا بمعدل يفوق نمو الاقتصاد القومي الأمريكي الـــذي تراجعـــت نســـبته من٤٢% إلي٢٥% في الأعوام الأخيرة من معدل الـــناتج الإجمالـــي العالمـــي. ولم يعد الإنتاج رأسيا داخل المصنع في دولة واحـــدة، بـــل توزعت أجزاء السلع إلي أنصبة مختلفة تنتجها دول متعددة. ويمكـــن القول علي سبيل الإيجاز، بأن العولمة تعني مصنعاً عالمياً واحداً، وســـوقاً عالمـــيا واحـــد تهيمـــن عليه تلك الشركات الهائلة العابرة للقارات والجنســـيات، وما يسمي بالقرية العالمية هو قرية مالية تفتقد علاقات القرية وتقاليدها الإنسانية.

ومـــن الأعراض أو النتائج الثانوية لسيادة العولمة المالية، وتفكك الدول القومية، ارتفاع أصوات النزاعات الطائفية والثقافية. ففي ظل هذه الأوضاع الجديدة يشتد حنين الإنسان إلي خصوصية حميمة وهو يحيا في بيئة متشابكة مربكة تنذر بزوال قضيته العامة، أو خصوصيته القومية.

فالعولمـــة إذن هي غياب البعد الوطني أو القومي كفاعل مؤثر كما كان الحـــال فـــي الرأســـمالية السابقة، فالمؤسسات أو الشركات العابرة للقارات والجنســـيات تخترق وحدة الدول القومية، وتقوم بتحطيم قدرات الدول علي مواجهـــة الغـــزو الجديـــد الـــناتج عن قوانين السوق، وتضخيم الصراعات والـــنزاعات المناوئة للدولة، مثل المشكلات العنصرية والدينية لصالح تفكيك الدول، وتحويلها إلي دويلات عاجزة أمام سيادة السوق العالمية. وهنا تتفاقم مظاهر الفوضي والسيولة، وانعدام اليقين، ولابد أن يؤدي هذا إلي استجابات انفعالية متضاربة أبرزها وأعلاها صوتا هو البحث عن حضن دافئ في برد العـــراء الذي يحيط بنا من نتائج الانحسار والانكسار للذات القومية. وهكذا يتورط الجميع في حمي التفتيش عن جماعة أولية أو مرجعية تكون الأصل والملاذ معا، ويكون التعصب لها والعنف مع غيرها بمثابة الثوب الذي يستر العري في خلاء العولمة.

ويســـمي رد الفعل، ولا أقول الفعل، أصولية، والأصولية بكل أنواعها وشـــعاراتها، نزعة ثقافوية، بمعني أنها تثبت مجمل تاريخ الإنسان وسلوكه عـــند عـــامل أو متغير من عوامل أو متغيرات الثقافة، بحيث يغدو فطرة أو غريـــزة لا تـــتحول، وبالتالـــي يميز أمة عن أمة، أو بالأحري، يميز نوعا

بشـــريا من نوع آخر، مرة واحدة وإلي الأبد. وإذا كانت الحيوانات تصنف بسمات بدنية، فإن البشر عند هؤلاء، يصنفون في أغلب الأحيان طبقا للعقيدة الدينـــية التـــي لا تتصل بموضوعات الطبيعة، بل بنظم الثقافة وعناصرها. ويـــتفق الأصوليون الإسلاميون مع هنتنجتون علي أن محور التصنيف هو الدين.

وعسانا نكشف الخلل في منطق أصحاب تلك النزعة الأصولية الثقافوية إذا ما تناونا مسألة الثقافة والحضارة علي أساس علمي.

الـــثقافة هـــي الكل المعقد المتشابك من أساليب الحياة الإنسانية المادية، وغـــير الماديـــة، أي الفكرية أو المعنوية أو الروحية التي ابتدرها الإنسان، واكتســـبها، ولا يـــزال يكتســـبها بوصفه عضوا في جماعة أو مجتمع، في مرحلة معينة من تاريخ تطوره، تقدما كان أو تدهورا.

وللـــثقافة جانبان، روحي أو غير مادي، وهو الذي يضم القيم والمعايير والنظم والاعتقادات والتقاليد، والمادي الذي يمثل التجسيد المحسوس للجانب المعـــنوي فيما يصاغ من أدوات ومنشآت، وهو الذي نسميه حضارة، إذا ما كانت الجماعة المعنية مستقرة. وتتفاعل ثقافات المجتمعات المختلفة علي كلا الجانبين علي الوجه الذي تنشأ فيه ثقافات جديدة تتعاقب علي كل مجتمع أو أمـــة، لأن الثقافة ليست ثابتة جامدة. فليس لكل مجتمع أو أمة ثقافة واحدة لا تتغير علي مر العصور.

وكانـــت الحضـــارات، أي الجانب المادي من الثقافة، جزءا لصيقا بها بحيـــث كان من الممكن أو اليسير أن تتمايز الحضارات بتمايز المجتمعات فـــي العصور القديمة والوسطي. ولكن عندما توسع التبادل بين المجتمعات فـــي الجانب المادي من الثقافة، أي الحضارة، ازداد استقلال الحضارة عن الجانـــب الروحـــي أو المعنوي، وعندئذ اشتركت ثقافات متعددة في حضارة واحدة بعينها بعد أن كانت الحضارة في القديم جزءا من الثقافة.

ومن ثم انفصلت الحضارة أو كادت تستقل بنفسها عن الأصول الثقافية التـــي نشـــأت فـــيها، وذلك لسهولة التبادل المادي بين المجتمعات المختلفة، وصـــعوبة ذلك في الجانب الروحي الذي استقل أخيرا بمفهوم الثقافة. ويعني هـــذا أن المجـــتمعات والأمـــم المتباينة يمكن أن تشارك في حضارة عالمية واحـــدة بقـــدر سعة الانفتاح والتبادل مع سائر العالم، مع احتفاظها بثقافاتها الخاصة.

وكـــان لســـيادة النظام الرأسمالي في الغرب الأثر المعجل في تجانس الحضـــارة العالمـــية. ولـــم يكـــن ذلك لفضيلة خاصة بالغرب، بل لطبيعة الرأســـمالية نفسها التي ازدهرت في الغرب لعوامل موضوعية أسهمت فيها الحضـــارة العربـــية الإسلامية إسهام الحافز والتحدي معا لأسباب مادية لا علاقـــة لهـــا بالاعتبارات الدينية أو الثقافية بوجه عام. ومعظم السمات التي ذكـــرها هنتنجـــتون ممـــيزة للغـــرب، هـــي سمات أو نتائج مباشرة للنظام الرأسمالي، الذي أسقط منها مؤلفنا، عمدا، وعن سوء طوية، السمة العالمية. فالرأســـمالية قائمة علي المنافسة بكل درجاتها وأنواعها، داخل حدود الوطن الواحـــد أو خارجـــه، وهـــي في حاجة إلي مواد خام لا توجد إلا في أماكن أخـــري مـــن العالم، كما تتطلب أسواقا واسعة لتوزيع بضائعها، كما تفضل أعـــدادا هائلـــة من الأيدي العاملة الرخيصة التي لا تتوافر داخل حدود بلد واحـــد، ومـــن هنا كان الاستعمار الذي فتح الحدود عنوة بين أقطار العالم، وأشعل الثورات والحروب العالمية.

ومهمـــا يكن من أمر الهيمنة هنا، أو التبعية هناك، والتبادل السلمي، أو الصدام الدموي، فإن قواعد اللعبة الجديدة فرضت نفسها رضا أو كرها علي الجميع، مغلوبين أو منتصرين.

ولا يعنـــي الانتماء لهذه الحضارة الواحدة، الألفة والمودة بين المنتسبين لهـــا، فهـــي ليســـت مذهبا أو عقيدة، فقد حارب الألمان أولاد عمومتهم من الأنجلوساكســـون، كمـــا دخلت إيطاليا اللاتينية الكاثوليكية الحرب مع ألمانيا ضد فرنسا اللاتينية الكاثوليكية.

وهـــذه الحضـــارة السائدة ليست ثقافة كما يحاول أن يخدعنا هنتنجتون، وإلا لكانـــت عقـــيدة ومـــبدأ للتبشير والنشر بين من لا يؤمنون بها إذا أتيح لأصـــحابها القوة والسلاح. فعندما دخل الإنجليز مصر أغلقوا مجلس شوري الـــنواب، والمصـــانع، وحجمـــوا التعليم، وكمموا الأفواه، وأنكروا الفردية وحـــرية الرأي، وهي كلها سمات الثقافة الغربية كما يقول صاحبنا. فالأمر كلـــه مـــرهون إذن بالمصـــالح الاقتصـــادية والسياســـية وفقا لقواعد اللعبة الحضـــارية الجديـــدة التـــي نرضخ لها جميعا. وليس الصراع ثقافيا بل هو صـــراع بين مستويات مختلفة من النمو، فالعناصر الثقافية أغطية للرأس لا تســـتر حقيقة الأوضاع المادية. والجميع- ونحن منهم- مدعوون للمشاركة

فـــي الحضــــارة العالمية الواحدة القائمة بالفعل، علي تفاوت في المستويات، عن طريق المنافسة، وفقا لشروط اللعبة ومعاييرها.

غــير أننا لا نستطيع إنكار بروز النزاعات الثقافية علي سطح اللحظة التاريخية الراهنة، وواجبنا العلمي، بل والخلقي أيضا، أن نبحث عن أسباب ذلــك، ولـــيس كما صنع هنتنجتون أن نجعلها هي نفسها السبب في تشكيل النظام العالمي الجديد.

فعــندما يلح قول موجز، كبرشامة سهلة التناول، علي السمع والبصر، فإنه ما يلبث أن يفرض نفسه تفسيرا مبذولا للجميع، ويدفع عنا مشقة البحث والتمحــيص، ويصــــبح موضوعا للتعقيبات والتأكيدات، وخاصة إذا ما جاء علـــي لســـان شخصية بارزة في الغرب مثل هنتنجتون، فيرقي إلي مستوي الحكمة والمسلمات، لأنه يصادف هوي في نفوسنا.

ولكـــن ألـــم يكن صراع الحضارات أو الثقافات المسوغ الدعائي لتعبئة وقود الحرب من الشباب لخوض القتال في العصور القديمة وكذلك الحديثة، التـــي تعـــد النظم الفاشية مثالا صارخا له؟ أو لم تكن قوي الحلفاء المقاومة للفاشـــية أكثر حماسا في استخدام الشعارات الثقافوية بمضامين مختلفة؟ هل كان واقع النظام ثقافويا، أم كان لأسباب مادية أخري؟

إن بـــيانات رجـــال السياسة أو القادة في كل مراحل التاريخ مثال بارز علـــي الخلط المتعمد بين الشعار والواقع، ولا نعرف زعيما أو قائدا عسكريا صـــرح بأهدافه ومصالحه الحقيقية عند تعبئته للجماهير، ودفعها إلي سلخانة الحرب.

فالبيان السياسي أو الخطاب التعبوي، إن صح ذلك التعبير، من بين كل البيانات أو الخطابات الأخرى، هو الذي يستمد عباراته من معجم الأخلاق، أو الديـــن، أو العـــرق، أو غـــيرها من عناصر الثقافة بمعناها اللامادي أو الروحـــي. ودراســـة الـــتاريخ تكشف لنا عن هذه المفارقة التي تنتمي إلي الكومـــيديا الســـوداء، فكل آليات التبرير السياسي مستمدة من تلك العناصر الثقافية كالدين والقومية، واللغة، والقيم، والأعراف، والتقاليد ونحوها.

والسياســـة هـــي طرق إدارة الصراع، ومن أهم أساليبها في هذا الشأن تفســـير الصراع بتلك العناصر الثقافية التي ترد كثيرا في الخطاب السياسي، وذلك للاستهلاك المحلي أو الخارجي علي السواء.

ولقــد انتشرت النزعة الأصولية الآن، ليس بوصفها اكتشافاً علمياً لسر الصـــراع بيـــن الدول، فقد ابتذلت منذ زمان قديم من كثرة الاستخدام، ولكن عقـــب ســـقوط كثـــير من المسلمات العصرية، وفشل النظم القائمة في ستر عوراتهـــا، فكـــان لابد – في غمرة التخبط أو الفراغ التنظيري، وضرورة الانخـــراط في المزاحمة الدموية، والسوق العالمية الحرة – من التفتيش في الدفاتـــر القديمـــة، شـــأن الـــتاجر المفلـــس، عن نظرية عتيقة هي الصدام الحضاري أو الثقافي، حيث يختار كل منا ما يلائمه من أصول، أو أسلاف، أو آلهة حارسة.

بيد أن الأصولية الغربية التي يزعمها ويهيب بها هنتنجتون تتخذ موقعا يمتاز امتيازا بيّنا عن الأصولية الإسلامية أو الشرقية بوجه عام. فالأصولية الغربـــية تنتقـــي سماتها الفارقة مما يقوم في الحاضر الآن، ثم تستدير إلي الماضي البعيد لإيجاد أو اصطناع جذور قديمة لتفسير حاضرها اليوم.

أمـــا الـــنزعة الأصـــولية لدينا، فإنها تجعل من الحاضر القائم انحرافا وتدهـــورا عـــن أصـــل قديم جدا، كان يمثل في نظرها العصر الذهبي لهذه الحضارة، وينبغي إذن استعادته، ليخلص لنا بريئا من كل شائبة، داخلية، أو خارجية.

وفـــي هـــذا الاختلاف بين أصولية هنتنجتون، والأصولية الإسلامية أو الشـــرقية، تـــرجح كفة الأصولية الغربية المزعومة في ميزان القوي، لأنها تحيا عصرها الذهبي في حاضرها اليوم الذي تحاول تبريره بالتاريخ القديم، وعلم الآثار، بينما ينشغل الأصوليون الإسلاميون بالتنقيب في الماضي البعيد عـــن عصـــرهم الذهبي، تاركين، وهم في غمرة انشغالهم، مهمة قيادة العالم لمـــن يملكونـــه فعـــلا، ومقدميـــن لهم العون السخي بضرب مخالفيهم من مواطنيهم، وتخريب اقتصاد بلدانهم بكل همة وحماس.

ولأن هنتنجـــتون مخطـــط استراتيجي لإعادة صنع النظام العالمي، فقد الـــتقط مـــن الأصوليين الإسلاميين طرف الخيط، ومثل دور التلميذ عليهم، وطـــبق دعواهم بمهارة محترف سياسي، ومفكر براجماتي لا يعنيه من كل ذلـــك إلا مـــا تـــثمره الفكـــرة من نتائج عملية نافعة لاحتكارات الرأسمالية الأمريكية، وهي فكرة قدمها له الأصوليون علي طبق من فضة، أو أثمن من ذلك كثيرا.

فـــأولا: تخدم فكرته عن صدام الحضارات في تشجيع الأصوليين الذين تطوعـوا لضـــرب اقتصـــاد بلادهم أو إضعافه في وجه المنافسة الخارجية الغربية.

وثانــيا: تــؤدي إلي تغذية الأصولية الإسلامية، والتأكيد علي صحتها لتكون ذريعة مقبولة للصدام الذي يعرف هنتنجتون نتيجته المظفرة سلفا.

وثالــثا: تفــيد بوصـــفها دعوة صالحة لتعبئة العدد الأكبر من جماهير الــدول الأوروبـــية والأمريكــية، وإثارة حماسهم في الانخراط في حروب كولونيالـــية جديدة، بنفس الشعارات والمبررات التي استخدمت في الحروب الصـــليبية فـــي العصـــور الوسطي، ولتكون بديلا جديدا عن العدو القديم، إمـــبراطورية الشـــر الشـــيوعية، الذي انتهي مفعوله كملاط أو غراء يضم جماهـــير البســطاء المقهوريـــن فـــي بلدان الغرب، إلي موقف موحد يخدم مصالح أصحاب الاحتكارات.

فمـــا يصـــنعه هنتنجـــتون في نهاية الأمر، أو يقدمه هو خريطة جديدة لإدارة الأزمـــات التـــي تنـــتج عن عوامل الصراع الحقيقية، ويضع جدول أعمال يغير فيه من واقع الأولويات للأوضاع الاقتصادية والسياسية الفعلية. وهـــو مـــا من شأنه أن يسهم إسهاما نشطا في تزييف وعي المواطنين في مخـــتلف بلدان العالم، ويفضي ذلك جميعا إلي صرف الانتباه عما يجري في الواقـــع العالمي بحيث يتم تحريك الأطراف المختلفة بكفاءة واقتدار، لخدمة مصـــالح بعينها بعيدة عن مصالح أوسع فئات الجماهير سواء في الشرق أو الغـــرب. فالكـــتاب كلـــه تذكـــير ملـــح علي واجب المواطنين في التشبث بالخصـــومة بين البشر، حتي يفرغ أصحاب المصالح لشئونهم وإدارة العالم الممـــزق، ونظريته في الصدام الحضاري ليست أكثر من ثوب قشيب لفكرة أو ممارسة عتيقة جدا هي فرق تسد.

وهـــي ثوب قشيب لأنه يزدان برقع زاهي الألوان، يطالعها القارئ في أدلـــته وأمثلته التي يقتطعها من هنا وهناك دون منطق متجانس موحد. فإلي جانـــب الدين مفسرا للصدام الحضاري، يدهشنا بتفسيره، في مواضع أخري كثيرة من الكتاب، للفتوح والغزوات بتزايد السكان، فقد أدي التزايد السكاني فـــي أوروبا في القرن الحادي عشر إلي اشتعال الحروب الصليبية، ومن ثم يحذرنـــا الكـــتاب مـــن النتوء السكاني للمسلمين الذين يزداد عددهم بالنسبة للمســـيحيين. ولقد تمنيت أن يكون تفسيره صحيحا، حتى لا يكون لإسرائيل

أن تظـل علـي قيد الوجود يوما واحدا مع الزيادة الفادحة لمن جاورها من العرب أو المسلمين!

غـير أن ما نخشاه حقيقة من تسلط أو إغراء نظرية صدام الحضارات هـو مـا ذكره إرنست ناجل عن التنبؤ المحقق لنفسه، وهو الذي يتألف من تنـبؤات لاتصـدق علـي الوقـائع الفعلية، في الوقت الذي تصاغ فيه هذه التنبؤات، غير أنها تغدو صادقة بسبب الأفعال التي تتخذ كنتيجة مترتبة علي الاعـتقاد بصـحة تلك التنبؤات. ويضرب لذلك مثلا: فمع أن بنك الولايات المـتحدة، وهـو بنك خاص رغم اسمه، لم يكن في ضائقة مالية جديدة عام ١٩٢٨، إلا أن الكثـير من أصحاب الودائع ظنوا أنه يعاني ضائقة لامخرج منها، وقد يفلس سريعا، وقد أدي ذلك الاعتقاد إلي سحبهم لودائعهم، مما دفع البنك إلي الإفلاس في الواقع.

ولكـن لحسن الطالع، لم يكد هنتنجتون يفيق من نشوته لانتصار أمريكا فـي الحـرب الباردة بانهيار الاتحاد السوفييتي، ويفرغ من تصميم الموضة الجديدة لصدام الحضارات، ويقدم نبوءاته بالنسبة للغرب، ويبذل له نصائحه بـالوحدة بيـن بلدانـه تحـت قيادة أمريكا في كتابه الذي بين أيدينا، لم يكد يسـتكمل ذلـك، حتـي استدار إلي داخل الولايات المتحدة، فأصيب بإحباط شـديد. وسبب هذا الإحباط هو تآكل المصالح الأمريكية*، وهو عنوان مقاله الأخـير فـي عدد اكتوبر١٩٩٧ لفصلية الشئون الخارجية، وأغلب الظن أن الصـدمة كانـت قوية مباغتة مما حمله علي التخبط والتناقض في عرض قضـيته، والتخلـي عـن آرائه السابقة، التي حظيت دون استحقاق علمي، بشهرة نجوم السينما والاستعراض ولاعبي كرة القدم.

ومشـكلته في هذا المقال، كما يقول، هي أن التعددية الثقافية في أمريكا لن تقاومها أو تقضي علي آثارها السيئة إلا الوحدة القائمة علي الأيديولوجية السياسـية، ولـن تنجو أمريكا بعد زوال أيديولوجيتها، وستنضم إلي الاتحاد السـوفييتي علـي كومة نفايات التاريخ! إذن فنظريته عن مراحل الصراع لاتصدق علي أمريكا لأن هوية أمريكا هي أيديولوجيتها التي بشرنا في كتابه بنهاية عصرها. فأمريكا اليوم، كما يقول، تفتقد بشدة وجود أي بلد واحد، أو أي تهديـد يمكن أن يقنعها بالوقوف خصما أمامها، فلسوء الحظ، الأصولية الإسـلامية بعيدة، مشتتة، كما أن الصين حالة معقدة علي الوجه الذي يجعل

* فى الفصل التالى عرض لهذا المقال ومناقشته.

أخطارهـا بعـيدة في المستقبل، والحل الوحيد إذن هو سياسة القمع والتقييد restraint للمصالح الجزئية وتزايد المعارضة للحكومة، فلسنا- علي حد تعبيره- في حاجة إلي قوة لخدمة الأهداف الأمريكية، بل نحن بالأحرى فـي حاجة إلي العثور علي أهداف- أي مبررات- لاستخدام القوة الأمريكية للقـيام بدورها في قيادة العالم. والخطر هو فقد الهيمنة الفعلية، و"المصلحة القومية هي القمع القومي، وهذه فيما يبدو هي المصلحة القومية الوحيدة التي يرغب الشعب الأمريكي في دعمها في هذا الوقت من تاريخهم".

وعلـي أيـة حـال، فإن العدو الحقيقي لهنتنجتون وأصحاب المصالح الحقيقـية فـي أمـريكا هو السلام، فقد كان من المتوقع أن يحتفي منظرنا بسقوط الاتحاد السوفييتي ليستمتع بالسلام والرخاء، لكنه يوافق علي ما قاله مستشار جورباتشوف: "نحن نقوم بأمر مروع لكم، فنحن نحرمكم من عدو"، وبعـبارته أن الحمايـة مـن الاتحـاد السوفييتي كانت السلعة التي تروجها الولايـات المتحدة، ولابد إذن من سلعة أخري مماثلة في جودتها. وهو دائما يفكر في الحرب والصدام مع عدو، لأنهما يحملان علي التماسك بين مختلف المواطنين، ولكنه يغفل عامدا أن ذلك أمر موقوت محدود لتعود الأمور إلي طبيعـتها فـي حال السلام. ولايمكن أن تظل الشعوب في حالة من التعبئة والاستنفار، وبالتالي فهذه الفترة لاتصلح محددا للمصلحة القومية أو الهوية، وإلا لما كانت الحاجة إلي أحزاب، وخلافات وطنية، واجتهادات متباينة.

ومهمـا يكـن من أمر، فرؤية هنتنجتون وخططه ينتسبان إلي مرجعية فكـرية لما قبل الحرب العالمية الثانية، وهي ليست المرجعية الليبرالية، بل الشـمولية التـي تسعي إلي التوحيد والاحتشاد عن طريق القمع والتقييد في الداخـل، لفـرض سيطرة مصالح بعينها علي الخارج، الذي يعاد صياغته وتشـكيله وفقـا لوصفات جربها رجال الحكم والسياسة بنجاح منذ العصور القديمة، وهي وصفة أو نظرية الصدام بين الحضارات.



الفصل السادس

هنتنجتون ضد هنتنجتون!

دعوة إلي الشمولية

فــيما يلــي عــرض لما جاء في مقاله الذى نشر بعد كتابه يكاد يلتزم بعبارته واصطلاحاته الخاصة.

يــبدأ المقال بإعلان تفكك الهوية الأمريكية بعد الحرب الباردة، ومن ثم تحلــل المصــالح القومية التي تستند في تحديدها إلي الهوية، وتتآلف الهوية الأمريكية من الثقافة، والعقيدةCreed.

فأمــا الثقافة فهي القيم والمؤسسات التي أقامها المستوطنون الأصليون من شمال أوربا وخاصة البريطانيين، ومن المسيحيين وخاصة البروتستانت، وكذلك اللغة الإنجليزية، والعلاقة المحددة بين الكنيسة والدولة، ومكانة الفرد في المجتمع.

بينما العقيدة هي الحرية، والمساواة، والديمقراطية، والنزعة الدستورية، والليبرالــية، والحكومــة المقيدة، والمشروع الحر الخاص، وكان قدر الأمة الأمريكية ألا يكون لها أيديولوجيات، بل تكون كلا واحدا.

أمريكا وخصومتها مع أعداء الحرية

وبــدون شعور وطيد بهذه الهوية، فإن الأمريكيين سيعجزون عن تحديد أو تعــريف مصالحهم القومية حيث تهيمن المصالح التجارية دون القومية، وعبر القومية، والعرقية أو(الإثنية)، وغير القومية علي السياسة الخارجية.

والســبب في نظره هو خسران أو فقدانLoss الآخر(ولم يقل اختفاء أو غــياب، كما لو كان هذا الآخر من بين أملاكه!). ويتساءل: فبدون حرب باردة، ما أهمية أو مغزي أن يكون المرء أمريكيا؟ فبدون إمبراطورية للشر

تهــدد المبادئ التي تصنع الهوية، فماذا يعني أن تكون أمريكيا، وماذا يليق إذن بالمصالح الأمريكية، أو إلي ماذا يؤول أمرها؟.

فهويــة أمــريكا، علـــي الدوام ومنذ البداية، هي خصومتها مع أعداء الحرية: بدأت الخصومة مع بريطانيا لأنها جسدت الطغيان والأرستقراطية، علي حين صنعت أمريكا الديمقراطية والمساواة والنزعة الجمهورية، وحتي نهايــة القــرن التاسع عشر كانت خصما لأوربا التي كانت ممثلا للماضي الإقطاعـــي المــتخلف غير الحر، واللامساواة، والملكية، والاستعمار بينما كانــت أمريكا هي المستقبل التقدمي، الحر، الجمهوري القائم علي المساواة. وفـــي القرن العشرين لم تعد نقيضا لأوربا، بل زعيمة للحضارة الأوربية-الأمريكية ضد الاستعمار(!!)، ثم ضد ألمانيا النازية، وعقب الحرب العالمية الثانــية صـــارت قائدة العالم الديمقراطي الحر ضد الاتحاد السوفيتي والعالم الشيوعي(أي أنها كانت مكافحة عن المبادئ فقط!).

وفـــي خــلال أربعيــن عاما بعد الحرب بررت كل مبادرات السياسة الخارجــية والداخلــية أولوية ذلك الهدف الذي هو الدفاع عن الحرية مثل: بــرامج المعونة اليونانية والتركية، خطة مارشال، حلف الأطلنطي، الحرب الكوريــة، الأسلحة النووية، والصواريخ الاستراتيجية، والمعونات الأجنبية، وعملــيات المخابــرات(المشــهودة بالنظافة!)، ورفع الحواجز الجمركية، وبــرامج الفضـــاء، والأحـــلاف العســكرية مع اليابان وكوريا وغيرهما، ومســاعدات إســرائيل(!) والانتشـــار العســكري وراء البحار، والمؤسسة العســكرية المتضـــخمة علي نحو غير مسبوق، وحرب فيتنام(التي نعم في ظلهـــا الشــعب الفيتنامـــي بالحــرية، وحظي الشباب الأمريكي بالشهادة!)، والانفــتاح علـــي الصـــين(أليست شيوعية؟)، ومساعدة المجاهدين الأفغان بالســلاح (وتجــارة الأفيون!)، وغيرها من ضروب الانشقاق والتمرد ضد الشيوعية.

في الحروب تتأكد الهوية

ولكـــن دون حـــرب بـــاردة يختفي السند الرئيسي لمثل هذه المبادرات والـــبرامج الكـــبري. فعندما خبت الحرب الباردة في الثمانينات قال مستشار جورباتشوف نحن نقوم بأمر مروع لكم، فنحن نحرمكم من عدو. ويؤكد علم النفس أن الأفراد والجماعات لا يحددون هوياتهم إلا بتضادهم مع الآخرين،

وفي الحروب تتأكد الهوية، ويتحقق التماسك بدلا من الانقسام الاجتماعي الذي تحتاج إزالته إلي عدو مشترك.

ومع زوال ميراث(والميراث شيء عظيم بالطبع) الحرب العالمية الثانية والحرب الباردة، قد تواجه أمريكا ما سبق أن تنبأ به لينكولن بعد الحرب مع بريطانيا من عودة روح الخصام والكراهية والانتقام بين الأمريكيين وبعضهم البعض.

بيد أن الحرب الباردة كانت لها فضيلتها الكبري في دعم الهوية المشتركة بين الشعب والحكومة في أمريكا، ولذلك فأول نتيجة محتملة هي تزايد المعارضة للحكومة الفيدرالية(أليس هذا من حسنات الديمقراطية والليبرالية التي تصوغ العقيدة الأمريكية كما ذكرنا سابقا؟).

فأمريكا اليوم تفتقد بشدة وجود أي بلد واحد، أو أي تهديد ضدها يمكن أن يقنعها بالوقوف خصما أمامها، فلسوء الحظ الأصولية الإسلامية بعيدة، مشتتة(ألم تكن مرشحة للصدام الحضاري المزعوم؟)، كما أن الصين حالة معقدة علي الوجه الذي يجعل أخطارها المحتملة بعيدة في المستقبل. لقد طرح "سلا" القائد الروماني نفس السؤال منذ ألفين من السنين بعد انتصاره علي ميثراديتس الآن لم يعد يقدم لنا العالم أعداء، تري ما مصير الجمهورية؟ وجاءت الإجابة سريعا بانهيار الجمهورية الرومانية بعد سنوات قليلة.

أسباب تفكك الهوية الأمريكية

ويري مؤلفنا أن آثار انقضاء الحرب الباردة التي عجلت بتفكك الهوية الأمريكية ترجع إلي تفاعل اتجاهين في المجتمع الأمريكي هما:

١- التغيرات الحادثة في نطاق الهجرة ومصادرها

٢- غلبة الإعجاب والتقدير لنزعة التعددية الثقافية.

فلقد تغير التركيب العرقي، أو الإثني، بدءا من قانون١٩٦٥ الذي فتح الأبواب أمام أمريكا اللاتينية وآسيا والمحيط الهادي، فبلغ المتحدثون بالأسبانية(الهيسبانيك)٢٥%، والسود١٤%، و٨% من أصول آسيوية. كما تغير التوازن الديني فأصبح المسلمون أعلي نسبة من أتباع الكنيسة الأسقفية، فصار الأمريكيون الأصليون نصف عدد السكان بعد أن كانوا ثلاثة أرباعهم، وهنا سقط الالتزام بالعقد الضمني للأسلوب الأمريكي الذي يرحب

بالمهاجريـــن مشـــترطا تمـــثلهم للغة الإنجليزية، ومبادئ العقيدة الأمريكية، وأخـــلاق العمـــل البروتستانتية، فأصبح الأمر علي النقيض من ذلك، بل إن إدارة الرئـــيس كلينتون تشجع التنوع والاختلاف الثقافي الذي تستبدل بحقوق الأفراد حقوق الجماعات.

وإذا كـــان لا مفـــر من أن تكون الولايات المتحدة متعددة الثقافات، فإن الوحـــدة أو الهوية الأمريكية لن تنهض إلا علي الإجماع علي الأيديولوجية السياسية(ويقصد بها العقيدة كما أوضحها سلفا)، تلك الأيديولوجية التي تعد، كما قال ميردال الأسمنت في بنية تلك الأمة المتباينة العظيمة، وبغياب ثقافة مشـــتركة ســـتكون المبادئ الأمريكية هشة كأساس للوحدة القومية(ويقصد بالثقافة هنا ثقافة المهاجرين الأصليين).

إلا أن للإيديولوجـــية علاقة ضئيلة بالهوية القومية في معظم الأقطار، فســـتظل الصـــين رغـــم تغير أيديولوجيتها أو أسرها الحاكمة هي الصين، وكذلـــك فرنســـا وألمانـــيا وغـــيرها، ولكـــن هـــل تنجو أمريكا بعد زوال أيديولوجيتها السياسية؟ يقدم مصير الاتحاد السوفيتي مثالا معقولا للأمريكيين فهمـــا متشـــابهان فـــي أنهمـــا ليســـتا دولتين قوميتين بالمعني الكلاسيكي، والأيديولوجـــية هـــي التي حددتهما بأكثر ما صنعت الثقافة المشتركة، فإذا ســـادت التعددية الثقافية، وإذا ما تفكك الإجماع علي الديمقراطية الليبرالية، فستنضـــم أمـــريكا إلـــي الاتحاد السوفييتي علي كومة نفايات التاريخ (ألم يبرهن من قبل عن نهاية الصراع القائم بين الإيديولوجيات؟).

السياسة أو الشئون الخارجية هي المصالح القومية

يـــتفق هنتنجـــتون مـــع ليـــبمان فـــي قوله بأن الدولة ينبغي عليها أن تـــوازن بيـــن قوتها وبين التزاماتها، ويري أن أمريكا قد سدت ثغرة ليبمان بيـــن الطرفيـــن أثناء الحرب الباردة، بل وأضافت فائضا غير أننا الآن لسنا فـــي حاجة إلي قوة لخدمة الأهداف الأمريكية، بل نحن بالأحري في حاجة إلـــي العـــثور علـــي أهـــداف أي (مـــبررات) لاســـتخدام القوة الأمريكية للقيام بدورها.

ويوافـــق كاتبـــنا علي ما أعلنته لجنة المصالح القومية الأمريكية١٩٩٦ بأنه بعد العقود الأربعة من غلبة العقلية التي اتخذت هدفا مفردا وهو احتواء التوسع الشيوعي السوفييتي، تشهد أمريكا اليوم منذ خمس سنوات سيرا علي

غـير هـدي لابد أن يهدد استمرار قيمنا وثرواتنا، بل وحياتنا نفسها، فثمة خمس مصالح قومية هي:

١- منع الهجوم علي الولايات المتحدة بأسلحة الدمار الشامل

٢- مـنع بـزوغ دول مهيمنة في أوربا وآسيا وأية قوي معادية علي حدود أمريكا أو السيطرة علي البحار

٣- منع انهيار النظم العالمية للتجارة والأسواق المالية

٤- إمدادات الطاقة والبيئة

٥- تأمين بقاء حلفاء الولايات المتحدة.

(ليسـت هذه مصالح قومية بالمعني الإيجابي، بقدر ما هي وسائل دفاع عن المصالح القومية)

والخطـر الحقيقي الذي يهدد تلك المصالح القومية هو الانصراف عن الاهـتمام بالشـئون الخارجية، ومبادرات السياسة الخارجية، فلابد لزعامة أمريكا للعالم من الإقرار بأن مشكلات العالم هي مشكلات أمريكا، وضرورة قـيام الزعامة أو القيادة الممثلة في مؤسسة الرئاسة بخلق إجماع حول تلك المصالح القومية.

النزعة الاجتزائية في المصالح التجارية، والمصالح العرقية

هنا يكمن الخطر المنذر بالانهيار، فالمصالح السائدة بعد الحرب الباردة تنتمـي إلى النزعة "الاجتزائية" Particularism التى تنصرف كلية إلـى مصلحة معينة خاصة ، كما تتبدى فى المصالح الاقتصادية والعرقية، فهـذه المصـالح هى التى تحدد الدور الأمريكى الحالى فى العالم، فالسياسة الخارجـية أصـبحت معـتمدة علـى "الدبلوماسية التجارية" التى يجعل لها كلينـتون الأولويـة، وتمـارس تلك السياسة من خلال لعبتين ، الأولى لعبة "اقتـناص العقود" والثانية لعبة تشجيع المصالح العرقية ، فقد أضحت أمريكا دولة مؤسسة على أنواع متعددة من "الشتات"(الدياسبورا)الذى يجمع قوميات مـتعددة لا تزال تدين بالولاء لمصالح أوطانها الأصلية، وترفض "الأمركة" وتمـثل الأسلوب الأمريكى، وذلك لزوال العدو المشترك الذى كان يقهرهم علـى الاندمـاج مـع الآخرين، ومن ثم حلت الثقافة محل الأيديولوجيا فى تشكيل الاتجاهات والمواقف لسكان "الشتات".

غــير أنه يهاجم مؤتمر مايو ١٩٩٦ عن "تحديد (أو تعريف) المصلحة القومــية: الأقلــيات وسياســة الولايات المتحدة الخارجية فى القرن الواحد والعشـــرين "وهـــو المؤتمـــر الـــذى أيد أهمية انخراط الأقليات فى الشئون الخارجــية، وأبرز مزاياه ، ويرى مؤلفنا أن هذا المؤتمر الذى رعاه "مجلس نــيويورك للعلاقات الخارجية"، وهو المؤسسة الرئيسية للسياسة الخارجية، إنمـــا يعــد الرمز الأقصى لغلبة مصالح "الشتات" على المصالح القومية فى السياسة الخارجية الأمريكية.

وعندئذ يدق ناقوس الخطر معلنا أن السياسة الداخلية قد أصبحت جهاز التنـــبؤ الدقيق بمواقف السياسة الخارجية التى أخذت فى الذبول والزوال فى أنـــاة واطـــراد بيـــنما كان ينبغى أن تظل السياسة الخارجية أفعالاً مخططة مرســـومة بوعـــى لترويج وتشجيع مصالح الولايات المتحدة بوصفها كياناً موحداً فى علاقته بالكيانات المماثلة.

فقد الهيمنة الفعلية

ويـــبدى هنتنجـــتون سخطة وتذمره مما يحدث للولايات المتحدة، فرغم أنهـــا القوة العظمى الوحيدة فى العالم، فإن نفوذها وهيمنتها الفعلية لا يعادل قوتهـــا، فلقد أصبحت البلدان الصغيرة والكبيرة قادرة على مقاومة إغراءات أو تهديـــدات صانعى السياسة الأمريكية. فقد تحدت "سنغافورة"، تلك الدولة الصـــغيرة، الضـــغط الأمريكى المكثف عام ١٩٩٤، واستمرت فى ضرب مراهق أمريكى بالخيزرانة! وحتى "كوبا" المفلسة المعزولة نجحت فى تغيير سياســـة الهجـــرة الأمريكية، كما تحدت "بولندا" مطلب أمريكا لوقف صفقة السلاح مع "إيران"، وقاوم "الأردن" الضغط الأمريكى لقطع علاقاته التجارية مـــع "العراق" ، ورفضت "الصين" مطالب الولايات المتحدة الخاصة وحقوق الإنســـان ويحـــدث مـــثل ذلـــك مع اليابان وروسيا، بل عجزت أمريكا عن التخلص من "صدام حسين"، و"كاسترو" و"القذافى" وفشلت فى تأمين إصلاح اقتصـــادي كبير في اليابان أي(التدخل في شئون الدول الداخلية التي ترادف عنده الشئون الخارجية الأمريكية).

ورغـــم احـــتفاظ أمـــريكا بالفيتو، فإن قدرتها باعتبارها القوة العظمي الوحـــيدة فـــي العالم ليست بحجم قدرتها علي إقناع البلدان الأخري بالعمل بالطريقة التي تريدها أمريكا أي(قدرتها علي الإملاء والإكراه!).

ضد نشاط القطاع الخاص

يفســـر هنتنجـــتون الهوة بين القوة الأمريكية، وانهيار النفوذ الأمريكي بأمرين:

الأول: هـــو الـــتفاوت بين إمكانيات الولايات المتحدة الهائلة، وبين قوة حكومـــتها التي تدنت إلي أقل المستويات، فقد بلغ دخل الحكومة أو عائدتها عام١٩٩٣، ١٩% من مجموع الناتج القومي.

وكانـــت الأســـلحة والتقدم التكنولوجي أثناء الحرب الباردة راجعا إلي وزارة الدفـــاع، أمـــا الآن فتعتمد المؤسسة العسكرية الضخمة علي القطاع الخـــاص، ولكنه يستدرك قائلا بأن المشروع الحر أو الخصخصة مبدأ شامل رئيســـي فـــي العقـــيدة الأمريكـــية، ولا يمكننا قهره بسهولة فى غياب عدو خارجي، فالمطلوب الآن إيجاد عدو خارجي(ليتم قهر القطاع الخاص!).

والثانـــي: الطبـــيعة المتغـــيرة للقوة الأمريكية التي ستظل إحدي دول الهيمـــنة الكـــبري، فـــثمة مرحلتان للهيمنة الأمريكية: المرحلة الأولي هي مـــرحلة الدفعPush إلي الخارج حيث نتج نفوذ القوة المهيمنة عن قدرتها علي إنفاق مواردها علي النحو الذي يتيح نشر الاستثمار الاقتصادي، ومنح القـــروض، ودفع الرشاوي التي تنفق علي الدبلوماسيين والبيروقراطيين في سائر الدول، وغالبا ما كانت تضع تلك البلدان وسكانها تحت حكمها المباشر أو غـــير المباشـــر(تأمل الدفاع الأمريكي عن الحرية) ولذلك مثّل الانتشار والتوســـع الأمريكـــي في الخمسينات والستينات حضورا أو وجودا عسكريا وسياســـيا واقتصـــاديا في مناطق واسعة من العالم(أليس هذا هو ما يسمي بالاستعمار الذي جعل الكفاح ضده أحد مبادئ العقيدة أو الثقافة الأمريكية في صدر مقاله؟).

والمـــرحلة الثانـــية مـــن الهيمنة الأمريكية هي قوة الجذب إلي الداخل Pull حيـــث بـــدأ تحـــول الإنفاق إلي الداخل بما تدفقت بمقتضاه الأموال وجماعات المهاجرين، فأصبحت أمريكا قوة جذب بدلا من قوة الدفع الأولي، ولهـــذا صـــارت قـــوة متساهلة لينة، بينما كانت من قبل قوة صلبة صارمة تخضع الغير لإرادتها.

ولا يخفي مؤلفنا حسرته علي زوال المرحلة الأولي للهيمنة التي كانت فـــيها الولايـــات المـــتحدة تـــنفق ملـــيارات الدولارات كل عام للتأثير علي الحكومـــات الأجنبية فيما تصدره من قرارات أو تديره من انتخابات، أو أية

نـــتائج سياسية، وانقلب الوضع الآن فكاد يتوقف ذلك التأثير علي الحكومات الأجنبية.

وأصبحت الحكومات والهيئات والشركات الأجنبية هي التي تنفق أموالا طائلـــة علـــي العلاقات العامة وجماعات الضغط (اللوبي) في أمريكا. كما أنفقـــت دول أخـــري مـــبالغ هائلة للتأثير علي صانعي القرارات الحكومية، وربما تستغل كبار الرسميين السابقين في هذه الجهود.

ولقـــد تعلمـــت تلك القوي الخارجية تدريجيا أن مركز الاهتمام لم يعد وزارة الخارجـــية، بل الهيئة التشريعية(الكونجرس)، ونجح النفوذ الخارجي فـــي المساهمة في هزيمة إعادة انتخاب نواب أو شيوخ تعارضت سياساتهم مع مصالح تلك الحكومات.

التهديد بالصين لولادة حس جديد بالهوية القومية

فالمشكلة إذن هي أن المؤسسات والموارد وكل أشكال النفوذ التي كانت تخـــدم المصـــلحة القومية في الحرب الباردة، يعاد توجيهها اليوم إلي خدمة المصـــالح الخاصـــة (ألـــيس هذا أمرا طبيعيا في الحياة المدنية وفي النظم الليبرالية؟).

ولكنه لم يفقد الأمل، فبعد أن استبعد الصين في أول المقال، يعود فيعقد عليها الرجاء في أن تكون العدو الجديد، ويبعثه علي هذا الأمل أن جماعات مهمـــة فـــي الصين تري في أمريكا عدوها الوحيد، ويكفي التهديد بالصين لتوليد حس جديد بالهدف القومي، والهوية القومية في الولايات المتحدة، وإن لم يكن ذلك وشيك الوقوع.

ويعـــتمد الحكم علي جدية هذا التهديد علي قدرة الأمريكيين علي النظر إلـــي الهيمنة الصينية علي شرق آسيا كأمر بالغ الضرر بالمصالح الأمريكية (عـــودة إلـــي الحـــروب القومـــية التـــي أعلن نهايتها بالحرب الباردة بين الإيديولوجـــيات). وإحياء حس جديد بالهوية القومية في نظره رهين بمعاداة الـــولاء للتـــنوع والتعدد الثقافي داخل الولايات المتحدة، فالمطلوب إذن هو الحـــد مـــن الهجرة وتطوير أو تنمية برامج عامة وخاصة للأمركة، وتدعيم التمـــثل للأســـلوب الأمريكي، والتصدي الحازم للعوامل المفضية إلي ولاء الشتات.

ويقدم حله النهائي بعبارة موجزة، فهو رغم ولائه لما يسميه بالعقيدة أو الـثقافة الأمريكية، يتبني صراحة، سياسة للقمع والتقييدRestraint . وإعـادة البـناء تهـدف إلـي الحد من تحويل الموارد الأمريكية عن خدمة المصـالح الاجتزائـية(أي الخاصة)، ودون القومية، وعبر القومية، وغير القومية.

فـالمصلحة القومية، كما يقول، هي القمع القومي، وهذه فيما يبدو هي المصـلحة القومية الوحيدة التي يرغب الشعب الأمريكي في دعمها في هذا الوقت من تاريخهم!

وبـدور أكثر تقييدا يمكن الآن لأمريكا أن تتولي دورا أكثر إيجابية في المسـتقبل عـندما يحيـن الوقت لتجديد هويتها القومية والسعي إلي إنجاز الأهـداف القومية التي من أجلها عقد الأمريكيون عزمهم علي بذل حياتهم، وثرواتهم، وشرفهم القومي.

تعقيب:

ورغـم أن الـتاريخ لايكـرر نفسه، فإن نظريات أو تفسيرات سابقة، وفاسـدة للـتاريخ يمكن أن يعيدها البعض بتنويعات متعددة علي نفس اللحن مهمـا يكـن اخـتلاف الأوضاع والوقائع، وصاحبنا يعلن إفلاسه النظري بالتفتيش في الدفاتر القديمة.

ففكـرة ضرورة العثور علي عدو لتحديد الهوية قد سبقه إليها هتلر في كـتابه "كفاحـي" عندما ضم اليهود والشيوعيين ومعهم فرنسا ليحشد شظايا ألمانيا في هوية قومية مشتركة، استنفارا لكل القوي لتخرج إلي العالم لإعادة اقتسام مناطق نفوذه. وبدلا من استخدام هنتنجتون للمصالح القومية سك هتلر مـا أسماه المجال الحيوي، وللتعجيل بإنجاز تلك الأهداف كان لابد من تقييد المشـروعات الخاصـة لـيغدو النظام رأسمالية دولة، وهي التي تسود كل الأنظمة الشمولية، حتي الاتحاد السوفييتي نفسه لم يسلم من هذا، حيث كانت نخبـته الحاكمـة نوعـا من البورجوازية البيروقراطية التي لاتملك أدوات الإنتاج، بل تملك إصدار قرارات استخدام أدوات الإنتاج.

ولـم تكـن الحرب الباردة سوي حرب ساخنة بالوكالة استخدمت فيها الأسـلحة، وسقط فيها القتلي، ولكن ليس بين طرفي الحرب الباردة، بل من بلدان أخري.

وفي أمريكا نفسها، وأيضا بعد خمس سنوات من نهاية الحرب العالمية الثانية والانتصار علي المحور، برز مكارثي الشهير عام١٩٥٠ متهما إدارة روزفلــت وتــرومان بــعشــرين عامـــا من الخيانة، لم يكتشفا فيها العدو الجديــد وتسللت فيها الشيوعية إلي كل الجبهات الداخلية وكان نجما ساطعا أكــثر مـــن أربع سنوات باحثا عن العدو الجديد الذي سيعيد وحدة الأمة في نظره.

وعلـــي أيـــة حـــال، فإن العدو الحقيقي لهنتنجتون وأصحاب المصالح الحقيقــية فـــي أمـــريكا هو السلام، فقد كان من المتوقع أن يحتفي منظرنا بســقوط العدو السوفييتي ليستمتع بالسلام والرخاء، ولكنه يعلم أن المصلحة الحقيقــية للدولـــة الرأسمالية هي ترويج السلع للآخرين وضرب منافسيهم. وكمـــا يقـــول هـــو نفسه، وبعبارته، أن الحماية من الاتحاد السوفييتي كانت السلعة التي تروجها الولايات المتحدة، ولابد إذن من سلعة أخري مماثلة من جودتهـــا، غـــير أنـــه، كعادتـــه في التنظير، لايعني بسلامة الاستدلال، أو الاتســـاق، أو التمييز بين المتغيرات الفاعلة، والمتغيرات الدخيلة العارضة. فالحـــرب، والصـــدام مع عدو يحملان علي التماسك بين مختلف المواطنين لوقـــت محدود لتعود الأمور إلي طبيعتها في حال السلام، ولايمكن أن تظل الشـــعوب فـــي حـــال من التعبئة والاحتشاد، وبالتالي فهذه الفترة الموقوتة لاتصـــلح محـــددا للمصـــلحة القومية أو الهوية، وإلا لما كانت الحاجة إلي أحزاب وخلافات وطنية واجتهادات متباينة.

ومشكلة كاتبنا أن رؤيته وتخطيطه وفقا لها، ينتسبان إلي مرجعية فكرية لما قبل الحرب العالمية الثانية، وهي ليست المرجعية الليبرالية، بل الشمولية التي تسعي إلي التوحيد والتعبئة عن طريق القمع والتقييد في الداخل، لفرض سيطرة مصالح بعينها علي الخارج.

ومهمـــا يكـــن مـــن أمـــر، فإن المقال يكشف جوانب كثيرة من الواقع الأمريكـــي، وهـــو ما يدعونا إلي استعادة الشعور بالأمل بانهيار ما يسمي بالقطب الأعظم، وتغيير قواعد اللعبة السابقة.

والمقـــال بأســـره، وقد كتبه فى عهد كلينتون الديموقراطى، كان دعوة وإعداداً لحكم بوش والمحافظين الجدد. ويصلح المقال أن يكون بياناً صريحاً وشفافاً لما تصنعه أمريكا بالعالم اليوم.

الفصل السابع

خطابان متناقضان إلي الأمة الأمريكية: أحدهما باحث.. والآخر شماشرجي!

عـندما كنـت أقـرأ كتابا صغيرا لتشومسكي عالم اللغويات والمحلل السياسـي الأمريكي تحت عنوان: ماذا يريد العم سام؟ في الفترة من١٩٨٦ إلـي١٩٩٢، والذي ترجمه الأستاذ عادل المعلم، وضعني الكتاب علي الفور فـي حالـة ذهنـية يسميها السينمائيون بـالمونتاج المتوازي، أي التوليف المتقاطع بعرض حدثين أو مشهدين متعارضين يقعان في وقت واحد، وذلك حيـنما وجدت نفسي أقارن بين تحليل تشومسكي، وتحليل هنتنجتون للسياسة الأمريكية الخارجية في مقاله الذي نشره بعد عام عقب صدور كتابه الشهير عن صدام الحضارات. وكان عنوان المقال تآكل المصالح القومية الأمريكية في أكتوبر١٩٩٧ في مجلة الفورن أفيرز، وربما جاء المقال متأخرا بخمس سـنوات بعـد كتاب تشومسكي، ولكن الذي بقي موازيا ومتباينا بينهما كان المنحي أو طريقة التناول والتفسير لنفس الوقائع والأحداث.

وقـد يتسـاءل القـارئ اليقظ: لماذا هنتنجتون مرة أخري، وقد آذنت نظريـته الأخـيرة بالانسـحاب مـن مسرح المنوعات مثلما حصل لأغنية "لولاكـي"، ورقصة المكارينا اللتين حطمتا الأرقام القياسية في الانتشار، ثم سـرعان مـا انمحـت كل منهما من ذاكرة الجماهير، واندرجت في أكفان النسيان؟.

فقـد أعلن الرئيس كلينتون بعد ضرب السودان وأفغانستان فساد نظرية صدام الحضارات، وتنصل منها، كما أن هنتنجتون نفسه، صاحب النظرية، لـم تسـعفه أو تنقذه آراؤه في تحليل أو تفسير تآكل المصالح الأمريكية في مقالـه الأخـير الـذي عرضناه فى الفصل السابق. ولهذا لن تكون مقارنته

بتشومسكي تكرارا لما أسهب فيه من صدام الحضارات، تلك البرشامة التي انتهي مفعولها، ومن ثم لا تهمنا في سياقنا الحالي*.

اختلاف الدور

ما الفرق إذن بين نموذج تشومسكي ونموذج هنتنجتون؟ ليس الفرق في نـــتائج البحث، أو جهة النظر التي يتخذها كل منهما، فهذا أمر مقبول ووارد في طبيعة البحث إذا ما كانت المهمة لدي كليهما هي البحث.

ولكن يقوم الفرق بينهما في اختلاف الدور الذي اختاره – عامدا – كل مـــنهما ليقدم دعواه، ومن هنا تتكشف جميع الاختلافات بينهما. فعندما يتخذ المـــرء دورا بعيـــنه فإنـــه لابد أن يستطلع جوانب قضيته أو موضوعه من مرصد معين، ويوجه خطابه إلي جمهور مختار، ويستخدم أسلوبا أو طريقة أو منهجا لتحقيق هدفه.

ولكـــن قـــبل أن نشـــرع فـــي المقارنة ينبغي أن نشير إلي أن العنوان الأصلي لكتاب تشومسكي هو ماذا يريد العم سام واقعيا'Really أو حقا، أو فعـــلا....إلخ، ويلفتنا هذا اللفظ الذي سقط سهوا في الترجمة العربية إلي الفـــارق الجوهـــري الـــذي ستدور حوله المقارنة بين الخطابين، تشومسكي وهنتنجتون، فهي تدل أن هناك ما يريد العم سام أن نعرفه عن مقصده، وهو أمر مختلف عما يريده في الواقع، كما يعني أن الكتاب في سبيله إلي كشف ذلـــك التبايـــن بيـــن ما يعلنه العم سام عن مقاصده، وبين ما يهدف إليه في الواقع الفعلي.

وقـــد أحســـن المـــترجم صنعا بإضافته بابا آخر إلي الكتاب من تأليفه استأنف فيه ما وقف عنده تشومسكي عند سنة١٩٩٢، وألقي أضواء ساطعة علـــي مـــا اســـتجد من أحداث علي هذا النحو الذي يقترب كثيرا من منهج تشومسكي.

الثالوث المقدس

وقد عرف الأستاذ عادل المعلم العم سام بأنه الثالوث المقدس من أقوياء رجـــال الحكـــم والمال والإعلام، يعملون حسب المنهج الأمريكي الخاص، وعصب الحياة فيه القوة والمال.

* لـــيغفر القـــارئ لـــي تفاؤلي بانتهاء مفعول نظرية صدام الحضارات، فالواقع العالمي الراهن ينذر بتحقق تلك النبوءة الفاسدة كما أشرنا من قبل.

ويغريـــنا ذلك بالبحث في أصل التسمية عساها تؤكد لنا صدق ما ذهب إليه تشومسكي.

اعترف الكونجرس عام١٩٦١ بالعم سام سميا لــصمويل ويلسون الذي كان مفتشا لإمدادات الجيش الأمريكي أثناء حرب١٨١٢، وكان يكتبU.S.، أي الحــروف الأولي للولايات المتحدة، علي الصناديق التي تم فحصها، وأطلــق عماله نكتة عن الحروف الأولي للولايات المتحدة وكأنها الحروف الأولـــي بالعم صمويل. وربما تكشف أن الحرب التي اشتعلت بين الولايات المــتحدة وبريطانـــيا قرابة ثلاثة أعوام، عن سر التعميد لاسم العم سام، فقد شـــبت لأسباب اقتصادية خالصة حول حرية الملاحة البحرية التي حظرتها بريطانـــيا. وعقــب مواجهة الكساد الاقتصادي الكبير طالبت جماعة سميت بـــصـــقور الحـــرب داخل الكونجرس، ضمت الجمهوريين والديمقراطيين، بإعلان الحرب علي بريطانيا لاسترداد الشرف الوطني.

ومهمـــا يكن من أمر، فإن أبرز رسم وأشهره للعم سام هو الذي صنعه جـــيمس مونـــتجموري فلاج للملصقات الداعية لانخراط الشباب في الجيش الأمريكي في الحربين العالميتين الأولي والثانية.

ولقـــد جرت العادة، في كل الأحوال، علي استخدام ذلك الرمز للإشارة إلـــي الحكومـــة الأمريكية وليس المواطن الأمريكي، أو بعبارة أخري، إلى أصحاب السلطة في اتخاذ القرارات.

ومـــن هـــنا يتيسر لنا أن نميز بين دور كل من تشومسكي وهنتنجتون. تشومسكي يكشف ما خفي من مقاصد أمريكا بالوثائق والإحصاءات والوقائع ومناقشـــات الكونجرس. ويحلل الأحداث والخطط سواء ما تعلق منها بداخل أمـــريكا أو خارجهـــا ممـــا امـــتدت إلـــيه ذراعها القوية الطويلة، ويناقش المصـــطلحات والمفهومـــات التي تتداولها السياسة الخارجية الأمريكية مثل الديمقراطـــية والسلام والعدوان ورفع مستوي المعيشة والمصالح الخاصة. ويضـــع أيديـــنا بمقتضي أدواته ومادته في التحليل العلمي، علي التعريفات الإجرائـــية الفعلـــية التي تتخذها تلك السياسة الخارجية مقياسا حاسما، علي الوجـــه الـــذي يجعل لها مضمونا مباينا تماما للشعارات المعلنة. فلا يتحدث عـــن الأمة الأمريكية بوصفها كتلة موحدة، بل عن مواطنين، وفئات مختلفة متعارضـــة المصالح، وجماهير، وحكومة، وأصحاب مصالح وقرارات. كما يـــتحدث عن مسار تاريخ متسق. أما هنتنجتون، فيتحدث عن هوية أمريكية، أي كـــيان مـــتجانس من الداخل، متمايز في الخارج، وتتألف كما يقول من

الـــثقافة الأمريكية، والعقيدة الأمريكية التي هي في نظره: الحرية والمساواة والديمقراطـــية والـــنزعة الدستورية والليبرالية والحكومة المقيدة والمشروع الحـــر الخـــاص، وكأن قدر الأمة الأمريكية، بحسب عبارته، ألا يكون لها أيديولوجيات، بل تكون كلا واحدا!.

خصومة مع أعداء الحرية!

وهويـــة أمريكا، كما يقول، علي الدوام ومنذ البداية، هي خصومتها مع أعداء الحرية، ولصون تلك العقيدة الأمريكية لابد أن تكون المصلحة القومية هـــي الشـــئون الخارجـــية، فـــلا مفر لزعامة أمريكا للعالم من الإقرار بأن مشـــكلات العـــالم هـــي مشكلات أمريكا، ويتوجب علي القيادة الممثلة في مؤسسة الرئاسة أن تخلق إجماعا حول تلك المصالح القومية.

ويـــبدي موافقـــته علي تحديد لجنة المصالح القومية لعام١٩٩٦ بخمس مصالح هي: منع الهجوم علي الولايات المتحدة بأسلحة الدمار الشامل، منع بزوغ دول مهيمنة في أوروبا وآسيا وأية قوي معادية علي حدود أمريكا، أو الســـيطرة علي البحار، ومنع انهيار النظم العالمية للتجارة والأسواق المالية، وإمدادات الطاقة، وتأمين بقاء حلفاء الولايات المتحدة.

ويتبين من ذلك أنها ليست مصالح قومية، بقدر ما هي وسائل دفاع عن المصـــالح القومـــية في الخارج، أما المصالح القومية التي تخص الداخل أو الوطن نفسه فغائبة تماما عن خطابه.

والواقـــع أن هـــناك نوعيـــن من الحديث فيما يتعلق بالشئون السياسية، الحديـــث الموجه من رجال السياسة إلي عامة الجماهير، وفيه تتاح الفرصة واســـعة لرقصها علي أنغام الشعارات المثالية كما يقول تشومسكي. والثاني حديث المخططين إلي رجال السياسة وأصحاب النفوذ في اتخاذ القرار، وهو صـــريح جدا، ويتبادل فيه المخططون ورجال السياسة المذكرات التي يسجل علـــيها عبارة سري للغاية. ولكن مرور فترة زمنية يجعلها متاحة للباحثين، ومثالها المذكرة التي كتبها كينان لتخطيط السياسة تحت رقم٢٣ لسنة١٩٤٨. ومنها كما ينقلها تشومسكي: عندنا نحو ٥٠% من ثروات العالم وفقط ٦,٣% مـــن ســـكانه، وبمثل هذا الوضع لايمكننا تجنب حسد الآخرين واستياءهم. مهمتـــنا الحقيقـــية فـــي الفـــترة القادمة ترتيب نموذج للعلاقات يحافظ علي اســـتمرار ذلـــك التفاوت، ولتحقيق ذلك سيكون علينا أن نتخلي عن الأحلام

والعواطــف، وتركيز اهتمامنا علي أهدافنا القومية المباشرة. يجب أن نمسك عــن كلامــنا المبهم للآخرين، والأهداف غير الحقيقية مثل حقوق الإنسان ورفــع مســتوي المعيشة والتحول إلي الديموقراطية، ولن يكون اليوم الذي نضطر فيه إلي التعامل بمنطق القوة بعيدا، وكلما قلت عوائقنا من جراء رفع تلك الشعارات كان ذلك أفضل.

وكينان هو صاحب نظرية الاحتواء١٩٤٧ التي أعد فيها وصفة لتصنيع الحــرب الــباردة وإدارتهــا لاحتواء الخطر السوفييتي الخارج منتصرا من الحــرب، وذلك بخلق قوة مناوئة للتصدي له علي امتداد العالم كله، وظلت النظرية عماد السياسة الخارجية الأمريكية حتي انهيار الاتحاد السوفييتي.

وعــندما أصــدر هنتنجتون مقاله الشهير عن صدام الحضارات، أثني علــيه كيســنجر مهندس ومنفذ السياسة الخارجية قائلا بأنها أفضل ما صدر منذ مقال كينان عن نظرية الاحتواء في المجلة نفسها(الفورن أفيرز).

وطالما كانت مثل هذه النظريات ذات العناوين الأخاذة منشورة ليقرأها الجمهــور، بخلاف المذكرات السرية وأنشطة المخابرات، فهي بمثابة أردية وثياب جاهزة لتستر الأهداف الحقيقية غير المعلنة.

وهــنا يخــتلف هنتنجتون، لقلة حظه أو لقلة كفاءته، عن كينان، في أن الأخير، إلي جانب إجادة صنعه أو إعداده للملابس النظرية، كان نشطا فعالا فــي رســم الخطط السرية العملية، وشرح الوسائل التي يتعين علي السياسة الأمريكــية استخدامها ضد أعدائها الذين وقعوا فريسة لما أسماه بــالهرطقة التــي تتمثل لديه في الاعتقاد بأن علي الحكومة مسئولية مباشرة عن رفاهية الشــعب. وهــي نفســها التــي يسميها كينان وسائر المسئولين الأمريكيين بالشــيوعية، بصرف النظر، طبعا، عن الاتجاهات الحقيقية لمن ينادون بها. يقول كينان، كما يذكر تشومسكي، قد تكون الإجابة غير سارة، لكن علينا ألا نــتردد في استخدام الحكومات المحلية لشرطتها كسلاح قمع، وليس في ذلك مــا يثــير الخجل، فالشيوعيون في الأصل خونة ومن الأفضل وجود نظام قــوي فــي الســلطة من وجود حكومة ليبرالية متسامحة متساهلة يخترقها الشيوعيون. ولم يكن كينان وحده في ذلك المخطط، فقد سبقه ودرو ويلسون قــبل الحرب بثلاثين عاما عندما صرح بأن المضمون العملي لمبدأ مونرو هو أن تهتم الولايات المتحدة بمصالحها الخاصة، أما سلامة الدول الأمريكية

الأخـــري، فهـــي أمور عارضة وليست أهدافا في ذاتها.. ويبدو أن هذا خط ثابت لا تتزحزح عنه السياسة الأمريكية الخارجية.

أمـــا هنتنجـــتون فإن قدراته تقصر، أو أن دوره يقتصر علي مخاطبة الجماهـــير فحســـب، ويقـــنع فحسب بالتخطيط علي مستوي اختيار الملابس الملائمـــة لســـتر ســـوءات السياسة الخارجية، وبهذا يقوم بدور اللبيس، أو بالأحـــرى الشماشـــرجي الذي ينتقي لسيده ما يظهر به أمام الآخرين. ولهذا يقف جهده عند استخدام الشعارات السياسية التي تستمد منطوقاتها من معجم المـــبادئ، ولا يســـعي أبـــداً إلـــي النزول بالبحث إلي الأسباب والمتغيرات الموضوعية للصراع الذي تعرّف السياسة بأنها طرق إدارته.

الدبلوماسية التجارية

والمثل البارز علي شماشرجيته أن مفهوم المصلحة القومية لديه لايتحدد بالاقتصـــاد الذي هو الجسم أو البنية الحقيقية للمصلحة القومية، علي نقيض تشومســـكي فـــي كل أمثلته وتحليلاته، بل تتحدد بالمظهر الخارجي الذي قد يلهب الحماس في الداخل، ويقدم التبرير في الخارج.

وهـــو يغفل الإشارة إلي الاقتصاد في مقاله الشهير وكتابه، ولكن عندما يضـــطر إلي الإشارة إليه في مقاله الأخير، فلكي يجعله سببا في فقد أمريكا لـــنفوذها وهيبـــتها! فقد أصبحت السياسة الخارجية معتمدة علي الدبلوماسية الـــتجارية التـــي تقـــوم علي لعبة اقتناص العقود، وهو أمر غير محمود في نظـــره. فبيـــنما كانت المرحلة الأولي للهيمنة الأمريكية، كما يقول، في قوة الدفـــع إلي الخارج، أصبحت المرحلة الثانية للهيمنة، وهي مرحلة سيئة في نظـــره لـــنفوذ أمريكا، هي قوة الجذب أو السحب إلي الداخل، ففي المرحلة الأولـــي نـــتج تأثير القوة المهيمنة من قدرة أمريكا علي إنفاق مواردها علي الـــنحو الـــذي يتـــيح نشر الاستثمار الاقتصادي (في الخارج طبعا) ومنح القـــروض، ودفع الرشاوي التي تنفق علي الدبلوماسيين والبيروقراطيين في سائر الدول. وغالبا ما كانت تضع تلك البلدان وسكانها تحت حكمها المباشر أو غـــير المباشر، ولذلك مثّل، ذلك الانتشار والتوسع الأمريكي، كما يقول، فـــي الســـتينات والخمسينات من قبلها، حضورا أو وجودا عسكريا وسياسيا واقتصـــاديا في مناطق واسعة من العالم. ولا يخفي هنتنجتون حسرته علي زوال المرحلة الأولي للهيمنة التي كانت فيها الولايات المتحدة تنفق مليارات

الدولارات كل عام للتأثير علي الحكومات الأجنبية فيما تصدره من قرارات، أو تديـــره من انتخابات، أو تؤدي إليه من نتائج سياسية، وقد انقلب الوضع الآن فكاد يتوقف التأثير علي الحكومات الأجنبية.

أمـــا المـــرحلة الثانية فقد أعيد توجيه المؤسسات والموارد وكل أشكال الـــنفوذ التـــي كانـــت تخدم المصلحة القومية في الحرب الباردة، إلي خدمة المصالح الخاصة، ويقصد بها التبادل التجاري والقطاع الخاص.

والحـــل عـــنده هو إيجاد عدو، وليكن الصين لتوليد حس جديد بالهدف القومـــي، والهويـــة القومـــية الأمريكية وبدون شعور وطيد بهذه الهوية فإن الأمريكييـــن سيعجزون عن تحديد أو تعريف مصالحهم القومية حيث تهيمن المصـــالح الـــتجارية دون القومـــية، وعبر القومية، والعرقية، علي السياسة الخارجـــية. والســـبب فـــي كل هذا في نظره هو خسران أو فقدان الآخر، ويتســـاءل: بدون حرب باردة، ما أهمية أو مغزي أن يكون المرء أمريكيا؟ فـــبدون إمبراطورية الشر (الاتحاد السوفييتي) ماذا يعني أن تكون أمريكيا، وماذا يليق إذن بالمصالح الأمريكية، أو إلي ماذا يئول أمرها؟ وفي الحروب تـــتأكد الهوية وبدون حرب باردة يختفي السند الرئيسي لمثل هذه المبادرات والـــبرامج الكـــبري، وبالحرب يتحقق التماسك بدلا من الانقسام الاجتماعي الـــذي يحـــتاج لإزالته إلي عدو مشترك. لقد كانت السلعة الأولي التي كانت تـــروجها السياسة الأمريكية هي الحماية من الاتحاد السوفييتي، وقد اختفت الآن هـــذه الســـلعة، وربمـــا لاتســـتطيع الولايات المتحدة أن تزود الأقطار الأخـــري بســـلعة مختلفة مثل اقتصاد العالم المفتوح، أو التدخل في السوق الأوروبية، إذن لابد من إيجاد عدو! حتي يحين الوقت، كما يقول هنتنجتون، لتجديد هوية أمريكا القومية.

ولـــندع صـــاحبنا يبحث عن عدو ملائم، للنظر في خطاب تشومسكي الكاشف عن عورات السياسة الخارجية الأمريكية. يقول: طورت مجموعات بحث في كل من وزارة الخارجية ولجنة العلاقات الخارجية خططا لعالم ما بعـــد الحرب الثانية، علي أساس ما أسموه: بـــالمجال العظيم والذي علبه أن يخضع لمتطلبات الاقتصاد الأمريكي.

ويشـــمل نصـــف الكـــرة الغربـــي، وغرب أوروبا، والشرق الأقصي والمستعمرات السابقة للإمبراطورية البريطانية، ومصادر الطاقة في الشرق الأوسط، وبقية العالم الثالث، وإن أمكن سائر العالم.

وعلـــي الـــدول الصناعية مثل ألمانيا واليابان أن تكون الورش الكبري التـــي تعمل تحت إشرافنا(أي نحن الأمريكيين) علي أن تكون أقطار العالم الثالث مصدر إمداد المجتمعات الرأسمالية بالخامات، كما تمثل أيضا أسواقا لبيع منتجات مصانعنا.

وكـــان علـــي حكومة الولايات المتحدة مهمتان رئيسيتان، الأولي تأمين الســـيادة علي المجال العظيم، ويستلزم ذلك امتلاك قوة تهديد مروعة، وهذا ســـبب بناء الترسانة النووية. المهمة الثانية: توفير دعم حكومي للصناعات التكنولوجية المتقدمة، ولأسباب كثيرة وجه هذا الدعم للإنفاق العسكري.

وأدرك المخططـــون أهمـــية إعـــادة بناء الدول الصناعية الغربية التي دمـــرتها الحـــرب، علي أن يتم ذلك باستعادة النظام اليميني التقليدي بسيادة أصـــحاب الأعمـــال، وتفكيك أو إضعاف التكتلات العمالية، علي أن تتحمل الفـــئات العاملة، والفقراء أعباء إعادة البناء. واستخدم في كل ذلك الفاشيون والـــنازيون الســـابقون، والمتعاونون معهم لخبرتهم الكبيرة في ذلك، وأدرك المخططون أن ما يهدد أوروبا ليس عدوانا من الاتحاد السوفييتي، ولكن من الحـــركات والأفكـــار الديمقراطـــية المعادية للفاشية عند العمال والفلاحين، والقوة الشعبية للأحزاب الشيوعية والاشتراكية. ويشرح تشومسكي بالتفصيل مـــا حـــدث فـــي إيطاليا واليونان ودول أمريكا اللاتينية حيث استخدمت كل الوســـائل لمنع المؤمنين بالديمقراطية الأمريكية والمعجبين بـــالاتفاق الجديد الـــذي اتخـــذه روزفلت للخروج من الكساد الكبير، لمنعهم من الوصول إلي الحكم!

رحيل الديمقراطية!

ولقـــد ألـــح المخططـــون علـــي أهمية تحديد أهداف السياسة الخارجية الأمريكـــية، وهي منع بلوغ المغالين في الوطنية إلي الحكم، وإذا ما وصلوا إلـــيه يجـــب عـــزلهم والانقـــلاب عليهم وإقامة حكومات تفضل الاستثمار بالرأســـمال الخـــاص المحلـــي والأجنبي، وتوجه الإنتاج من المحصولات والمـــواد الخـــام للتصـــدير، وتكفل بذلك تصدير الأرباح للخارج. ولقد نشر المعهـــد الملكي للشئون الدولية في لندن دراسة عن نظام العلاقات الأمريكية الدولـــية ذكـــر فيها أنه بينما تدعم الولايات المتحدة الديمقراطية بالقول فإن الـــتزامها الفعلـــي هـــو للمشـــروعات الرأسمالية الخاصة، وعندما تتعرض

مصـــالح المســـتثمرين الأمريكيين للتهديد، فعلي الديمقراطية أن ترحل، ولا بأس أن يحل محلها حكام التعذيب والقتل!

وقد استخدمت ذريعة الدفاع ضد الشيوعية أو عدوان الاتحاد السوفييتي لتبرير أي هجوم أمريكي في أي مكان من العالم.

وكـــان الـــتهديد الـــذي يبرر الهجوم الخاطف والحاسم يأتي من أصغر الـــدول فـــي أكـــثر الأحيان، لأنها كانت تمثل نموذجا قد يحتذيه غيرها لو نجحت في استقلالها وإنجاز مشروعها الخاص في الديمقراطية، أو الإصلاح الزراعـــي، أو تأميم مصادر الطاقة. فكيسنجر في السبعينات يقول عن شيلي في عهد الليندي أنها فيروس يعدي المنطقة ويمتد أثره إلي إيطاليا! وهو بهذا القـــول يشبه ما قاله دين أتشيسون في أواخر الأربعينات من أن تفاحة واحدة معطوبة قد تفسد الصندوق كله.

ويقتـــبس تشومسكي عن لارس شولتز الأكاديمي البارز المتخصص في حقوق الإنسان أن المساعدات الأمريكية تميل إلي الزيادة مع الحكومات التي تمـــارس التعذيـــب مـــع مواطنيها. كما يشير إلي دراسة أوسع للاقتصادي إدوارد هـــرمان تفصح عن تلازم وثيق بين التعذيب والمساعدات الأمريكية يفسره بأن الاثنين يرتبطان بتحسين المناخ للأعمال الخاصة.

وفـــي هـــذا الصـــدد يكشف تشومسكي المدلولات العملية للمصطلحات السياســـية كما تتداولها السياسة الخارجية. فالديمقراطية ليس معناها اشتراك الشـــعب فـــي إدارة شئونه، بل تعني النظام الذي تتخذ فيه النخبة من رجال الأعمـــال القـــرارات، علي أن يكتفي عامة الناس بالمشاهدة والفرجة وليس المشـــاركة. فقـــد ســـبق أن مـــيز ليـــبمان المحلل السياسي الشهير بين فئة المشـــتركين فـــي اللعـــبة السياســـية وتبلغ٢٠% من المواطنين، وفئة عامة الجمهـــور المشغول المذهول وتبلغ٨٠% ويحرص المسئولون عن أن تظل بعـــيدة عـــنهم حيث تقوم بدور المشاهدة وليس المشاركة وإلا أدي ذلك إلي خطر فادح.

وكذلـــك الدفـــاع ضـــد العـــدوان فإنه يعني أمرا آخر، فعندما هاجمت الولايـــات المتحدة جنوب فيتنام في أوائل الستينات، صرح أدلاي ستفنسون بأنـــنا ندافـــع عـــن الفيتناميـــين الجنوبيين ضد العدوان الداخلي، أي عدوان القرويين الفيتناميين ضد القوات الجوية الأمريكية.

وأيضـــا عملـــية الســـلام، فقد يظن البعض أنها تعنى تحقيق السلام في الشـــرق الأوســـط بتنفـــيذ إســـرائيل لقرارات الأمم المتحدة وانسحابها من

الأراضـــي التي احتلتها، وقيام دولة إسرائيلية ودولة فلسطينية طبقا لقرارات الأمـــم المتحدة، ولكنها تعني عندنا تعطيل الولايات المتحدة لكل سبل السلام ودعم إسرائيل سياسيا واقتصاديا وعسكريا.

وفي غمرة غسيل المخ الذي يقلب المدلولات إلي نقيضها يصبح لوسائل الإعـــلام أهميـــتها الـــبارزة وفاعليـــتها المؤثرة، وهي في نظر تشومسكي مؤسســـات كبري تبيع منتجاتها في السوق سواء كانت ليبرالية أو محافظة. والســـوق هو وسيلة الإعلام، أما السلعة أو المنتج فهم المشاهدون، وخاصة النخبة منهم(أي٢٠%) فوسيلة الإعلام تجذب المشاهدين إلي حيث تصيدهم الإعلانـــات. ويدفـــع أصحاب الأعمال ثمن هؤلاء المشاهدين إلي مؤسسات الإعـــلام التـــي تبيع المشاهدين لهم. ومن ثم نجد صورة العالم التي تقدمها وســـائل الإعلام انعكاسا ضيقا ومتحيزا لمصالح البائعين والمشترين وقيمهم. ولـــيس من قبيل المصادفة أن يحدث انتقال منتظم لأصحاب الوظائف العليا بين المؤسسات الخاصة والحكومية إلى الإعلام وبالعكس .

فضح ألوان التزييف

ولئـــن كان هنتنجتون شماشرجيا يلبس سادته ما يروق في أعين الناس، وكـــان تشومسكي معريا فاضحا لما تحت الثياب فإنه لا يقنع بهذا الدور بل يواصل مهمته كباحث يوجه خطابه إلي الأمة الأمريكية، فيقدم في نهاية كل فصـــل الســـبل التي تفضي إلي تغيير هذا الوضع الشائن الذي اغتصبت فيه حفنة قليلة حق اتخاذ القرار والتنفيذ.

ويوجـــه خطابـــه، بعد إنجاز مهمته في فضح كل ألوان التزييف، إلي المواطن متسائلا: ماذا يمكنك عمله؟ ثم ما يلبث أن يجيب عن السؤال منبها إلـــي أن مـــا يحـــدث الآن ليس من قوانين الطبيعة، وبالتالي يمكن تغييره. ويحتاج ذلك إلي تغيير ثقافي واجتماعي وتحويل للمؤسسات الأمريكية بحيث ينتقل النظام الديمقراطي الشكلي إلي نظام ديمقراطي حقيقي جديد يخرج عن مظهـــرية الـــدورات الانتخابية التي تأتي بمن يخدم مصالح رجال الأعمال والمـــال. فليست الانتخابات مجرد ذهاب قلة من المواطنين كل عدة سنوات للضـــغط علـــي بضعة أزرار، ولكنها، لكي تكون لها قيمة فعلية، تعني أن يكـــون للمواطنيـــن آراء، ومن ثم مواقف من الأحداث، فضلا عن البرامج الرئيســـية التـــي يريدون من الحكومة تنفيذها، ويضغطون علي ممثليهم من

النواب والشيوخ من أجل ذلك. ويمكنك تنظيم التأثير علي أعضاء الكونجرس بدعوتهم إلي منزلك، وحشد عدد كبير من المواطنين للصراخ في وجوههم، ويمكنك الدخول إلي مكاتبهم، وعلي أية حال يمكنك أن تلعب دورا مهما في التأثير عليهم.

كما تستطيع أن تقوم ببحوثك الخاصة لدراسة كل مشكلة لتكوين الموقف السليم منها. ولاشك أن ذلك يتطلب مجهودا، ولكنه في مقدورك، فالأمر ليس معقدا أو غامضا، فلابد للعمل أن يستمر في سبيل الحرية. كما يحتاج العالم الثالث إلي تعاطفنا وتفهمنا، وأكثر من ذلك إلي مساعدتنا، ويتوقف تحملهم وصمودهم أمام وحشيتنا علي ما يمكن أن نفعله في الداخل عندنا. إن الشجاعة التي أبدوها مذهلة، ولقد سنحت لي الفرصة لأري بعض ومضات تلك الشجاعة في جنوب شرق آسيا، وفي أمريكا الوسطي، وفي الضفة الغربية الفلسطينية المحتلة، لقد كانت بالنسبة لي تجربة مؤثرة وملهمة إلي حد كبير.

ومن يعتقد أن تلك مجرد كلمات، فإنه لا يفهم إلا أقل القليل عن العالم. وهذا هو مجرد جزء من المهمة التي ينبغي أن نضطلع بها، فهناك أنظمة غير مشروعة في كل أنحاء عوالمنا الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية. وتقابلنا لأول مرة في تاريخ البشرية مشكلة حماية بيئة يمكن أن تحتضن وجودا إنسانيا حقا، ولا أدري إن كان ذلك الجهد الأمين المخلص كافيا لحل، أو لتخفيف تلك المشكلات، ولكني علي يقين بأن الامتناع عن بذل ذلك الجهد سيطلق السراح لمأساة أو كارثة فادحة.

ولابد، بطبيعة الحال، للتأثير في قطيع الدهماء المشغول والمذهول الذي يشكل ثمانين ٨٠% في المائة من المواطنين، لابد من المساهمة في إيقاظهم وجذب اهتمامهم بعيدا عما تريده النخبة المسيطرة. وهنا يكون للإعلام المستقل دوره البارز. ومادام مستقلا، فبحكم التعريف ينقصه التمويل، ولكن شأنه هو شأن المنظمات الأهلية، تجميع وحشد للمواطنين من ذوي الإمكانيات المحدودة الذين تتضاعف إمكانياتهم وفاعلياتهم بمقتضي ذلك التجمع والتضامن. وعبر هذا الإعلام المستقل يمكن للمواطن أن يكون مشاركا في اتخاذ القرار بدلا من كونه مشاهدا يحشو رأسه، ويكسو بدنه بما يريده له العم سام.

الفصل الثامن

توماس فريدمان والداروينية الجديدة

أو

السيارة ليكزاس تجتاح شجرة الزيتون

ينبغـــي لي أن أعترف بأن نوعا من الارتياح قد غمرني بعد الفراغ من الاطـــلاع علـــي كتاب توماس فريدمان: "السيارة ليكزاس وشجرة الزيتون، محاولـــة لفهـــم العولمة" فلم أكن أحسب أن مؤلفا لكتاب تربو صفحاته علي خمســـمائة وثمانيـــن، وتخصـــص في إلقاء المحاضرات وعقد الندوات عن العولمة التي اشتهر بين معارفه وأقرانه بأنه عاشقها، لم أكن أحسب أنه مثل الكثير عندنا، يتناول القضايا والمفاهيم الحاسمة بالحفنة أو الكبشة غير مفرق أو ممـــيز بيـــن دقائقهـــا وعناصرها. ويبدو أن هذه الطريقة المشتركة في التـــناول بيـــن الكثـــير مـــنا وبينه، هي السمة العولمية الوحيدة التي تتحدي رافضي العولمة المتشبثين بالخصوصية والهوية، فكلنا شرقا وغربا سواء!

فالمفترض أن تكون كلمة عولمة مصطلحا، أي ما تصالحنا واتفقنا علي دلالـــته. غـــير أنها للأسف ماتزال لفظا أو اسما يستخدمه عابر السبيل كما يحلو له، ولا يختلف في ذلك كاتب المقال أو مؤلف الكتاب، أو الصحفي، أو رجـــل الشـــارع، أو المـــثقف العادي، أو حتي مؤلفو الدراما والمسلسلات التلفزيونية.

ويحملونهـــا الدلالـــة التـــي لا تكلفهم مشقة البحث والتمييز، وهي أيسر الاســـتعمالات حيـــث تصبح وصفا أكثر مسايرة للموضة للأمركة، أو اسما حركـــيا جديـــدا للـــنظام العالمـــي، أو عـــنوانا حديثا لليبرالية المتطرفة أو المتوحشة، وكأنها اسم تدليل للعالمية أو التدويل بالمعنى التقليدى الشائع.

والكتاب الذي نعرض له ليس في الحقيقة كتابا عن العولمة، بل هو عما اسماه جورج بوش النظام العالمي الجديد، وسنكشف معا، بعد عرض أفكاره الرئيسية، الفارق الهائل بينهما.

وللمؤلــف توم فريدمان عذره في هذا لأن مرصده الذي اختاره لتحليل حكايــته وتفسيرها، وكذلك موقفه الشخصي مما يدور من أحداث في العالم الــيوم، يدفعانـــه إلـــي هذا الخلط. وقد أفلح في صنع خلطة تثير الإعجاب، وتبعــث علي المتعة بما يرويه من حكايات شائقة، ومقابلات صحفية تشبع شـــهية القارئ النهم للاستطلاع. بل أحيانا كثيرة يبتكر حوارات خيالية بديلة بين أبطاله من الرؤساء والمسئولين في كافة أنحاء العالم، ويري أنها تكشف عن النوايا الحقيقية بأكثر مما يعلن في البيانات الرسمية. فهو صحفي يحرر عمودا في النيويورك تايمز منذ عام١٩٩٤ "للشئون الخارجية" وكان مراسلا أجنبــيا فـــي بيروت والقدس لعشر سنوات حتي١٩٨٨ ومراسلا دبلوماسيا، ومـــندوبا في البيت الأبيض، كما عمل من قبل محررا في القسم الاقتصادي والـــبزنس في الصحيفة نفسها، ومندوبا في وزارتي الخزانة والتجارة، كما حصـــل علـــي درجتـــي الـــبكالوريوس والماجستير في الدراسات العربية، والشرق أوسطية.

ولا يعـــتمد الكـــتاب علي مصادر، أو مراجع، أو بحوث متأنية عميقة بقـــدر مـــا يعتمد علي ربط معلوماته وتفاصيله بتشبيهات ونوادر وتعليقات يبتدرها أو يلتقطها، وهو الأغلب والأعم، من علي ألسنة من يقابلهم، أو من كـــم وفـــير من الحوارات التي يقتبسها من بعض الروايات أو المسرحيات الشـــهيرة. فهو تلميذ نجيب في مدرسة الصحافة التي يعنيها الخبر الطريف مثل نبأ "الرجل الذي عض كلبا" والكتاب غزير المادة في مثل هذه الأخبار! بـــل إن مـــا يضـــفي علي أسلوبه الجاذبية والطرافة هو بعض أوجه الشبه بمقـــالات أحد كتابنا الساخرين، وخاصة عندما يذكر دائما خالته بيف مثلما يحتفي هذا الكاتب الكبير بخالته بهانة!

والمؤلـــف يهودي يشيد بالفضل الذي يدين به لمعلم الدين الحاخام تزفي مـــاركس الـــذي ألهمه بأول مسيرة الكتاب، وخاتمة طوافه معا، في قصتي هابـــيل وقابـــيل أولا، ثم برج بابل أخيرا بوصفهما تفسيرا عميقا، وموجزا لتاريخ العالم ومستقبله!

وتقـوم معظـم أدلـته علي ما يسميه بـنظام العولمة من واقع خبرته الشخصـية فـي اسـتثماراته الصغيرة التي لم يكن يجريها لولا استخدامه للإنترنـت في متابعة أسعار الأسهم. فالإنترنت لديه المحرك التوربيني الذي يقـود العولمة إلي الأمام. فبالإنترنت نضمن أن تكون طريقتنا في الاتصال، وطريقتـنا فـي اسـتثمار أموالنا، وطريقتنا في النظر إلي العالم، خاضعة للعولمـة علي الدوام.(ص١٩٩) فالعولمة عن طريق الإنترنت هي معرفة هوية المنافسين، وهوية الزبائن كما يقول.

١ – ماكدونالدز تمنع الحروب!

وربمـا بدا حديثي متحاملا، وهذا حق، ولكنني أشهد بأنني أقبلت علي الكـتاب بنـية طيبة يحدوها شغف بطلب المزيد من المعرفة، إلا أن شعورا آخر بدأ في التسلل إلي نفسي بعد طول رفقتي أو عشرتي للكتاب.

وسـأقدم عينة ممثلة لأكثر مما جاء فيه، وهي عن نظرية كما يسميها، واتـته – كما يقول – كأن الأمر أشبه بضربة صاعقة من السماء، انطلقت مـن مكان ما بين ماكدونالدز في ميدان تيانامين في بكين، وماكدونالدز في ميدان التحرير بالقاهرة، وماكدونالدز بالقرب من ميدان صهيون في القدس، وتلك هي الفكرة أو النظرية:

لـم يحدث أن خاضت دولتان بهما مطاعم ماكدونالدز حربا فيما بينهما مـنذ أن افتـتح ماكدونالدز في كل منهما.. انني لا أمزح إنه شيء غريب فعـلا.. انظـر إلـي الشرق الأوسط: في إسرائيل الآن محلات ماكدونالدز كوشير، وفي السعودية محلات ماكدونالدز التي تغلق خمس مرات في اليوم للصـلاة، ومصـر بها محلات ماكدونالدز كما أصبحت لبنان والأردن من الـدول التـي توجد بها محلات ماكدونالدز. لم تحدث في أي من هذه الدول حـرب منذ دخول الأقواس الذهبية(علامة ماكدونالدز) إليها(يبدو أنه نسي جـنوب لبـنان، أو أنـه يعتبره جزءا من إسرائيل). أين يوجد اليوم التهديد الكبـير بالحـرب في الشرق الأوسط؟ إسرائيل وسوريا، إسرائيل وإيران، إسـرائيل والعـراق. ما الدول الثلاث التي لا يوجد بها ماكدونالدز؟ سوريا وإيـران والعراق.. ماذا عن الهند وباكستان؟.. يوجد في الهند أول مطاعم لماكدونـالدز بـدون لحـوم، أما باكستان فهي منطقة خالية حتي الآن من الماكدونالدز، وهو أمر خطير (ص٣١٤).

وككـل باحـث أمين ذهب فريدمان إلي مقر الشركة في ولاية إلينوي وعـرض نظريـته علـيهم وأثبت جميع خبراء ماكدونالدز الدوليين أنهم لم يعثروا علي استثناء واحد لهذه النظرية.

وتـنص نظريـته علـي أنـه إذا وصلت دولة ما إلي مستوي التنمية الاقتصادية الذي يؤدي إلي وجود طبقة وسطي تكفي لنجاح شبكة من محال ماكدونـالدز بهـا فإنهـا تصبح إحدي دول ماكدونالدز، فالشعوب في دول ماكدونـالدز لـم تعد تحب خوض الحروب، بل تفضل الانتظار في طوابير البيرجر!(٣١٥).

والغريب الذي يثير الدهشة أو الانزعاج في طريقة عرضه واستنتاجاته أن يحـاول تأميـن أو تأيـيد نظريته بتنبؤات ثبت إخفاقها في التاريخ كتنبؤ مونتسكيو في القرن الثامن عشر، وتنبؤ بول آنجل البريطاني عام١٩١٠ عن توقف الحروب.

فقـد كتـب الفيلسـوف الفرنسـي مونتسكيو أن التجارة الدولية أنشأت جمهوريـة كبري دولية، توحد بين جميع التجار والأمم التي تتبادل التجارة عبر الحدود، وهو ما يؤدي دون شك إلي عالم ينعم بالسلام.

ويقول فريدمان أن مونتسكيو يدافع عن نظرية "البيج ماك" الخاصة في قوله:

"مـن حسـن حظ الإنسانية إنها في وضع يجعلها رغم ما تمليه عليها عاطفـتها بـأن تكون شريرة، فإن مصلحتها تملي عليها، مع ذلك، أن تكون رحيمة وفاضلة".

ويذكـر فـريدمان بجـرأة خارقة أن بول آنجل قد توصل إلي النظرية الصـحيحة نفسـها فـي قوله بأن القوي الصناعية الغربية الكبري، أمريكا وبريطانـيا وألمانيا وفرنسا، قد فقدت شهيتها في اشتعال الحروب، وأنه في ظـل وجـود كـل تلك التجارة الحرة والاتصالات التجارية التي تربط بين القـوي الأوربـية الكبري في ذلك الوقت، يكون خوضها الحرب ضربا من الجـنون. ولا أدري كيف يستقيم ذلك التنبؤ مع نشوب حربين عالميتين بين تلـك القـوي الكبري، ورغم ذلك يصر فريدمان علي القول بأن مونتسكيو وآنجـل كانـا علـي صواب بالفعل. ويؤكد إصراره، بعد أن يسقط وقائع الـتاريخ الفعلي، بأن ذلك التكامل الاقتصادي يجعل الحرب أكثر تكلفة علي المنتصـر والمغلـوب علي السواء، وأن الدولة التي تختار أن تتجاهل هذه

الحقيقة مقضي عليها دون شك. ولكن هل يجسر التاريخ علي أن يقف عقبة أمام نظرية ماكدونالدز !!.

بيد أن فريدمان يباغتنا بتناقض صارخ بعد ٢٥٠ صفحة من الكتاب، بقوله إن مطاعم ماكدونالدز لن تنجح بدون ماكدونيل دوجلاس مصمم طائرة السلاح الجوي الأمريكي ف-١٥! فالعولمة، أو الأمركة في تصوره " هي السلام، وهي الحرب معا، وليحفظ الله أمريكا!" وهي عبارة يرددها في كتابه بعد كل حكاية رومانسية عن تعايش الأجناس والشركات في الولايات المتحدة.

٢- السيارة والشجرة

ولنعد ثانية إلي السيارة ليكساس أو(لكزاس) وشجرة الزيتون اللتين أراد بهما أن يكونا عنوانا مثيرا لكتابه الصحفي.

يملك المؤلف سيارة ليكساس، وقد قفزت الفكرة إلي رأسه عند جولته في مصنعها خارج مدينة تويوتا التي تنتمي إليها السيارة ولكنها سيارة باهظة الترف. فالمصنع ينتج يوميا ٣٠٠ سيارة، ويقوم بصنعها ٦٦ عاملا فقط، و ٣١٠ إنسان آلي(روبوت)، وتقتصر مهمة العمال علي مراقبة الجودة، بينما ينجز الإنسان الآلي سائر العمل، بل إن سيارات النقل بالمصنع آلية دون سائقين، وقد شاهد صاحبنا ذلك منبهرا، وما لبث أن استقل القطار الطلقة للعودة إلي طوكيو بسرعة تقرب من ٣٠٠ كيلومتر في الساعة، وأثناء وجوده بالقطار جذبت اهتمامه قصة إخبارية في الصحيفة تتعلق بالتقرير اليومي لوزارة الخارجية الأمريكية. وتضمن تفسيرا مثيرا للجدل حول قرار الأمم المتحدة لعام ١٩٩٨ لحق اللاجئين الفلسطينيين في العودة إلي إسرائيل (لم يقل وطنهم أو أرضهم التي نزحوا منها). وهنا أحس فريدمان بالمفارقة الهائلة: فاليابانيون يصنعون(في الأصل يبنون ولعل لها دلالة مقصودة) أعظم سيارة رفاهية في العالم بالإنسان الآلي (لو كان الحديث في التليفزيون وعندنا لاختفي الصوت من الشفاه المتحركة خشية أن يكون الكلام إعلانا للسيارة المفضلة لدي مؤلفنا!)، بينما ما زال الناس الذين عشت بينهم لسنوات عدة في بيروت والقدس يقتتلون حول ملكية شجرة الزيتون هذه أو تلك.

وتبيـــن لـــي حينئذ أن السيارة ليكساس وشجرة الزيتون رمزان جيدان لحقــبة ما بعد الحرب الباردة. فنصف العالم خرج من الحرب الباردة عازما فيما يبدو علي بناء سيارة ليكساس أفضل، وكرس نفسه لتحديث اقتصادياته، وتبسيطها، وخصخصتها ليتسني له الازدهار في نظام العولمة، علي حين ما يزال النصف الآخر من االعالم، بل نصف بلد واحد أحيانا، أو نصف شخص واحد أحيانا أخري، ما يزال قعيد الصراع علي من يملك شجرة الزيتون هذه أو تلك (ص٥٨-٦٠).

ويكـــرر مؤلفنا أن الصراع بين قابيل وهابيل في سفر التكوين، بعد أن شـــرحه له الحاخـــام ماركس، هو الذي تجسد في نظام العولمة السائد اليوم (وكأنـــنا كـــنا فـــي حاجة إلي انتظار تلك القرون الطويلة لنفهم قصة قابيل وهابـــيل فـــي هذه الحقبة الراهنة) وتلك هي دراما السيارة ليكساس وشجرة الزيتون: في نظام الحرب الباردة، كان التهديد الأكثر احتمالا الذي تتعرض له شجرة زيتونك يأتي من شجرة زيتون أخري، ويأتي التهديد من خشية أن يخـــرج علـــيك جـــارك، ثم يقتلع في عنف شجرة زيتونك، ويغرس شجرته مكانهـــا، ولم يقض علي هذا التهديد اليوم، ولكنه، في الوقت الراهن تناقص فـــي كثـــير مـــن مـــناطق العالم، أما التهديد الأكبر الذي تتعرض له شجرة زيـــتونك الـــيوم فقـــد يأتي علي الأرجح من السيارة ليكساس، أي من قوي مجهولـــة للســـوق والتكنولوجيات تتخطي حدود الدول، وتعمد إلي التجانس وتوحـــيد القـــياس وهي التي صنعت النظام الاقتصادي العالمي اليوم. وثمة أشـــياء في هذا النظام من شأنها أن تكسب السيارة ليكساس قوة فائقة تتمكن بمقتضاها من اجتياح كل شجرة زيتون تقع في طريقها وسحقها (ص٦٤).

وهـــنا يدفعـــنا الفضول لنسأل: ولكن، ما مصير هذا الصراع في رأي المؤلف؟ وأين يقف منه؟

يجيب المؤلف في حماس متدفق قرب نهاية الكتاب أن إيجاد توازن بين ســـيارة ليكساس وشجرة الزيتون هو ما يجب أن يسعي إليه كل مجتمع في كـــل يـــوم، وذلـــك هـــو ما يميز أمريكا في أفضل صورها. فأمريكا تأخذ احتـــياجات الأســـواق والأفـــراد والمجتمعات جميعا مأخذ الجد تماما، ولهذا فليســـت أمريكا مجرد بلد، إنها قيمة روحية، ونموذج للمسئولية، إنها أمة لا تخـــاف مـــن الوصـــول إلي القمر. ولكنها مع ذلك تظل تحب أن تعود إلي المـــنزل لكـــي يجـــتمع شـــمل الأســـرة، إنها الأمة التي اخترعت الفضاء

المعلومـاتـــي Cyberspace، وحفــلات الشــواء الباربكـــيو، في الفناء الخلفي، وأيضا الإنترنت، وشبكة التأمين الاجتماعي، وهيئة الأوراق المالية والبورصة، واتحاد الحريات المدنية الأمريكية!. إن هذه المتناقضات هي ما تحـــتفظ بـــه أمريكا في قلبها، ويجب التوقف عن اتخاذ قرار تصالح إحداها علـــي الأخري.. إن المجتمع العالمي المزدهر هو المجتمع الذي يستطيع أن يحـــدث التوازن بين السيارة ليكساس وشجرة الزيتون علي الدوام، ولا يوجد نموذج أفضل من أمريكا، ولهذا السبب فإنني أؤمن بشدة بأنه يجب أن تكون أمـــريكا، فـــي أفضـــل حالاتها، اليوم وغدا، وفي كل وقت، حتى يكون في مقدور العولمة أن تستمر، إنها يمكن أن تكون، وينبغي أيضا أن تكون منارة للعـــالم أجمـــع، فلـــنعمل علي ألا نبدد هذا الإرث. وكانت هذه آخر سطور الكتاب.

٣- قميص الأكتاف والقطيع الإلكتروني

إن شـــجرة الزيـــتون التـــي تعنـــي مؤلفنا هي أشجار زيتون الولايات المتحدة، أما الأمم أو الدول الأخري، فعليها أن تتصرف عن شجرة الزيتون لتنضـــم إلي ما يسميه بـــالقطيع الإلكتروني الذي لا يسمح بعضويته إلا لمن يـــرتدي الســـترة الضـــيقة الذهبـــية أو قمـــيص الأكـــتاف الذهبـــي goldenstraitjacket وهـــي الســـوق الحـــرة لأنهـــا الـــبديل الأيديولوجـــي الوحـــيد، فليس هناك سوي طريق واحد، وسرعات مختلفة، والاعـــتراف بقواعد السوق الحرة والالتزام بها هو ذلك القميص أو السترة التـــي تعـــرف بهـــا حقبة العولمة سياسيا واقتصاديا، وليس لدي العولمة إلا قميص القيد الذهبي هذا.

ولقـــد بـــدأت مارجريت تاتشر في إنجلترا تفصيل وحياكة ذلك القميص وروجـــت له مـــنذ عـــام١٩٧٩، وســـرعان ما أيده ريجان في أمريكا في الثمانيـــنات حيـــث أتـــاح لهذا القيد ولقواعد استخدامه حجما حقيقيا حاسما. وأصبح كما يقول صاحبنا، موضة عالمية بنهاية الحرب الباردة، ولقد حدثت الـــثورتان التاتشـــرية والريجانية، لاقتناع الأغلبية الشعبية في البلدين بفساد الأساليب القديمة التي تتولي فيها الحكومات توجيه الاقتصاد.

ومـــن هـــنا عمد كل منهما إلي اقتطاع أجزاء ضخمة من سلطة اتخاذ القـــرار الاقتصادي من الدولة، ومن المدافعين عن سياسة المجتمع العظيم،

ومـــن الاقتصاديات الكينزية (التى أنقذت أمريكا من الكساد العظيم فى عهد روزفلــت)، وتسليمها إلي السوق الحرة، وعندما ترتدي بلادك - هكذا يقول فـــريدمان - ذلك القميص الذهبي، فسرعان ما تتقلص الاختيارات السياسية أمامـــنا إلـــي الاختـــيار ما بين البيبسي، أو الكوكا، أي الفروق الضئيلة في المـــذاق، أو الفـــروق القليلة في السياسات، أو التعديلات الطفيفة في تصميم القميص لمراعاة التقاليد المحلية.

وفي عالم أصبح فيه رأس المال متجولا علي مستوي العالم لا تستطيع أن تقـــرر معـــدلات ضريبية تختلف كثيرا عن المعدلات السائدة في الدول الأخري. وعندما تكون العمالة متنقلة لن تستطيع أيضا أن تنحرف عن الخط الذي تسير عليه أجور الآخرين، فلقد حد ذلك من القدرة علي المناورة.

ويروي لنا فريدمان حكاية علي لسان وزير مالية الهند عام١٩٩١: "لي صـــديق من دولة مجاورة أصبح أيضا وزيرا لماليتها. اتصلت به يوم توليه منصـــبه لأهنـــئه، رد قائلا: لا تهنئني، فإنني مجرد نصف وزير، والنصف الثاني موجود في واشنطن" (ص١٥٥) (والحكاية غنية عن التعليق).

وبذلـــك القميص يمكن الحصول علي عضوية القطيع الإلكتروني الذي يتكون من كل المتعاملين في تجارة الأسهم والسندات والعملة الجالسين أمام شاشـــات الكومبـــيوتر في أنحاء العالم، ينتقلون بأموالهم هنا وهناك بمجرد الضـــغط علـــي الفأرة أو (الماوس)، من الصناديق المشتركة إلي صناديق المعاشات، إلي صناديق الأسواق الناهضة (مثل جنوب شرق آسيا) أو الذين يجـــرون معاملتهم التجارية عبر الإنترنت من بدرومات منازلهم. كما يتكون ذلك القطيع من الشركات متعددة الجنسيات الكبري التي تنشر مصانعها الآن فـــي أنحاء العالم، وتنقلها علي نحو متواصل إلي الدول المنتجة الأكثر كفاءة والأقل تكلفة، ولقد ازداد حجم هذا القطيع وبدأ يحل محل الحكومات بوصفه المصـــدر الأول لـــرأس المـــال اللازم لنمو الدول والشركات علي السواء. وأصـــبح علـــي أيـــة دولة تسعي إلي تحقيق الازدهار في نظام العولمة أن تـــرتدي قميص القيد الذهبي، وتلتحم مع القطيع الإلكتروني. وتحصل الدول التـــي تـــرتدي ذلك القميص طوال الوقت دون أن تخلعه لحظة واحدة، علي مكافئتها من هذا القطيع بتوفير رأس المال اللازم لنموها، أما الدول التي لا تتحلـــي بـــه، فـــإن القطيع يعاقبها باجتنابها، أو سحب أمواله منها.. ويري فـــريدمان أن الانضـــمام إلي الاقتصاد العالمي والالتحام بالقطيع الإلكتروني

يعـــادل تمامـــا طـــرح الدولة للاكتتاب العام، فهو يماثل تحويلها إلي شركة عامـــة، مع اختلاف واحد هو أن حملة الأسهم لم يعودوا مواطني هذه الدولة وحدهم، بل يضاف إليهم أعضاء القطيع الإلكتروني، أينما وجدوا ولن يدلوا بأصـــواتهم مرة واحدة كل أربع سنوات أو أكثر بل إنهم سيدلون بأصواتهم كل ساعة، وكل يوم من خلال الإنترنت، مهما يكن المكان الذي يقيمون به.

ويعـــترف المؤلف بأن ثمة من قابلهم يعترض علي هذا القميص وذلك القطـــيع قائلا له: لا تحاول إقناعنا بأنه يتوجب علينا أن نرتدي قميص القيد، وأن نـــندمج فـــي أسواق عالمية، فلدينا ثقافتنا وقيمنا الخاصة بنا، نقوم بذلك بطريقتـــنا الخاصـــة وبالسرعة التي نريدها. ونظريتك فيها حتمية أكثر مما يجـــب. لمـــاذا لا نجـــتمع معا ونتفق علي نموذج مختلف أقل تقييدا لحرية الحركة؟

ويعلـــن فـــريدمان جوابه علي هذا التساؤل قائلا: "أنا لا أقول أنه يتحتم علـــيك ارتداء ذلك القميص، وإذا كانت ثقافتك وتقاليدك الاجتماعية تتعارض مـــع القيم الكامنة في ذلك القميص، فإنني أشعر بالتعاطف مع ذلك، ولكن ما أقـــولـــه هو: لقد كان نظام السوق العالمية والعالم السريع والقميص الذهبي نتيجة لقوي تاريخية كبري استطاعت بالفعل تغيير طريقة اتصالنا، وطريقة اســـتثمارنا لأموالـــنا، وطريقة رؤيتنا للعالم بصورة جذرية، فإذا كنت تريد مقاومـــة هـــذه التغييرات، فهذا شأنك أنت ولابد أن يكون شأنك، ولكنك إذا اعـــتقدت أن بوسعك مقاومة تلك التحولات دون أن تدفع ثمنا غاليا، أو دون سور أو جدار يواصل ارتفاعه باستمرار، فإنك بذلك تغالط نفسك".

٤ – العولمة، وإسرائيل، والحمير

يـــري فـــريدمان أن العولمة هي النظام الذي حل محل الحرب الباردة، فهـــي إذن نظـــام دولي مثل كل النظم السابقة، ولكن له سماته الفريدة، أولها كمـــا يقـــول التكامل الصارم في الأسواق، وفي الدول، وفي التكنولوجيات، علـــي الوجـــه الذي يمكن فيه للأفراد في الشركات والدول الانتقال والتجول علـــي امـــتداد العـــالم لبلوغ مسافات أبعد، وأسرع، وأرخص من كل وقت مضي. وفكرتها الدافعة هي الرأسمالية التي تحكمها قوة السوق الحرة القائمة علـــي انفـــتاح اقتصـــاد كل دولة علي الخارج، وإلغاء القوانين المنظمة له،

وخصخصته، ومثلها الأعلي هو ما حققته الثورتان التاتشرية والريجانية في بريطانيا وأمريكا.

كمـــا أن لهـــا تكنولوجياتها الخاصة ورمزها شبكة الإنترنت التي توحد بين الجميع.

وإذا كانـــت الوثـــيقة التي تحدد نظام الحرب الباردة هي المعاهدة، فإن الصفقة هي وثيقة نظام العولمة. ولن يكون سؤالنا الرئيسي متعلقا بالأسواق التـــي ينبغـــي أن نصدر إليها بعد أن نفرغ من تحديد السلع التي ننتجها، بل عليـــنا أن نـــدرس الإطار العالمي الذي نعمل من خلاله أولا ليكون سؤالنا، بعدئذ، هو ماذا علينا أن ننتج؟.

وقـــد يتساءل القارئ عن هذا الإطار العالمي، ولكن سرعان ما تصدمه الإجابة بأنه الولايات المتحدة الأمريكية، لأنها القوة المسيطرة الوحيدة، وكل الأمـــم الأخـــري، كمـــا يقرر فريدمان، تابعة لها بدرجة أو بأخري، وهي اللاعب الرئيسي في المحافظة علي رقعة شطرنج العولمة (ص٣٧) .

وكما تطلب العولمة القادرة علي الاستمرار هيكلا أو بنية مستقرة للقوة، فـــلا توجد دولة أكثر أهمية لذلك من الولايات المتحدة، فكل عمليات التكامل الـــتجاري والمالي المتواصلة، والثروة المتولدة عن ذلك، والإنترنت وغيره مـــن التكنولوجـــيات التي تصممها وتصنعها أمريكا فإن كل ذلك يحدث في عالم تعمل علي استقراره قوة غير مؤذية، عاصمتها واشنطن(!).

وإذا كـــان الســـبب فـــي عدم اندلاع حرب بين دولتين تنعمان بمطاعم ماكدونالدز، راجعا إلي التكامل الاقتصادي، فإنه يعود أيضا إلي وجود القوة الأمريكـــية، واســـتعداد أمريكا لاستخدامها ضد أولئك الذين قد يهددون نظام العولمة، فلن تنجح اليد الخفية للسوق، دون وجود القبضة الخفية(أعتقد أنها لم تعد خافية).

ويقول فريدمان بصراحة فظة:

"تســـمي القبضة الخفية التي تحفظ للعالم الأمن الذي يتيح لتكنولوجيات وادي الســـيليكون (الأمريكـــية) الازدهـــار، تسمي جيش الولايات المتحدة وســـلاحها الجـــوي، وبحريتها، ومشاة أسطولها ويمول هذه القوات المقاتلة ومؤسســـاتها دافـــع الضرائب الأمريكي، ولو كانت القوة التي تعزز أفكارنا وتكنولوجيتـــنا أقـــل شدة، لما استحوذت علي السيطرة العالمية التي نملكها اليوم".

غـير أن مؤلفنا ما يلبث أن يشعر بالإشفاق علي أمريكا لتكبدها عبء العمـل علي استمرار العولمة أكثر من غيرها من الدول، لأن ركابا كثيرين يسـتقلون قطار العولمة مجانا، مثل الفرنسيين، فهم يركبون فوق أكتافنا في الوقـت نفسـه الـذي يوجهـون لنا الانتقادات طوال الطريق. إلا أن كاتبنا سـرعان ما يهدأ غضبه من الفرنسيين وغيرهم ممن يستغلون طيبة أمريكا وكرمها، فيقول لا بأس، فهذا جزء من المهمة أو الرسالة الأمريكية، لأنها لا ينبغي لها أن تتدخل في كل مكان طوال الوقت، فهناك مناطق مهمة وأخري غـير مهمة وعلي أمريكا أن تعرف كيف تحشد الآخرين للعمل في الأماكن التي لا نستطيع أو لا يجب أن نذهب إليها بمفردنا (لاحظ النصاحة) ولهذا، فـإن السـبب الحقيقـي خلف حاجتنا إلي دعم الأمم المتحدة وصندوق النقد الدولـي، والبـنك الدولـي، وبنوك التنمية المختلفة في العالم هو أن تتمكن أمـريكا مـن دفـع مصـالحها إلي الأمام دون أن تضع الأرواح والأموال الأمريكـية في أخطار تحدق بها علي الدوام (ص٥٧٧) (صراحة نحسده عليها، كما نحمدها له حتي نكون علي بينة من أمرنا).

وحتـي لا يدفعـنا الأمل الكاذب في أن نفيء إلي ظل شجرة الزيتون لأهمـية الهوية والانتماءات الثقافية، يعاجلنا فريدمان بالضربة القاضية قائلا بـأن الثقافة الغالبة الخاصة بنظام العولمة، علي نقيض نظام الحرب الباردة، لابـد أن تفضى إلي التجانس الذي يعني انتشار الأمركة بدءا من البيج ماك والأيماك، وانتهاء بميكي ماوس علي امتداد العالم بأسره (ص٣١) .

ولعـل سؤالا مشروعا يلح علينا، وهو كيف يري مؤلفنا الليبرالي الذي عـاش بينـنا أكـثر من عشر سنوات، وتخصص في دراسة شئون الشرق الأوسـط، وألهمـه الصراع العربي- الإسرائيلي بشجرة الزيتون التي تحتل عنوان الكتاب، كيف يرى موقف إسرائيل؟

لـم يبخل علينا فريدمان بالإجابة التي جاءت شديدة الاتساق مع مفهومه لمـا يسـميه نظام العولمة، فقد سأل محافظ البنك المركزي الإسرائيلي في خـريف١٩٩٧، وكانـت عملية السلام في حالة ركود، كيف يتأتي أن تكون عملية السلام في هبوط والاستثمار الأجنبي في صعود؟ وجاءت الإجابة من خلال الحوار بحيث توصل فريدمان إلي أن إسرائيل تتحول الآن سريعا عن سياسـتها الاقتصادية القديمة التي كانت تقوم علي تصدير البرتقال والماس والمنسـوجات، إلي اقتصاد التكنولوجيا المتقدمة التي جعلت من إسرائيل أقل

ضــعفا أمــام الضــغوط السياسية العربية، والمقاطعات والتذبذبات صعودا وهــبوطا في عملية السلام. ولذلك طورت، واخترعت، وأنتجت الكثير من أدوات التشــفير المتصــلة بالإنترنت والخاصة بتأمين المعلومات في معهد "تكنيون" و"معامل الجيش الإسرائيلي" ولا يمكن بطبيعة الحال الحصول على تلــك المنــتجات من أية دولة أخري. ونتيجة لذلك تأتي الدول إلي إسرائيل لتخطــب ودهــا مهما يكن من أمر عملية السلام، وكذلك فإن اليابان نفسها تتلهف علي منتجات شركات البرمجيات الإسرائيلية.

ويردد فريدمان بإعجاب ما قاله أحد الاقتصاديين الإسرائيليين: "إذا كان عــندك التكنولوجــيا التــي يريدها الناس، فليس هناك من يعبأ بما إذا كنت تضطهد الفلسطينيين أم لا.!" (ص٣٢٩).

فاســتثمار التكنولوجــيا المتقدمة في إسرائيل استثمار في البشر، وقوة العقــل(مــا شــاء الله!)، وليس استثمارا في المصانع التي يمكن لأعدائها تدمــيرها بسهولة. كذلك لا تصدر إسرائيل التكنولوجيا المتقدمة إلي جيرانها الذين تعاني التوتر في علاقتها بهم، بل إلي الأسواق البعيدة في آسيا وأوربا وأمريكا، فهي من ثم قوية إزاء التقلبات السياسية في المنطقة.

ويبشــرنا المؤلف الغيور علي إسرائيل بأنها ستغدو أقوي فأقوي، لأنها باقتصــادها الذي اختار الازدهار وأصبح قادرا علي تجميع المعرفة ورأس المــال والمــوارد من أنحاء العالم، لن تكون مقيدة أو مهددة بحجمها إذا ما قورنــت بالــبلاد العربــية التــي لا تملك ما تقدمه للعالم سوي اليد العاملة الرخيصة، أو البترول، وهو ما يجعلها رهينة قوة العمل وأسعار البترول.

ويواصل المؤلف تحيزه وثناءه علي إسرائيل قائلا: "لقد كان هناك علي مــر الــتاريخ قوتان نهريتان في الشرق الأوسط، مصر علي ضفاف النيل، والعــراق علي ضفاف دجلة والفرات، ولكن سيشهد القرن الواحد والعشرين قــوة نهرية ثالثة هي إسرائيل علي ضفاف نهر الأردن، لأنها ستكون قاطرة التكنولوجــيا المــتقدمة التــي ســتجذب معها الأردن والفلسطينيين (لم يقل فلســطين)... ويكــاد المؤلف يصفق إعجابا وهو يهتف: "إنها مجرد بداية" (ص٣٣١).

وعلي أية حال، فالمشاركة في الاقتصاد العالمي اليوم، كما يقول، أشبه بقــيادة سيارات السباق التي تزداد سرعتها يوما بعد يوم، وسوف نجد دائما بعــض المتسابقين وقد اصطدموا بالجدار وتحطمت سياراتهم، ولا سيما إذا

كـــانوا ممـــن يركبون الحمير حتي وقت قريب(ولا أدري إن كان فريدمان يقصد مواطنينا بوصفهم قادة الحمير، أم الحمير نفسها!).

٥- النظام العالمي والعولمة

ينبـــئ الكـــتاب بجـــلاء عن نوعية الجمهور الموجه لهم لقراءته، فهم الأمريكـــيون دون ريـــب، لأنه يتحدث طوال الكتاب بصيغة المتكلم الجمع، نحـــن، أي الأمريكييـــن. أما المخاطب الأمريكي الذي يعنيه فهو المستثمر، فالكـــتاب كلـــه يمكن أن يتخذ عنوانا أكثر إشارة إلي محتواه، إذا كان: دليل المســـتثمر الذكي للربح الوفير، وذلك باستخدام التكنولوجيا المتقدمة وخاصة الإنترنت، حيث يعلن أن رقائق الكومبيوتر هي الفارس الوحيد في الاقتصاد العالمي، والسياسة العالمية علي السواء.

وليس من قبيل المصادفة أن يستخدم مصطلحا من أسواق المال لوصف مـــنهجه في الكتاب كله،Arbitrage، أي استخلاص الربح من فوارق الأسعار في نفس الوقت ولكن في أماكن متعددة، أو الحصول علي الربح من فـــروق أسعار الصرف في البورصة، وهو ما يترجم عادة في الكتب المالية والاقتصاد بعبارة: (موازنة أسعار الصرف) وقد اختارت المترجمة البارعة مصـــطلح المراجحة. فكما يوضحه هو:البيع والشراء في آن واحد للأوراق المالـــية نفســـها، أو السلع، أو لصرف العملات الأجنبية في أسواق مختلفة للإفـــادة مـــن فـــروق الأسعار، واختلاف المعلومات. ولكي تكون ناجحا أو ماهرا في ذلك، فوسيلتك أن تكون لديك شبكة متسعة من المعلومات، وكذلك مـــن الذين يكشفون عن المعلومات، ثم تعرف كيف تركب وتؤلف بينها، مما يجلب لك الربح (ص٤٢) .

وأكـــبر الظـــن أن مـــا نجح المؤلف في تركيبه هو ما يسميه في نهاية الكتاب مذهب نزعة الدولية الأمريكيةInter-nationalism(ص ٥٧٨) الـــذي يـــرادف الـــنظام العالمي، وهو ما أسماه طوال الكتاب بنظام العولمة، ويري أن علي الإدارة الأمريكية، أيا كان الحزب القائم في السلطة أن تـــبدأ فـــي محاولـــة جمـــع أنصار العوامة الجدد معا بدءا من واضعي البرمجـــيات إلي العناصر النشطة كحقوق الإنسان، ومن مزارعي ولاية أيوا إلي الناشطين من أنصار البيئة، ومن المصدرين للسلع الصناعية، إلي عمال خطوط تجميع التكنولوجيا المتقدمة، وذلك لتشكيل ائتلاف جديد للقرن الواحد

والعشـــرين يؤازر مواصلة النزعة الدولية الأمريكية. ولن يتيسر ذلك إلا إذا امتنعــت أمـــريكا عـــن الانصــــراف عـــن رسالتها بوصفها الدولة الوحيدة المسيطرة، النافعة، والمحققة للاستقرار.

فإذا ما أسرفت أمريكا في الإعراض عن هذه المهمة، فسيتهدد استقرار الـــنظام بأســـره، ولـــن يستطيع نظام العولمة الصمود دون سياسة خارجية أمريكية فعالة وسخية (ص٥٧٩).

ويؤكـــد فريدمان أن العولمة في تصوره لا مكان فيها لطريق ثالث، أو دولـــة رفاهية مثلما كانت الدول الاسكندنافية، أو لحماية الضعفاء، أو الأمان الاجتماعـــي، فالقطـــيع الإلكتروني يركض غير عابئ بمداهمة كل ذلك في طريقه.

مـــا الجديد إذن في هذا الكتاب؟ أو ماذا يبقي منه إذا ما وضعنا حكاياته وأخـــباره جانـــبا؟! ستبقي فكرته الأساسية البسيطة جدا والقديمة جدا، وهي الـــنزعة الرأسمالية الليبرالية ذات الصبغة الداروينية الفاضحة، فالبقاء للفائز الـــذي يستولي علي كل شيء كما يقول، وبدلا من المفهوم التقليدي للإنسان الاقتصـــادي حل مفهوم المستثمر حيث يعلن دوما أن نظام العولمة لا يعنيه توزيـــع الدخـــل بـــل تولـــيده فقط. ويضاف إلي هذه النزعة القديمة، تفاؤله الصاخب بسيادتها بعد أن خلت الساحة لأمريكا من أعدائها الأيديولوجيين.

ولأن العولمـــة مصـــطلح جديد رشيق، فقد ألصقها بالفكرة القديمة، وقد اطمـــأن لنهاية الحرب الباردة، فالعولمة عنده ليست نسقا جديدا للعلاقات بين البشـــر، أو نموذجـــا مختلفا عما سبقه من نظم عالمية، بل هي مجرد وسيلة تكنولوجـــية، وهي مجموع الأدوات اللاسلكية، لا يختلف عن سائر الوسائل السابقة إلا في الدرجة.

وهـــو لا يمـــيز بيـــن العالمية والعولمة، كما يتجلي ذلك في حديثه عن الـــنزعة الدولـــية الأمريكـــية، أو التدويل، ولذلك أحكم الوثاق بين العولمة وأمـــريكا دون أدنـــي جهد في البحث والدراسة. ولهذا يسميها دائما (نظاما) جـــريا علـــي ما ألفناه من تعاقب النظم العالمية التي تسيطر فيها دولة علي دول أخـــري، ومن ثم يتوزع العالم إلي مركز وأطراف، وينقسم إلي هيمنة وتبعية. فالاقتصاد العالمي أو الدولي هو بين دول قومية، وكل ما أسهب في بيانه في كتابه هو نظام اقتصادي بين دول قومية Inter-national

وهو النظام الذي ما يزال مسيطرا، وتكون فيه الدول مجموعة من اللاعبين المتنافسين المتصارعين، والمتحالفين.

أمـــا العولمةGlobalization فى رأينا، فلها شأن آخر، وينبغي ألا نخلــط بيـــنها وبيـــن العالمية أو النظام العالمي الجديد الذي تعلقت جدته بانفراد أمريكا بالهيمنة.

كما لا ينبغي أيضا ألا ننحرف إلي الاعتقاد المتحمس بأن ما يوجد الآن هو العولمة، وقد استقرت معالمها، واكتملت عناصرها.

فالعولمـــة هي الوضع الذي تهيمن فيه القوانين الاقتصادية علي السلطة السياســـية دون أن تضمن سريانها دولة ما، ويختلف هذا تماما عن الأمركة لأن أمريكا نفسها في طريقها، ليس في القريب العاجل، إلي زوال مع ذبول كل سلطات الدولة علي امتداد العالم كله.

وتـــرجع العولمـــة، إن حدثـــت بتمامها، إلي سيطرة الشركات المتعدية الجنســـيات أو القومياتTrans-National وليس الشركات المتعددة الجنســـياتMultinational لأن الأخيرة لها مقارها ومراكزها في دولها، ومازالت ترتبط بقوانينها ومصالحها.

ولكـــن، إذا مـــا تكاثرت، وتعملقت الشركات المتعدية الجنسيات، فإنها تـــؤدي إلي اختراق العولمي لما هو قومي مما يسلم إلي تحولات فادحة في دور الشـــركات القومـــية أو مـــتعددة القوميات، فضلا عن مؤسسات الدولة الراهنة، وسيؤثر هذا بدوره علي سائر المجالات.

ولئـــن لـــم تســـتكمل العولمة الاقتصادية مؤسساتها بعد، فإن الأدوات العولمـــية التكنولوجية تواصل نفوذها وتأثيرها في الجوانب الثقافية رغم ما يـــبرز فـــي مواجهتها من نتوءات المقاومة التي تتمثل في جيوب النزاعات العرقية والدينية.

ومتـــي اســـتطاع الاقتصـــاد العولمي، بالمعني الذي أسلفناه، استكمال انتشاره وتغلغله بالشركات المتعدية القوميات، فإن الأدوات العولمية، المتاحة اليوم، تكون قد مهدت السبيل لحقبة العولمة الحقيقية علي كافة المستويات.

ولست علي يقين من تحقيق ذلك في المدي القريب، غير أنني علي ثقة أن كـــتاب فـــريدمان سيصبح كالنكتة القديمة، ويطرح من أرفف المكتبات، ليثوي علي أرصفة سور الأزبكية.

الفصل التاسع

مرشد القارئ إلي ما يسمي بالخطاب الثقافي*

لا ينبغـــي أن يتبرم البعض بعقد مؤتمر وزارة الثقافة الأخير، أو يسخط علـــي جدول أعماله، أو قائمة مدعويه التي وضعتها لجنته التحضيرية، بل هـــو مؤتمر يجدر بالحمد والتقدير لأنه كان أولا مساوقا ومتجانسا مع الأمر الواقـــع لدعـــاوي المثقفيـــن العـــرب والمصريين فيما يكتبونه ويذيعونه في الفضائيات.

وثانـــيا جـــري إعـــداده علـــي نحو طبيعي خلال شهرين، فلم يكن من المـــتوقع مـــن المثقفيـــن أن يغيروا من آرائهم المعروفة، ويعدلوا عنها إذا أمهلـــناهم متســـعا أكثر من الوقت، فالنتيجة واحدة سواء في شهرين أو في عام.

ولم يكن من المستطاع أن يستوعب المؤتمر كل من له الحق في إعلان موقفـــه، وكـــان لابـــد من اختيار البعض دون الآخر فيما يسمي بـــالقائمة القصـــيرةShortList لأن اللجنة التحضيرية مشكلة من بشر وليس من حاسبات إلكترونية تصنف المثقفين كما يصنع مكتب التنسيق للجامعات، وفقا لأعلي المجاميع.

ومن ثم فالدعوة لم تقم علي حكم تقدير أو تقليل لجدارة أعضاء الطائفة الواســـعة مـــن المثقفيـــن، وربمـــا لو استبدل ببعض أعضاء اللجنة غيرهم لتغيرات قائمة المدعوين.

---

* تأملات فى مؤتمر وزارة الثقافة الذى عقد بالمجلس الأعلى للثقافة فى يوليو ٢٠٠٣.

فالأمر كله طبيعي مقبول إذا اعتبرنا المشاركين عينة ممثلة لكل فصائل أصـــحاب الرأي. ولعل أمرا آخر مضافا يرفع الحرج عن منظمي المؤتمر، وهو أنه عقد في ظل وضع عالمي ومحلي طارئ لا يغيب عن فطنة القارئ ويتطلب حسابا وتقديرا خاصا.

إذن، فالمؤتمر مناسبة محمودة وضرورية لنري أنفسنا علي حقيقتها في مـــرآة صـــافية. والمرآة مستوية وسليمة من العيوب، إلا أن ذلك لا ينسحب علي ما تعكسه من صور من يقف أمامها لأنها تكشف عن نقائصه أو مآثره.

وقبل أن نتناول الصورة علينا أن نتفق أولا علي الالتزام بشرط منهجي غاب كثيرا عن خطاباتنا الثقافية.

وهـــذا الشـــرط هو ما نعلمه أبناءنا في الفلسفة والمنطق بأن نميز بين مضـــمون الـــرأي أو(الحكم) وبين نوايا صاحبه وهو ما يعني استبعادا لما يسمي بالحجة الشخصية. فينصرف الأول إلي موضوعية النتائج التي تترتب علـــي صـــحة المضـــمون، بيـــنما يقتصر الثاني علي الحكم الأخلاقي علي صاحب الرأي. وهذا هو ما لا يعنينا لأن النوايا الفردية أو الأغراض الذاتية لا تهـــم فـــي التحلـــيل الأخير، ولا تؤثر في مجري الحوادث والوقائع التي يـــتوجه إلـــيها الرأي. فهناك من المثقفين علي سبيل المثال من يؤدي دورا رائعا في الهجوم علي السلطة لرفع سعر بضاعته وتسويق نفسه عندما تفكر الدولـــة فـــي إيلائـــه منصبا أو حظوة أو دورا أو شهرة. بل إن بعض من يهـــاجمون الحكومـــة بشراســـة قـــد يتفق معها عمليا وتعاقديا علي امتداد صحافتهم أو وسائل الإعلام التي ينتشرون فيها، أو يقدمون المقابل للشيكات والجوائـــز والأسفار التي تغدقها عليهم دول أخري غير أوطانهم، إلا أنهم قد يكتبون أو يقولون كلاما يستحق المناقشة، وأحيانا التقدير.

وهناك بطبيعة الحال من لا يختار جمهوره الملتقي من هيئات السلطة، بـــل يعول فقط علي جماهير البسطاء من المتدينين لكي يحتل موقع النجم أو الزعـــيم الذي يسوقهم (ولا أقول يقودهم) بدغدغة عواطفهم، وإثارة حماسهم المشبوب.

فلـــيس المهم إذن نوايا أولئك أو هؤلاء، أو ما حققوه من مكاسب، وهي كثيرة جدا، بل المهم هو ماذا يقولون، وليس لماذا يقولون. فالمهم هو النتائج التـــي تعـــود علـــي الناس من مضمون الكلام فالنية أو الغرض أو السيرة الشخصـــية يجـــب ألا تشغلنا ونحن بصدد الشأن العام، الذي هو الساحة أو

الحلـــبة التي يعمل فيها المثقفون ويتنافسون. والتاريخ العام، كما نعلم، مفعم بمـــثل هـــذه الأمور، فربما استهدفت النية لدي البعض شيئا، إلا أن الحدث يتخطي هذه النية إلي واقع موضوعي يتجاوز أصحاب النوايا، وقد يعارضه أو يصادمه.

كيف نجدد الخطاب الثقافي؟

ولـــنقف عـــند تجديـــد الخطاب الثقافي للتأمل والمناقشة، ماذا عسي أن يكون الخطاب الثقافي، وماذا نفهم من تجديده.

يلوح لي أن ما قصد بالخطاب الثقافي عنوان أو تسمية موجزة لما يشيع مـــن ســـمات مشتركة، غالبة علي مجمل خطابات المثقفين. ولا يعني جملة الأنشـــطة الثقافية ومجالاتها. فالمقصود إذن هو المثقفون وليس الثقافة لأنها المجموع الكلي والرصيد الكامل لكل الصور المرهفة المنعكسة علي المرايا المصقولة لكل وسائل التعبير والإبداع، وهذا إذا اجتزأنا من دلالتها العامة ما يســـتوعب أنشـــطة وزارات التعليم والإعلام والثقافة. وبالتالي ننصرف عن دلالـــة الثقافة العامة التي تضم كل ما يفرق الفاعليات الإنسانية عن الطبيعة والحـــيوان. والمـــثقف ليس صفة تضاف إلي الفرد بقدر ما هو الدور الذى يقـــوم به. وهو دور لا يتحدد إلا في نطاق السياسة العامة للوطن من حيث اكتشـــافه للمشـــكلات الرئيسية لبلده، وتحديد لمعالمها وعناصرها، وأسلوب طرحها ووضعها، واقتراحه بحلولها، وذلك بعيدا عما يخص مصلحته الذاتية أو المهنـــية ويقترن ذلك بنقده للأوضاع الراهنة، وتقديمه للبدائل عبر حوار مع غيره من المثقفين، ومع هيئات السلطة التي تقوم بتنفيذ برامج معينة.

فهذا هو دوره الذي يفقده إذا ما تحول، في نظم تداول السلطة، إلي منفذ لـــبرامج الســـلطة الجديدة، لأنه حينئذ غير مطالب بالنقد والاقتراح كما كان مطلوبـــا منه عندما كان مثقفا. ولكنه يحتفظ بدوره دوما إذا ما نأي عن تقلد المناصـــب التي تهيمن عليها السلطة في أية مرحلة من مراحل تداولها، ولا يعيـــبه قط أن يتولي منصبا علي شريطة أن يخرج مؤقتا من زمرة المثقفين إلـــي هيـــئة المتنفذين، ثم ما يلبث أن يتخلي عن منصبه فيعود موفورا إلي جماعة المثقفين.

وقد يتبادر إلي الذهن سؤال يستنكر ما أقول: وهل يفقد المثقف ثقافته أو يخلعهـا عنه عندما يتبوأ منصبا؟ طبعا لن يفقد ذلك الشخص صفته كمستنير واسع الاطلاع، ولكنه يتخلي عن دوره بوصفه مثقفا.

ولمـزيد مـن الإيضـاح يلزمـنا أن نذكـر أن مصـطلح المـثقف intellectual مسـتحدث لدينا وليس أصلا في تاريخنا لأنه مرتبط بازدهار الرأسمالية في الغرب، وغلبة المشروعات الحرة، وانحسار وظائف الدولـة الليبرالـية التـي أدت إلي تداول السلطة وتعددية الأحزاب وفاعلية السلطة التشريعية البرلمانية، وأهمية أصوات الناخبين الفعلية. وقد أدي ذلك إلـي ظهـور فـئة المثقفين التي لا تكسب خبزها فقط من وظائف الدولة، وهـؤلاء هم الذين يكشفون للناخب أوجه القصور في برامج السلطة القائمة، ويقدمـون البدائل، وينيرون الطريق أمام المواطن ليحسن اختياره. فلهم دور مسـتقل معـترف بـه، وهذا ليس موجودا عندنا علي نحو كامل أو فاعل، فمعظـم المؤسسات التي تخرج ذوي الثقافة والاستنارة تابعة للدولة، بل هي أيضا جهة عملهم وكسب عيشهم.

كمـا أن معنى المصطلح الأجنبي اقترن في اللغة العربية عندما ترجم لأول مرة بالثقافة وهو ما أفضي إلي ذلك الالتباس، بينما في اللغات الأخري أوصـاف كثيرة لمن هو مستنير أو متحضر، أو واسع الاطلاع، أو ذو ثقافة عمـيقة بخـلاف مـا يقصدونه بـالمثقف كدور وليس صفة. ولا ريب أن المـثقف كـدور لابد أن يكون من بين أدواته الاطلاع الواسع العميق فهذا شرط ضروري، ولكنه ليس شرطا كافيا لتسميته مثقفا بالمعني المقصود في بلد المنشأ فى الغرب الرأسمالى.

غير أن هذا يحول دون أن يمارس من نطلق عليهم المثقفين عندنا دور المـثقف الحقيقـي دون أن يكون دورا كاملا وهو ما نتبين آثاره السيئة في كثـير مـن الشئون. فالمثقف لدينا يحاول جاهدا، في كثير من الأحيان، أن يقوم بدوره، غير أن طبيعة السلطة هي التي تعوقه عن أداء دوره علي نحو غـير مـنقوص. ولا أدل علـي ذلـك من أن الكثير من النواب المنتخبين موظفون يتبعون الوزراء الذين عليهم- نظريا- مراقبتهم واستجوابهم! وكان دسـتور ٢٣ يفـرض اسـتقالتهم قـبل ترشـيح أنفسهم. كما نجد أن معظم الصـحفيين والكـتاب معينون من الحكومة، كما أن أساتذة الجامعات يمكن نقلهـم إلي وظائف في المصالح الحكومية المختلفة عند هبوب أية بادرة من رياح المعارضة.

نعـــود ثانـــية إلـــي خطاب المثقفين الذي أطلق عليه المؤتمر "الخطاب الثقافي" فنتساءل هل يمكن تجميع أو حشد المثقفين حول خطاب واحد؟.

يفـــترض هـــذا المطلب، الذي لا شك في نبل مقصده، أن المثقفين فئة متجانســـة من الموظفين أو التكنوقراط المهيئين للتوجيه إلي تنفيذ برنامج أو خطـــة بعينها، وكأن هنالك جهة ما، هيئة ما، قوة ما، سياسة ما...إلخ تهيمن عليهم ويعترفون مقدما بأنهم خاضعون لها ولتوجهاتها واستراتيجيتها، ولعل صـــياغة التوصيات الختامية للمؤتمر تشي بذلك حيث توجهت معظمها إلي السلطات صاحبة الحق في النقض أو الإبرام.

وأغلـــب الظن أن هذا ينبئ بأننا قد درجنا وألفنا استخدام المصطلحات التي صكت في بلد المنشأ بمدلولات مختلفة، ليس بابتكار دلالات أو إضافات جديدة، بل باستخدام المصطلح الوافد بديلا عن مدلول متهالك قديم لمصطلح تراثـــي آخر نشأ ونشط في سياق تاريخي مغاير عما يجري الآن من سياق جديـــد لـــم يعـــد يطيق الانغلاق علي نفسه في حدود مكانية معينة، بعد أن اجتاحـــت العـــالم كلـــه متغيرات فاعلة متفاعلة بعضها مع البعض الآخر، ويستحيل الفرار منها والاعتصام بنجوة، أو فجوة، أو ربوة عالية.

نحـــن إذا في حاجة إلي العودة إلي البديهيات المنهجية لنعيد الصياغة، ونـــتفق علـــي الدلالة، ليس لأننا أقل ذكاء من الآخرين، بل لأننا نتعامل مع المفهومـــات والآراء والمصـــطلحات كمـــا نـــتعامل مع واجهة لمحل سلع اســـتهلاكية ننتقـــي منها ما نشاء لنصطنعه حسبما يلائمنا ونرتاح إليه، فلا يكلفنا تبعة أو عنتا.

فإذا كان وجود المثقف مشروطا بدوره في مجتمع تعددي يسمح بتداول الســـلطة والتأثير في المواطنين- الناخبين، أي يعمل في سياق مشجع لحرية العمـــل الحزبي. إذا كان الأمر كذلك، فكيف نناقش خطابه بين مجموعة من الانتماءات إلي نظم لا تسمح بهذا السياق؟ وهل يمكن أن نخرج من المناقشة أو الحوار باتفاق علي شيء مشترك يمكن عمله؟.

فلكـــي نؤثـــر في الواقع علينا أن نواجهه، ولا نتعامل مع واقع مستعار موهوم يجمع أجزاء متفرقة متباينة في كتلة هلامية.

بعبارة صريحة، هل يجمع المتحدثين بالعربية سياق واحد، وواقع واحد ومشكلات واحدة؟ في مكان ما يتهم المُطالب بالأحزاب بالخيانة (من تحزب خان)، وفي أماكن أخرى تكتلات برلمانية لا تعترف بالأحزاب، وفي معظم المواقع لا يصرح بالأحزاب، ولا يسمح بتداول السلطة.

كــيف نوحــد الخطــاب بين المثقفين العرب، وكيف يتم تجديده ونحن نواجه مشكلات مختلفة أشد الاختلاف؟

ثمــة تعبــير شهير ابتذل من كثرة الاستعمال، وهو الفرار إلي الأمام، يصــدق، مع الأسف، تماما علينا. فنحن نفر من مواجهة الواقع الذي ينتسب إلــي كل بلد علي حدة لكي نركض بعيدا في أوهام الوحدة والتماثل. فنجعل مــن الهدف الذي نتمناه في المستقبل البعيد شرط تحقيقه هو نفسه، وهذا هو ما يسمي بالدور المنطقي أو الدائرة الشريرة.

إذن علينا أن نبدأ بالواقع الراهن الذي نملكه ونسعي إلي أن نستطيل به، ونمــتد بإمكانياته حتي تشتبك مع واقع الإخوة الآخرين، فربما صنعت عري وثــيقة تتطلب دعما وترسيخا بفضل برامج المثقفين واقتراحاتهم، ومن قبل ذلك، انتقاداتهم.

الانتماء للوطن

لمــاذا نخجل من الاعتراف أو الحديث عن الوطن، لا أقصد ما يسمي بالوطن العربي فهذا هدف بعيد وليس واقعا نحياه بالفعل ويملك كل منا دوره فيه بوصفه مواطنا كامل الأهلية.

إن الاعتراف بالانتماء للوطن يعصمنا من عمليات الإقصاء والاستبعاد، دينــيا أو عرقيا. فالاكتفاء بالعربي يعني إقصاء الكردي والتركماني والنوبي والأمازيغي...إلخ. ويستبعد الإسلامي أصحاب الديانات الأخري من وطنهم ليصبحوا غرباء.

إن ما يطلبه المصري من الاعتراف أو إعلان الانتماء لمصر وطنا هو عين ما يطلبه لغير المصري بالانتماء لوطنه. لم يطالب المتحدثون بالألمانية فــي ألمانيا والنمسا وسويسرا وشمال إيطاليا وشرق فرنسا بالوحدة الألمانية. ولــم يطالب المتحدثون بالفرنسية في فرنسا وبلجيكا ولوكسمبورج وسويسرا بــالوحدة الفرنســية، كمــا لــم يطالــب الماليزيون والإندونيسيون بالوحدة لاشــتراكهم فــي لغــة واحدة، كما لم يطالب سكان أمريكا اللاتينية بالوحدة الإســبانية، ولا المتحدثون بالتركية في آسيا الوسطي والصغري بالانضمام إلي دولة واحدة..إلخ.

وربمــا يقــال: لنا تاريخ مشترك، لكن الواقع أن هذا لم يحدث قط بل نشــبت الحــروب واستعر القتال وتوزع المتحدثون بالعربية بين الخلافات

المتحاربة في زمن واحد: العباسية في بغداد، الأموية في الأندلس، والفاطمية في أفريقيا ومصر واليمن فضلا عن الدويلات التي تستعصي على الحصر. ويكشف لنا التاريخ عن تعدد السلطات بين الخليج والمحيط. وإذا كان ثمة وحدة فهي وحدة الأسرة الحاكمة وآخرها بني عثمان، وأستدرك، عفوا، ليست آخرها. ولقد سميت بعض الأقاليم والبلدان باسم العائلة التي ملكت كل شيء، ولم يكن ثمة أوطان أو وطن واحد، بل أسرة حاكمة ورعايا، هذا هو التاريخ الفعلي وعلينا أن نتذكره، كما ينبغي أن نعترف بأن لنا الآن أوطانا يجدر بنا الولاء لها وحل مشاكلها. إن الوحدة المنشودة والمتاحة التي تزداد وثاقة وشمولا هي الثقافة المشتركة، وليس هناك ما يدعو إلي القلق بشأنها أو الخشية عليها.

وعلينا أن نؤكدها وننميها ولكن دون إنفاق الجهد الضائع لإقامة وحدة سياسية.

والوطن، كما نعلم، مفهوم حديث، إلا إذا استثنينا مصر فهي أول دولة مركزية في التاريخ. وقد نشأ الوطن مع الرأسمالية التي كان من مصلحتها إقامة الدولة القومية المكتفية بذاتها، والمنافسة لغيرها.

والوطن ليس مجرد بقعة جغرافية، بل هو محل لإقامة المواطنين (وليس الرعايا) الذين يتمتعون بحق المشاركة الحرة في اتخاذ القرارات لحل المشكلات عبر الحوار والانتخابات.

أحلام اليقظة

لماذا لا توضع أمام كل مشترك في المؤتمر لافتة تحدد وطنه الذي يقيم فيه، وتكتب جنسيته إذا كان طريدا من وطنه؟ فهنا يكون الحوار مثمرا وحقيقيا بدلا من الضباب الكثيف الذي يغلف الحضور، ويوهم بالوحدة والتماثل. ويتوجب علينا أن نستبدل بأحلام اليقظة مناقشة البرامج الفعلية والإمكانات الحقيقية المتاحة لخروج كل وطن من أزمته الخاصة. ورغم أننا نتحدث كثيرا عن الخصوصية والهوية إلا أننا نذروها عمليا في الهواء الذي تخنقه الشبورة!

ولا يفوتني هنا أن أطمئن المثقف العربي الراهن علي نجوميته واتساع جمهور معجبيه، فلن يخسر نجوميته التي يستثمرها علي امتداد جماهير الأوطان العربية لأن قراء مجلداته، ومستمعي ندواته، ومشاهدي فضائياته

سـيظلون مفتونيـن بتـنديده لكـل السلطات العربية وأشعار هجائه للغرب واللامبريالية والصليبية...إلخ.

بيد أنه يحسن صنعا إذا ما حاول أن يستكشف مشكلات وطنه الحقيقية، وقدم لها الحلول عوضا عن الندب والشجب!

أما ما يشغلني حقا ويثير حنقي فهو ما يطلق عليه تجديد الخطاب الديني ولنسأل بادئ ذي بدء هل هناك خطاب ديني للمثقف؟

إن خطـاب المثقف هو البيان أو المانيفستو الذي ارتضاه لمساهمته في تسـيير شـئون الوطـن بمـنأي عن وضعه الشخصي كمهني أو صاحب مصلحة، أو سليل عرق معين، أو مؤمن بدين بعينه، أي فقط بوصفه مواطنا مهمومـا بالشـأن العـام الذي يشارك فيه الجميع بحصص متساوية. فعندئذ تتعين محاور التصنيف بين المثقفين علي أساس الموقف الخاص المختار من قضايا الوطن المشتركة بين الجميع علي قدم المساواة.

أمـا إذا أدرجـنا ما يسمي بالخطاب الديني في معالجة الشأن العام، فقد فرضنا محور تصنيف مختلفا لا يصلح للتمييز بين المثقفين. وبهذا نكون قد فرقـنا بيـن المواطنيـن بحسب حظوظهم من البعد أو القرب من نقطة بدء السـباق. بـل الأخطـر مـن هذا هو ما يؤدي إليه حظر واستبعاد لبعض المواطنيـن وحـرمانهم من حق المشاركة في الحوار فيما يهمهم من شئون وطـنهم الواحد الذي ينتمون إليه بنفس القدر من الامتيازات أو التبعات علي السواء.

ولا يعنـي هـذا استبعاد الدين ووضعه علي الرف كما يروق للبعض عـندما يمـلأ فمه وتنتفخ أوداجه، بل يعني أن يواصل الدين تأثيره وهيمنته علي المؤمن إذا ما استفتاه دوما في كل شئون حياته بوصفه فردا يحاسبه الله تعالي في اليوم الآخر، يثيبه أو يعاقبه، أو يغفر له. كما لا يعني ذلك التقليل مـن شأن الدين بتحويله إلي نصوص تماثل في مكانتها أية نصوص قانونية أو قواعـد عملية نعلم جميعا كيف نشأت وتطورت وتبدلت بمقتضى وصاية خاصة أو حصانة.

وتسـفر العبارة الاستنكارية وضع الدين علي الرف عن تصور معيب للديـن والإيمان، لأن الدين في نظر هؤلاء المستنكرين سيكف عن نفوذه لو لـم تقـم علـي إعماله وتنفيذه أجهزة سياسية ذات سلطة شاملة. فهذه نظرة إداريـة غليظة تجعل من الدين لائحة بالأوامر والنواهي ينصاع لها المؤمن

وغـير المؤمن في ظل نظم رقابية وأجهزة شرعية يخشي المواطن بطشها. وقـد يلـتمس القربـي والجائزة من القائمين عليها لأنهم وحدهم المفوضون بإجراء الثواب والعقاب بديلاً عن الله سبحانه وتعالى.

ويـتحدث أصـحابنا عن المرجعية التي هي الإيمان في نظرهم. ولكن ألـيس الإيمـان هـو الـذي وقر في القلب والضمير، ولا يمكن شق قلوب المواطنيـن وتفتـيش ضـمائرهم سياسيا للكشف عنه؟ ولا أحسب أن هناك وسـيلة عملية أو دستورية لتطبيق ذلك الكشف عن المرجعية، وجعله شرطا مسـبقا لازمـا مـن شروط حق الانتخاب أو الترشيح، اللهم إلا إذا اعتمدنا الـتقارير والوشايات والبلاغات الوسيلة المثلى لإقصاء البعض أو حرمانهم من حقوقهم السياسية وانزال العقاب بهم.

ولابد من الاعتراف بأن أصحاب هذا التوجه يلقون ترحيبا هائلا ساحقا من القاعدة العريضة من الجماهير، وربما كان ذلك هو المبرر لخشية بعض الأنظمة من الاحتكام إلي صناديق الاقتراع فى الوقت الحاضر.

غير أن هذه الأنظمة نفسها هي التي ساهمت عمدا، أو غباء في تشكيل هذا الجيش الاحتياطي الذي ينتظر القادة ذوي الأيدي المتوضأة كما يصفون أنفسـهم فـي الدعاية الانتخابية؛ أقول ساهمت في تكاثرهم عندما حاصرت التعلـيم، والإعـلام داخل دائرة التلقين والتبرير، وحظرت علي المواطنين الـتدرب والمران علي أساليب الحوار والمعارضة والمصارحة، فأصبحت الجماهـير فريسة سهلة للغزو، أو حشو أدمغتهم التي سبق أن أفرغها التعليم والإعلام من كل قدرة علي التصدي والمواجهة واستقلال الرأي.

وتهب علينا الآن صيحات تجديد الخطاب الديني التي أظن أنها لا تعني فـي نهاية الأمر سوي تطويع الدين لأهداف سابقة التجهيز فى لجان النخبة الحاكمة.

إن الـتاريخ الحقيقي يبدأ من الخروج من نادي الخطاب الثقافي ليمضي إلـي مـيدان الوطن. وهو طريق ذو اتجاهين؛ من الجماهير والمثقفين إلي السلطة، ومن السلطة إلي الجماهير حيث يلتقيان فيما اتفقا عليه معا فى ثنايا الحـوار، رغم تعدد الاجتهادات، في خدمة وطن واحد مشترك، مفتوح علي العروبة والإنسانية فى كل تجلياتها.



الفصل العاشر

آن الأوان للنزول من السندرة إلي الأرض!

كلمـــا اتسعت المسافة بين النظام الحاكم ومعارضيه في بلد ما، تقلصت بطبـيعة الحـــال حـــدود التسامح والحرية. وكلما أدرك النظام أنه لا يحظي بالموافقـــة علـــيه والرضـــا بـــه لـــدي معظم المواطنين، وتيقن من افتقاده للاســـتقرار، انكمشـــت مســـاحة الديمقراطية والحوار الذي يرحب بالتعددية والمشـــاركة فـــي اتخـــاذ القرار. فعندئذ تقوم السلطة بطمس هذه المسافة أو الخـــلاف بين النظام والجماهير بحيث لا يبدو سوي الإجماع والاتفاق بينهما فـــي كـــتلة متجانســـة واحدة، ومن ثم يصبح المعارضون حالات إجرامية، وليسوا مواقف سياسية، يتعامل معها القانون الجنائي ومن قبله أجهزة الأمن والمخابرات، أو يعزلون في معتقلات تقوم بدور الحجر الصحي الذي يحول دون عدوي الآخرين، وبدور الأمثولة والعبرة لغيرهم من المواطنين.

والإجـــراء الأخير ليس أمرا جديدا للنظم الاستبدادية، ولكن الجديد هو عملـــية الطمس التي استحدثتها ممهدة لهزيمة٦٧. فقد أقام النظام ستارا كثيفا مـــن الشـــعارات شديدة الطموح مثل الحرية، والاشتراكية والوحدة العربية، وشـــكل مـــن هـــذا الستار نسيجا لواقع وهمي بديل عن الواقع الفعلي الذي انصـــرفت الجماهير عن التعامل معه قانعة مزهوة بذلك الخيال الذي تجسد فـــي الإعـــلام والفنون، والأغاني، والأناشيد، والمقررات القومية والبيانات التاريخية، فكل بيانات القائد لابد أن تكون تاريخية!

وعـــندما اســـتيقظ المفكـــرون والمـــثقفون علي انهيار الآمال وانقشاع الأوهـــام، كانـــت ردود أفعـــالهم ملائمة لقدراتهم وعاداتهم المألوفة التي لم تجرب من قبل ممارسة الفعل السياسي أو تقدير الواقع الموضوعي. فجاءت استجاباتهم علي صعيد نوع زائف من المثالية العقلية، فأقبلوا جميعا علي نقد الفكـــر أو العقـــل العربـــي، وزاوجوا بين ما يسمي بالأصالة والمعاصرة،

ونشــطوا إلي تجديد الفكر العربي، والدعوة إلي الأخذ بأساليب العلم ووسائل التكنولوجــيا لصــياغة الدولة العصرية، أو العودة إلي القيم الروحية الدينية الأصيلة.

ولا ينبغي أن نلقي اللوم علي هؤلاء المفكرين والمثقفين، لأنهم، بالرغم منهم، ألفوا التعامل مع واقع وهمي بديل نسجته السلطة ليكون ستارا يحجب أو يطمس المسافة بين الحاكم وسائر المواطنين.

ومــن ثــم استعان المثقفون بتقنيات نفسية وعقلية معينة عندما تبين لهم الإخفــاق في تحقيق المواطنة الفعلية والحفاظ عليها، أو علي الأقل تحديدها وتعــريفها. فحولــوا يأسهم واستسلامهم إلي قناع يتنكر تحت تسميات ذات جــرس آسر لعلها توحي بمقاومة أو جسارة دون أن تحمل مضمونا حقيقيا للمقاومــة أو الجســارة. فلم يعد المفكر يبحث في نطاق الوضع الممكن أو الواقــع وماذا يتطلبه الالتزام إزاءه، بل عمد إلي تحويل فشله وتصعيده إلي ســماوات الشــعارات التــي لا تكلف صاحبها شيئا بقدر ما تفيد في صرف الانتــباه عن المسئولية المباشرة، فيخرج المفكر من ساحة المعركة أو ميدان السياســة آمــنا موفورا، وقد أفلح في إطلاق سحب الدخان الكلامية لتأمين الفرار.

ورغــم التــنوعات الهائلة العدد في طرح المأزق لدي أصحاب المثالية الــزائفة، إلا أنهم يشتركون جميعا، مع تفاوت في درجة العمق أو السطحية، وتفضــيل أجهزة اصطلاحية معينة؛ يشتركون في اختزالهم الطريق الطويل بيــن الوسائط والمجالات المحددة من جهة، وبين الأهداف المعلنة من جهة أخــري: فهم يقفزون مباشرة إلي المثل والأهداف العليا. وعلينا أن نسلم معا بــأن الخلاف الحقيقي لا ينبغي أن يكون دائرا حول هذه المثل والقيم العليا، بل ينبغي أن يبدأ الخلاف عند التحديد النوعي للمشكلات القائمة، والخطوات المؤديــة إلــي حلها تحقيقا لهذه المثل والأهداف في نطاق أوضاع وشروط معيــنة. فهــنالك تــتعدد الاجــتهادات والبرامج، بينما ما يواجهنا من هذه المثاليات الزائفة، في معظم الأحيان، هو التفكير القائم علي الدخول في دور منطقي تتحول فيه أو تنتقل النتيجة(أي المطالب والأهداف) إلي المقدمة(أي الشروط والوسائل التي تحققها)!

المثالية الزائفة

ومهمـــا يكن من أمر المثالية الزائفة، فإنها يمكن أن تصنف إلي أنماط رئيســية ثلاثـــة، وهـــي التي جاءت استجابة لهزيمة يونيه، فمنها ما يمكن تســميته بالمتعالي، ومنها ما يطلق عليه المشروعات الحضارية النهضوية، ومـــنها نزعات التنادي بالعودة إلي جادة القيم الدينية الأصيلة. فأما طوائف النقد المتعالي فتطل جميعا من مرصد بعيد للنظر إلى وقائع المأزق لتختزلها إلي بعد واحد ييسر لها عملية التحليل والتفسير، ومن ثم العلاج.

فهـــناك من ينطلق من افتراض وجود عقل عربي ويمضي متحمسا في تعقب مراحل تكوينه وبيان عناصر تركيبه.

ولا يمكـــن أن نتوقع من هذا الافتراض أن يؤدي إلي نتائج متماثلة في كـــل الزمان، لأن هذا العقل المزعوم أقرب ما يكون كيانا ميتافيزيقيا تتباين مـــن حـــوله شتي التصورات. ولا أحسب أن هذا الافتراض شيء مفيد لأنه أمـــر تعسفي مفروض علي وقائع التاريخ وأحداثه، وليست هناك بنية عقلية مســـتمرة للأمة، أو منهج واحد ثابت للتفكير. وأقصي ما يمكن أن نفترض وجوده هو صبغة سائدة للثقافة ما تلبث أن تتغير من عصر إلي عصر عبر المـــراحل المخـــتلفة للممارسات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. وربما أفضـــي ذلـــك الـــزعم بوجود عقل عربي إلي التسليم بكل الآراء العنصرية السيئة السمعة.

ومـــن ألوان النقد المتعالي التناول المسطح للمشكلات وردها إلي عامل وحـــيد يخـــتار من بين عوامل متعددة، ويجري تكريسه تفسيرا لكل صور الانحراف أو الإخفاق مثل القول بغياب الفكر العلمي، أو الضمير الخلقي، أو التســـلح بالتكنولوجـــيا، وهو نقد لا يبذل أي جهد في التحليل الشامل للسياق الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، فيكفيه الوعظ والتقريع.

وقـــد ينضم إلي هذا النوع اليسير من النقد تفسير كل تغير أو انحراف بكونـــه ظاهرة عالمية جريا علي نمط تفسير التدهور الاقتصادي بالمتغيرات الدولية.

ولا بـــأس أحيانا بهذا التفسير، ولكن بشرط ألا يعني أن ما يحدث لدينا هو نتيجة لحدوثه في الخارج، فالأصح هو أن ما يحدث في الخارج إنما هو نتـــيجة لمتغيرات معينة إذا ما نشأت لدينا فلابد أن يقع ما يماثل نتائجها في

الخــارج. فالمتغيرات المتماثلة تحدث نتائج متماثلة إذا ما تشابه السياق الذي تعمل فيه، وليست المسألة زحفا خارجيا وقدرا عالميا لا مرد له.

أمــا المشروعات الحضارية والنهضوية، فهي تنطلق جميعا من شعور عمــيق بالإحــباط القومي الذي نشأ عن الوعي بالهزيمة والعجز عن إعادة البــناء. وكان لابد لهذا الشعور أن يشق قنوات متعددة من النقد الذاتي تصب جمــيعا فــي هدف مشترك هو استعادة ما يسمي بــالهوية عن طريق إعادة رســم حدودها وتقييم معالمها. وتتراوح المشروعات الحضارية والنهضوية في هذا الصدد، بين قطبين علي متصل واحد، هما ما يسمي بــالتحديث من جهــة، والإلحاح علي ما يسمي بـــالخصوصية من جهة أخري. والمتصل الواحــد الذي يجمع تلك المشروعات هو ما يسمي في علم النفس الاجتماعي بــتغيــير الاتجاهــات إزاء مجــالات الواقــع المتعددة. فهي تعني جميعا بالجوانب النفسية والعقلية، وتلح علي إبراز أهمية الأفكار والمثل العليا، ولا شــأن لهــا بالبنــية أو القاعدة الموضوعية التي تؤلف الأساس الاقتصادي الاجتماعــي للأمــة. ولا توظــف المعطيات التاريخية إلا بوصفها واجهات متحفية ينتقي منها المفكر ما يؤكد به تلك السمات النفسية والعقلية التي تتخذ معــيارا لرســم ملامــح الهويــة المــنوه عــنها عند كل مشروع من تلك المشروعات.

فهــي تتفق إذن في تأمين المسافة البعيدة، والانفصال عن أية شبهة في الدعــوة إلي تغيير جذري في بنية المجتمع فهذه في نظرهم مسألة مبتذلة لا ينبغــي التورط في تناولها، وحسبها نقل تبعات المعركة أو هموم البناء إلي مجال الفكر والسلوك الفردي في أغلب الأحيان.

مفهوم الهوية

ولا ريــب أن مفهــوم النهضــة أو الحضــارة أو الهوية سواء أهاب بالتحديــث الليبرالــي، أو أشــاد بالجوانب المنتقاة من عصر ذهبي قديم، أو موهــوم، هــو مفهــوم آمن لا يعرّض صاحبه للمساءلة من جهات الضبط والتحقــيق، بل إنه يخلع علي أصحابه رداء المهابة والتوقير. فهو لا يواجه المشــكلات الفعلــية التي يعانيها المواطنون بأن ينازلها في مجالها وحقلها الأصــلي في الاقتصاد والسياسة، بل يلوذ أصحابه بالمجال العقلي والنفسي الــذي يتخذون منه التعريفات المستعارة (وليست الواقعية الفعلية) للمشكلات

بحيث تظل أيديهم نظيفة ناعمة، ونائية عن المواجهة المباشرة للواقع. وعلي هـذا الوجـه تقوم شعارات النهضة والهوية والحضارة بوظيفة المخابئ أو الأقـنعة التـي تـذود عنهم غبار المعارك الحقيقية في الساحة الموضوعية المادية بأوضاعها ومشاكلها وتبعاتها.

ويعبر هذا النوع من الوعي المستعار عن الوضع الواقعي للانكسار أو الـركود أو العجـز عن إعادة إنتاج الذات المادية للأمة. ففي غيبة الإنتاج الحقيقي يتقهقر الوعي ليصبح مستهلكا لصيغ جاهزة من المعلبات الثقافية.

فالمواطن لم يعد يملك ماضيه لأنه قد فر من يديه إلي غير رجعة، كما لا يملـك حاضره لأن الحاضر يملكه الأقوياء خارج الحدود، ومن هنا عليه إمـا أن يسـتهلك مـا هو جاهز في الماضي، أي التراث، وهو مالم ننتجه بأنفسـنا بل أنتجه الأسلاف، وإما أن يستهلك ما يفد علينا من الخارج، وهو جاهز لم يصنعه بنفسه.

وفـي الحاليـن، ينأي أصحاب المشروعات الحضارية والنهضوية عن مخاطـرة الإنتاج مؤثرين السلامة والعافية باستهلاك ما أنتجه الغير، السلف أو الغرب، مستخدمين في ذلك تسميات مثيرة جذابة.

النظريات الفاسدة

ولئـن كـنا لا ننحـي باللائمة كثيرا علي كتاب ما بعد٦٧ لأنهم كانوا يكتـبون فـي ظـل سلطة غاشمة، وتلويح بأن لا صوت يعلو علي صوت المعركة، فإننا لا نجد ما نعذر به كتاب اليوم في استجاباتهم لدواعي الخذلان والإحباط سواء في دوائر السياسة أو الاقتصاد.

فثمة مندوحة للمراجعة ووضع البرامج بدلا من أن نكون دمي تحركها مصطلحات الكتاب الأمريكيين.

فنحـن الـيوم نصنع علي أفضل وجه ما يطلبونه منا لتبرير نظرياتهم، وبدلا من كوننا ضحايا فإننا نجعل من أنفسنا جناة، أو نتيح لهم الذرائع لبيان صحة تحليلاتهم وتفسيراتهم المختلة، واستحقاقنا للعقاب.

ويـبدو أننا استمرأنا أن نخوض المعارك البديلة وقنعنا بأسلحة الألفاظ والمصطلحات التي عادة ما تكون أسلحة فاسدة ترتد إلي صدورنا وليس إلي أفواهنا وألسنتنا التي تشدقنا بواسطتها.

فأمـــا نظرية صدام الحضارات، وهي نظرية فاسدة علميا، فنسعي إلي تحقـــيقها بتقسيم العالم إلي مؤمنين وكفرة يقبع كل منهم في فسطاط ليناصب العداء للآخر.

ونـــتحدث عـــن أمـــة إسلامية بالمعني السياسي، بينما المعني الأصلي الصـــحيح جماعة المؤمنين بالإسلام سواء في إندونيسيا أو أمريكا أو فرنسا، فلكـــل وطـــنه ونظام حكمه وجيشه وإلا كان المسلم الأمريكي جاسوسا ضد بلده!

ونكـــثر الحديـــث عن المسيحية الصهيونية في أمريكا ونجعلها برنامج الإدارة الأمريكية واستراتيجيتها، ثم نقارن بين الإسلام، وهو الدين السماوي والدعوة الإنسانية الشاملة، بينه وبين الغرب.

لقـــد حـــاول الأمريكـــيون تصنيع عدو جديد، فسارعنا إلي تقديمه لهم جاهزا بأكثر مما يطلبونه منا.

أمـــا المصطلح الذي شاع وغلب علي كل الكتابات والندوات والإذاعات مرئية ومسموعة فهو "الآخر".

ولا أدري كـــيف تسرب ذلك المفهوم من فلسفة سارتر الوجودية ليتربع علي عرش التحليلات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية والفلسفية، بل والفنية كما حدث في السينما عندنا.. بيد أني أعتقد أن انسلاخه من الفكر الوجودي الذي يتحدث عن الأفراد وانتقاله إلي هذه المجالات شديدة الاتساع، أعـــتقد أنـــه أمر يؤدي إلي التخليط والتشويش حيث لا يميز مجالاً عن آخر ولا يمكـــن أن يكـــون أداة تحلـــيل أو تفسير. وأعتقد أنه، إذا ما أتيح لي أن أستعير عبارة ماركس، أفيون المثقفين العرب، فهم أولا يتعاطونه وهم قعود علي المصاطب الأنيقة للندوات والمؤتمرات حيث الامتناع عن الفكر والعمل المـــثمر، والاســـتنامة إلي راحة التخدير وطمأنينة الدماغ، فكل شيء قد تم تصـــنيفه. ولا يعنـــي هذا التعاطي السكون والصمت، بل علي النقيض من ذلـــك، تـــؤدي قعدة التعاطي إلي الصخب والشغب، فهذا هو ما يحدث اليوم علـــي الســـاحة الفكرية. فمهمة المثقفين الآن هي إحداث الشغب بين الألفاظ والمصـــطلحات مـــثل: إســـلام- غـــرب، إسلامي- علماني، عربي مسلم- مسيحي صهيوني، منبطح انهزامي- مقاوم استشهادي...إلخ.

ولنأخذ مثالا واحدا مما ينثال علينا من صفة الآخر. وقبل ذلك علينا أن نذكـــر بـــأن اســـتخدام وصف الآخر وإطلاقه علي مجموعة كبيرة من أية

مفــردات كانــت إنما يفترض ابتداء أن هذه المجموعة أي الآخر، متجانسة فيما بينها ولا يوجد أي اختلاف بين مكوناتها فكلها متشابهة متماثلة وتعامل في مجموعها كفرد واحد هو الآخر.

ولــنمض إلـــي الآخـــر الـــذي هـــو الغرب عند معظم من يستخدمون المصـــطلح، هـــل هو شيء واحد؟ هل هو فريق متحد واحد؟ هل مصالحه واحدة؟ هل تتماثل مكوناته؟ هل هو حزب واحد؟ دين واحد؟ طائفة واحدة؟.

بالطبع لا، فالحربان العالميتان كانتا بين بعض مكوناته.

وإذا مـــا تأملـــنا مسألة العراق، أين احتشدت أكثر الجماهير ضد حرب العـــراق؟ أليس في الغرب؟ أين تظاهر الشباب ضد العولمة وسقط من بينهم قتلــي؟ هل اتفق الغرب معا في مجلس الأمن عند مناقشة غزو العراق؟ أين نشأت الماركسية؟ وثمة أسئلة أخرى كثيرة لا يتسع المقام لبيانها.

فكرة الآخر

إن صـــمويل هنتنجتون هو أبرز القائلين مثلنا بفكرة الآخر حيث مقولته الشـــهيرة، الغـــرب والباقي (أي الآخر)Westandtherest، وكل ما ذكـــره تمييزا للغرب إنما يعود كله دون استثناء إلي صعود الرأسمالية وما أدت إلـــيه من ديمقراطية وتطور للعلم والتكنولوجيا ومن ثم غزو العالم لفتح الأســـواق والاستيلاء علي المواد الخام والأيدي العاملة الرخيصة، وقبل ذلك نشأة الأوطان الحديثة أي الدول القومية والمنافسة بينها.

إن الســـر في تقدم الغرب وتخلفنا هو الشروط المواتية لنشأة الرأسمالية وصـــعود البرجوازية التي كنا في الشرق أحد روافدها، ولكننا عندما أوشكنا أن نصنع مثله حالت دوننا عوامل موضوعية كثيرة.

كلمة السر

ففـــي مصـــر، علـــي ســـبيل المـــثال، بـــدأت تبرز طبقة وسطي(أي الـــبرجوازية) لازدهـــار نشاط رأس المال التجاري في القرون١٦،١٧،١٨، وإعـــادة بناء شبكة التجارة الدولية التي تربط بين عالم المحيط الهندي بعالم الـــبحر المتوســـط عبر البحر الأحمر ومصر. كما أخذ رأس المال التجاري يلعـــب دورا بـــارزا في تتجير الزراعة (أى جعلها تجارية) والاستثمار في الصـــناعة، وتطويـــر العمل المنزلي، وظهور درجة من تقسيم العمل. وفي

إطار هذه التطورات ازدهرت صناعة السكر في مصر تلبية للطلب الأوربي لهــا، وكذلك المنسوجات المصرية في أسواق فرنسا وهولندا وإسبانيا. وفى منتصف القرن الثامن عشر انقطعت مسيرة التطور لأسباب داخلية وخارجية مــنها ســطوة المماليــك فــي مصر الذين كانوا يتطلعون إلي دعم سلطتهم عســكريا لتحقــيق قــدر من الاستقلال عن الدولة العثمانية، أو ضمان بقاء الســلطة فــي أيديهــم علي الأقل، ولهذا أثقلوا التجارة والصناعة بالمكوس والضــرائب، وشجعوا التجار الأوربيين علي غزو السوق المحلية ومنافسة الإنتاج المحلي، وذلك نظير ما يدفعونه لهم.

وقــد طالــب الاقتصادي الكبير طلعت حرب في وقت مبكر من القرن العشــرين بأداة فاعلة من أجل تراكم رأس المال الوطني وتوظيفه من خلال بــنك وطني يلبي الاحتياجات الاقتصادية بعد أن زاحمت البضائع المستوردة المنــتجات المحلــية. كما طالب بعدم قصر إنفاق المدخرات المصرية علي شــراء الأرض الزراعــية والعقارات، ونادي بالتصنيع وعدم الاعتماد علي المحصول الواحد وهو القطن. كما كان يدرك أن الاستقلال السياسي لابد أن يصاحبه الاستقلال الاقتصادي.

ولقــد استطاع طلعت حرب بوصفه طليعة للرأسمالية الوطنية في ظل احــتلال أجنبــي، وملكــية فاسدة أن يقيم مشروعات احتضنت كل مجالات الإبداع المصري، ومنها السينما والمسرح.

ولــم يكن من الممكن للاحتلال البريطاني أن يتيح للرأسمالية المصرية فرصة الازدهار والمنافسة، فنحي طلعت حرب عام١٩٤١ عن إدارته لبنك مصــر وأحل مكانه صديق الإنجليز الوفي حافظ عفيفي الذي أصبح رئيسا للديــوان الملكــي، وهــذه دلالــة رمــزية واضحة علي أن العدو الحقيقي للاستعمار والملك هو الرأسمالية الوطنية.

وجــاءت حــركة الجيش لتمارس تجاربها المتضاربة حتي بلغت أخيرا مرحلة رأسمالية الدولة بمفاسدها المعروفة تحت اسم الاشتراكية العربية، أو السليمة، أو الحقة! فقضت علي التطور الطبيعي للرأسمالية الوطنية. وعندما جــاء السادات وارتبط بالمصالح الأمريكية أجهز علي آخر أمل للرأسمالية الوطنية التي أحل مكانها شركات التوكيلات والعمولات فيما يسمي بالانفتاح الــذي أدي تلقائــيا إلــى ظهــور فئة من رجال الأعمال المتخصصين في

استنزاف أموال البنوك والهروب بها خارج مصر، أو المكوث بها للحصول علي العمولات.

ما الحل أو ما العمل إذن؟

ينبغي أن نقلل استهلاك الطاقة الكهربائية في الصراخ في الميكروفونات، وإسالة أنهار المداد في إعداد الخطابات والبيانات التي يمكن إيجازها في العبارة الشعبية الطريفة: شيلوه من فوقي لأموته(ارفعوه من فوقي وإلا قتلته!) والمقصود هو الآخر اللعين الذي هو الغرب.

وبدلا من ذلك علينا أن ندرس لماذا سبقنا، واستعمرنا؟ والإجابة هي أنه استطاع أن يقيم رأسماليته الوطنية، التي أدت إلي أن ينشئ كل إقليم من الأقاليم دولته القومية، أي وطنه الذي يستوعب أمته، وأن يطور علمه وتكنولوجيته، وأن يرفع من قيمة العصامية أو الفردية، ويسمح بالتعددية، وتداول السلطة، ومن ثم تزدهر جميع الآراء ومنها نقد الرأسمالية نفسها، وترويضها لحساب المواطنين وليس الإحسان للرعايا.

الفصل الحادى عشر

النقد الثقافي والماركسية

أولا: الماركسية: إعادة ترتيب

لا نقصـد بإعـادة الترتيـب ما يصادفنا اليوم كثيرا مما يسمي بإعادة القـراءة أو القراءة الجديدة، لأن تلك الأخيرة تفضي إلي استخلاص دلالات جديـدة من نصوص أو رسالة سابقة يقوم بها القارئ اللاحق بمفاتيح شفرته الجديدة التي تنتمي، بطبيعة الحال، إلي اهتمامات ثقافته الراهنة ومطالبها.

وربما تصلح القراءة الجديدة، بل لعلها تكون ضرورية بالنسبة لمجالين رئيسيين هما اللاهوت والفن.

ففـي اللاهوت، حيث يقر المؤمن بأن النص صالح لكل مكان وزمان، ينبغي علي مفكر علم الكلام أو اللاهوت أن يعيد قراءة النص بمعني أن يعيد تفسيره في ضوء متطلبات فكرية أو عملية لم تكن مطروحة في زمان النص الأول، ليتسـني له موقف معين بهدف التوافق مع النص، أو تبرير توجهات متعارضة إزاءه.

وكذلـك الفن، لأن العمل الفني بمثابة وجود جديد، أو واقعة جديدة مثل غـيرها من الوقائع، التي من شأنها أن تبعث إشعاعات متجددة بقدر تأثيرها فـي الناس، وبقدر ما تثيره من متعة أو استيعاب لدي المتلقين عبر عصور متعاقبة، هذه الإشعاعات هي التي يحققها العمل الفني في ثنايا فائض الدلالة الذي يربو ويتراكم وفقا لضروب التذوق والنقد.

والماركسـية ليسـت لاهوتا أو فنا، وبالتالي ليست في حاجة إلي إعادة قـراءة بقـدر مـا هي في حاجة إلي إعادة ترتيب، أي تصنيف لعناصرها المختلفة.

ويـبدو أن التسمية "ماركسية" لها وضع أكاديمي ونضالي خاص، مما يجعلهـا تسـمية مراوغة تثير بعض الحيرة والاضطراب. فهي تنتمي إلي

شـــخص تاريخي توفي١٨٨٣، وهي أعمال واجتهادات لعبقرية فذة استطاع قبل وفاته في ذلك التاريخ المحدد أن يطور، ويعدل ويغير الكثير من آرائه.

ولقد قدر لمجمل هذه الممارسات والمؤلفات بعد وفاته أن تستقل قليلا أو كثـيرا عـن أوضـاعها ومواقفها المحددة بالزمان والمكان. واغتربت عند بعض أنصارها أو خصومها علي السواء، في صفقة واحدة لا نميز فيها بين مجـالات أو مستويات. وقد يتحول ذلك الاغتراب إلي البحث عن محور أو مركـز يعـاد نسج الاجتهادات والممارسات حوله لتبدو غزارتها وتنوعها وتعـدد مجالاتهـا وكأنهـا تنويعات علي لحن أساسي. أو كثرة من الأدلة والشواهد التي تفصح عن المقصد الأصلى لماركس، علي نحو ما يكشفه لنا القارئ الجديد، مثلما صنع ألتوسير في محاولة إثباته للبنية العلمية، في فكر ماركس بأسره.

وتتبايـن الأحكـام علي صحة القراءة الجديدة بقدر موقع القارئ الجديد مـن الحـزب الشـيوعي، فـإذا ما كان عضوا بارزا كانت قراءته إثراء للماركسـية. وإذا مـا كـان خارج الحزب أدينت قراءته بوصفها مراجعة للماركسية أو ردة عنها.

فضلا عن القراءات غير الماركسية التي يتداولها خصومها، التي يكون بعضـها سـطحيا سماعيا مثلما صنع هتلر في كتابه "كفاحى" وتبعه في ذلك كثير من كتاب العالم الثالث، حيث يجعلون من الماركسية فكرا متآمرا علي تخريب العالم وثقافته لصالح اليهود أو دعوة للإباحية والالحاد!

ومهما يكن من أمر، فليس من الإنصاف أن تستوعب الماركسية بكاملها داخل نظرية علمية، أو يقال أنها منهج فحسب، أو حسبها أن تعامل كمذهب فلسفي.

ولا ريـب أن ماركس ورفيق نضاله إنجلز قد تحدثا في كل ذلك، وفي أكـثر مـنه، ولا يعجز أي ماركسي عن العثور علي نص من نصوصهما للاستشـهاد به في أي مجال أو موقف، فهنا ينبغي أن نتساءل: بأية مقاييس أو معايـير نلـتزم عـندما نختلف حول تقدير جدارة النص الماركسي، أو صحته أو ملاءمته للمجال أو الموقف الذي يكون الاختلاف بصدده؟

هل نأخذ بمعيار العلم، أم بميزان الفلسفة، أم بمقاييس الفن..إلخ؟

إذا طمسنا الفروق بين معايير المجالات المختلفة، فإننا نضمر افتراضا مسـبقا، هـو أن الماركسـية دين من الأديان، وعلينا إما نقبل كل نصوص

مـــاركس ومعه إنجلز، مع التحوط باستبعاد ما نسخه كل منهما من نصوص ســـابقة قبل أن يتوفاهما الله في تاريخ معلوم قدره الله ليكتمل به الدين، وتتم الـــنعمة، أو نـــنكر ما جاءت به الماركسية في كل مجال وحسبنا القول: لكم دينكم ولنا دين!

ولا أحسب أن أحدا من الماركسيين يقبل هذا الافتراض أو ذاك.

ولـــيس الهدف من اقتراحنا بتصنيف التراث الماركسي أو إعادة ترتيب محـــتواه إعادة تقدير أو تقويم له، بل المساهمة في افتتاح اللحظة أو المرحلة التالية للعمل أو البحث فيما يتعلق بهذا التراث العظيم.

ويعتمد هذا التصنيف علي رفض هيمنة معايير مجال معين علي سائر المجالات، لأن التراث الماركسي لايمكن أن نفترض انتسابه إلي مجال واحد أو مستوي بعينه لمجرد أن شخصا واحدا هو الذي أنجزه.

ولكـــل مجال هدفه الخاص وأسلوبه النوعي، وهذا هو ما يتيح لنا تمييز مجال عن آخر في نطاق المشروع العام لصاحب التراث.

ويعنـــي هـــذا مـــنذ البداية، أن نستبعد الزعم بأن الفلسفة علم كلي ولا تختلف عن سائر العلوم إلا باتساع موضوع البحث، ويظل المنهج علي هذا الـــنحو واحـــدا في المجالين، ولا يحفزنا إلي هذا الاستبعاد دوافع التخصص الأكاديمـــي الضـــيق، بل تحديدنا لشروط التحقق من صدق فروضنا العلمية وقـــبولها للـــتراكم المعرفـــي، أو إمكان تجاوز النتائج العلمية واندماجها في اكتشافات علمية لاحقة.

فلا يكفي أن نطلق علي أية افتراضات أو دعاوي نظرية مصطلح العلم لأن أصـــحابها يقدرون العلم أو يصفون مزاعمهم بأنها علمية، ولكن ينبغي أن تخضع أقوالهم لمعايير المنهج العلمي وإلا اندرجت تحت مجال آخر.

كما لايعني، في المقابل، انحسار مفهوم العلم عنها، بأنها أدني أو أرقي مـــن العلـــم، لأن لمجالاتهـــا التـــي تنتمي إليها هدفها وأسلوبها، كما أن لها مشروعيتها الخاصة التي تحدد لنا إقرارها أو إنكارها.

ومن ثم، فليس من المبرر أن نسلم بتصنيف ماركس وإنجلز لأعمالهما، لأن محـــاور تصـــنيفهما مؤسسة علي مقاييس عصرهما الذي ولي. ولذلك فتصـــنيفنا كذلـــك لا يدعـــي صحته المطلقة، لأنه أيضا مستمد من مقاييس عصـــرنا الراهـــن، فمن المعروف أن ماركس قد رفض علم الاجتماع الذي

اقــترحه أوجيست كونت لأنه في نظره محض إيديولوجية بورجوازية، ولم يعترف بعلم إنساني سوي التاريخ.

فأمـــا الفلسفة، فهي نظرة كلية شاملة وموقف أو اتجاه عام، وهي ليست وعـــاء يضـــم كافـــة العلـــوم الطبيعـــية والإنســـانية الذي يمكن أن تفرغه التخصصات. وليست حزمة من المعارف التي لا تلبث أن ينفرط عقدها إلي علـــوم محـــددة، ولكن يظل لها موضوعاتها الخاصة مثل الوجود والمعرفة والقـــيم والواقـــع والإنســـان...إلخ التي لا تصلح أن تكون موضوعا لعلوم متخصصة.

وتنشـــأ العمومـــية أو الكلية والشمول من جهتين: جهة الموضوع العام نفســـه، أو أســـلوب تناول الموضوعات أو التجارب الجزئية التي يمكن أن تكـــون موضوعا لعلوم متخصصة، ولكن الفلسفة تنطلق منها لتؤلف تجريدا وشمولا أوسع وأعم، في نطاق نسق(أي مذهب) معين.

فمهمة الفلسفة هي استيعاب أو استرداد ما هو عيني واقعي مباشر ولكن عن طريق ما هو مجرد، وكلي، وعام.

والنســـق أو المذهـــب الفلســـفي لا يظل مغلقا علي نفسه، بل ثمة أفق مـــتحرك أمـــام الفيلسوف هو الذي تتحدد المشكلات الفلسفية وفقا لحركته. فالمشروعية الفلسفية للمشكلات تتحول وتتجدد دوما، والمشكلة، أية مشكلة، تصير مشكلة فلسفية لأن طائفة من الأسئلة ماتزال تتجمع وتتشابك ملحة في طلب الجواب أو الحل.

ولا ريـــب أن هـــذه الأسئلة تعبير عن حاجات ومطالب عملية وفكرية حثـــت علـــيها أو أنتجـــتها أوضاع ثقافية مادية وروحية جديدة. بينما تنزع المشـــروعية الفلســـفية عن موضوعات أخري كانت فلسفية في الزمن القديم لاندراجها اليوم في موضوعات العلم الطبيعي أو الإنساني.

وتصـــوغ الفلســـفة آراءهـــا فـــيما يشبه الافتراضات الواسعة، وليس الفـــروض، لأنهـــا لاتقـــبل التحقق من صحتها أو كذبها موضوعيا لاتساع قضاياها. فكل عبارة عامة لاتتعلق مباشرة بتخصص معين أو علم بعينه هي عـــبارة فلسفية مهما يبدو من سذاجتها أو ألفتها، وهذا هو ما يسمي بالتفلسف الشـــائع أو الـــدارج الذي نصطنعه جميعا. غير أن الفلسفة الرفيعة المستوي تلـــتزم بشـــرطين آخريـــن فضـــلا عن عمومية العبارات أو الأحكام، هما: الاتســـاق أي عـــدم التـــناقض فـــي تلك القضايا، والنسقية أي قبول القضايا

للاندمـــاج مع غيرها في نسق أي مذهب، يحدد علاقات معينة بين عناصره ووحداتـــه. والفلســـفة مـــنحازة، غير أن العلاقة بين الوعي الفلسفي والواقع المباشـــر ليســـت علاقـــة شفافة، لأنها تطرح مشكلاتها في نطاق أعم فئات التصنيف، أي المقولات مثل الكون، والوجود والمعرفة وغيرها، كما أن هذا الطـــرح قـــد اكتسب استقلالا نسبيا عبر تاريخ طويل من إثارة المشكلات، واقـــتراح إجاباتها وحلولها، علي الوجه الذي أتاح لها أن تصنف في مذاهب ونزعات وحقب فلسفية.

فالمذهـــب الفلســـفي إذن نظـــرة شاملة تنطوي علي منطق عام صالح للـــتجريد والتركيـــب النسقي. وعلي هذا النحو، فمذاهبها رغم عدم اعتراف أصـــحابها بذلـــك تمثل نوعا من الأنساق الاستنباطية(أي الأكسيوماطيقية)، مـــثل الرياضـــيات إلـــي حد ما، وخاصة الهندسة، لها مقدماتها العامة التي تترتـــب علـــيها نتائج متعددة في فروعها المختلفة. وبذلك تتميز الفلسفة عن العلـــوم الطبيعـــية والإنسانية، ولم يكن لنا أن نزعم بذلك إلا بعد أن حققت العلـــوم الطبيعـــية اســـتقلالها الخـــاص عن الفلسفة منذ منتصف القرن قبل الماضـــي علـــي وجـــه التقريـــب، ومن ثم تصنف المادية الجدلية في عداد المذاهب الفلسفية بحيث لاتكون نظرية علمية أو منهجا عاما.

وهـــنا يمكن النظر في قضية قلب ماركس لهيجل، فأعتقد أن ما صنعه مـــاركس هـــو اســـتخلاص مـــنطقه الجدلي من هيجل، ولكن ليس بالمعني الـــذي يستعمل فيه هيجل مصطلح المنطق لأنه عنده أكثر من المنطق، فهو يعـــده علمـــا، كمـــا أنـــه لايفصـــل فيه بين المنطق، والمحتوي المعرفي، والمذهب.

أمـــا ما أعنيه بالمنطق فهو أشد الجوانب النظرية تجريدا، وأكثر قواعد الاســـتدلال عمومية ولكن دون محتوي معين، فهو إطار فارغ يختلف هدفه عـــن هـــدف المـــنهج. فبينما يهدف المنطق إلي طريقة العرض والبرهان، يســـتهدف المنهج الاكتشاف لأنه خطوات لها مسار معين يؤدي إلي محتوي معرفي لم يكن متضمنا في المقدمات.

أمـــا مـــا يســـمي بالمـــنهج الفلسفي، كالجدل الهيجلي، أو التحليلي، أو الفنومنولوجـــي، أو البنـــيوي، فلـــيس مـــنهجا خالصـــا، بـــل هـــو منحي approach، تخـــتلط فـــيه الخطـــوات والمســـار والنتائج الأخيرة(أي المنهج)، بوجهة النظر المسبقة التي يصرح بها منذ البداية، وهي التي يعلنها

المذهب الفلسفي في مقدمات نسقه الاستنباطي الذي يتخفي في إهاب التقرير المعرفي، والعرض الوقائعي.

فمـا يسـمي بالمـنهج الفلسفي هو طريقة التعامل مع مفردات النسق الاسـتنباطي ومفاهيمه الخاصة وتحديد العلاقات بينها، وبالتالي يختلف عن المـنطق الذي هو أكثر القوالب تجريدا وشمولا وعمومية، لأنه إطار فارغ معـد للامـتلاء سـواء في الفلسفة أو العلم أو الحياة اليومية بوصفه أنماطا للاستدلال وقواعد للتحويل من المقدمات إلي النتائج.

فمـا أخـذه ماركس من هيجل هو المنطق الهيجلي الذي يصنع قطيعة كاملة مع منطق أرسطو.

وحينـئذ يتيسـر لنا تصحيح التفسير المشهور بأن ماركس قد أخذ عن هيجل النواة العقلية ونزعها عن الغلاف الوهمي، وهو الذي فسرها ألتوسير بأنهـا فكرة الجدلية أي العملية دون فاعل أو ذات بحسب تعبيره. فلو أخذنا هـذه العـبارة علي وجهها المباشر فقد تدخلنا في بنيوية وضعية بما تنطوي علـيه مـن محـتوي معرفـي محدد، ولعل الأفضل أن نفسر ذلك علي أنه المـنطق، لأنـه مجرد، ولأنه يستبعد الذات أو الفاعل بحكم التعريف الذي أسلفناه.

أمـا العلـم، سواء في الطبيعة أو الإنسان، فيختلف عن الفلسفة في أنه المشـروع أو المجـال الوحـيد الـذي يتيح الاتفاق في وجهات النظر إلي موضـوع الدراسـة عن طريق الاتفاق فيما يؤديه الباحثون المختلفون من إجـراءات. فهو الاتفاق علي الطريقة التي تناقش بها الخلافات كي تحسمها كلمـا كان ذلك متيسرا. فهو إذن منهج ينتج محتوي معرفيا وشرطه إمكان تحقـق الموضـوعية التي يصبح تعريفها الإجرائي: ما يمكن الاشتراك في إنجازه أو سلوك نفس الطريق لبلوغ نتائجه، أي هي ما يؤسس خلال العمل المـتفق علـيه بيـن الباحثين، وهذا هو ما نجده في النموذج الناجح للعلوم الطبيعـية المنضـبطة. غـير أن العلوم الإنسانية أو الاجتماعية -والمعني واحد- تحاول أن تبلغ نجاح العلوم المنضبطة، ولا أقول احتذاءها، في بلوغ الموضوعية العلمية، ولن يتم ذلك إلا بتوفر شرطين:

١- التسـاوق أو الـتوافق المنهجي بمعني إمكان رد المناهج المختلفة حاليا فى العلوم الاجتماعية، وقابليتها للترجمة إلي خطوات وإجراءات يمكن

أن يؤديهـا أي باحث مهما أنكر المنحي أو الإطار النظري المرجعي الذي يقترح تلك المناهج المختلفة.

٢- الـتكافؤ القياسـي الـذي يعنـي الاتفاق علي التعريفات الإجرائية للمؤشرات الخاصة indicators بالمفاهيم المستخدمة، بحيث يمكن أن ننسـبها إلـي مقـام مشترك يتيح المقارنة الدقيقة علي أساس القياس بنفس الوحـدات. وعلـي هـذا الوجه ينتج المنهج نتائج نظرية يمكن أن يتجاوز بعضها البعض بحيث ينتقل العلم من مرحلة إلي أخري، ولا تتحول نظرياته إلي عقائد أو مذاهب تقترن بأسماء أصحابها، وروادها الأوائل.

وهنا يمكن القول بأن ما قدمه ماركس في كشف سر الإنتاج الرأسمالي مـن خـلال فـائض القيمة هو نظرية علمية تخضع لمعايير العلم، وبالتالي ليسـت فلسفة، وليست منهجا عاما، كما يؤثر بعض الماركسيين إطلاقه علي الماركسـية، فهـو قـول أشـبه بشعار "الإسلام هو الحل" من جهة التعميم الفضفاض الذي يضم كل شيء ولا يميز أي شيء.

ينبغـي إذن أن نفـرق في التراث الماركسي بين ما هو علمي وما هو فلسفي، فالفلسفة بطيئة النمو لأنها شديدة العمومية، بينما العلم سريع التطور وتنقلـب معارفه من فترة لأخري، وتتجاوز نظرياته بعضها البعض، وتفسح الطـريق أمام تغيرات أكثر استيعابا وصدقا. ودمج الفلسفة بالعلم فيما يسمي الفلسفة العلمية مخاطرة بالفلسفة والعلم معا، فالفلسفة حينئذ تفرض علي العلم أن يتريـث في تطوره بحيث تلائم خطواته قضبان الفلسفة الحديدية حتي لا يخـرج عـن الخط المرسوم الذي وضع تصميمه في مرحلة سابقة، وحسب العلـم فـي الفلسـفة العلمـية أن ينصـرف إلي مجموعة من الاجتهادات والتأويلات التي تدور حول النصوص الأصلية للموتي العظام.

فالـتوحد أو المـزج بيـن دوري الفلسفة والعلم لابد أن ينزلق بالتراث الفلسفي إلي التحول إلي لاهوت عصري. فالفلسفة العلمية تلفق بين وظيفتين متباينتيـن تلفـيقا قـد يـؤدي في نهاية الأمر إلي أن تبطل الواحدة مفعول الأخري. فهي تحاول الاحتفاظ بوظيفة الفلسفة كمجال يمكن أن يستمر ويدوم مادامت إطارا شاملا من الافتراضات الواسعة، والتوجهات النظرية التي لا تسـتوجب تحققا مباشرا يكشف في المدي القصير صحتها أو بطلانها، كما تـتدثر بـرداء العلم وتتشبث بطابعه التقريبي المتطور الذي يسمح لنظرياته

وقوانيـــنه أن تـــتجاوز بعضها بعضا لكي تبلغ صيغا أدق تفسيرا، أو أوسع احتواء لحالات متعددة متجددة.

وهـــي بذلـــك تفســـد الأمرين معا، فهي بوصفها فلسفة تعجز عن تقديم تجـــريد وتعمـــيم مشروع لأنها أثقلت خطوها، وضيقت من شمولها بتعلقها بصـــحة نظرية أو نظريات علمية معينة نجحت أو راجت في عصرها، أو بارتهانهـــا بقوانين محددة، أو التزامها الصارم بأدوات وقواعد منهجية كانت صالحة في عصرها.

ويقدم لنا تاريخ الفلسفة مثالا علي ذلك بفساد المشروع الكانطي في نقد العقـــل الخـــالص بقـــيامه علـــي مبادئ فيزياء نيوتن التي تقوضت دعائمها بضربات النسبية العامة للمكان والزمان المطلقين. ولا يعني هذا أن النموذج النيوتونـــي للطبـــيعة قد أعلن إفلاسه تماما، بل يعني أن النظرية النسبية قد تجاوزته، أي أنه صالح كحالة محدودة من حالات تطبيق النسبية، وإذا حاول الخـــروج إلـــي أبعد من ذلك يكون باطلا. وهكذا الحال في التحليل العلمي للرأســـمالية عـــند مـــاركس، يصدق علي حال الرأسمالية وأوضاعها التي عاصـــرها، ولكـــنه لم يعد صالحا لما تطورت إليه الرأسمالية بعد ذلك. وما دمـــنا قـــد اعترفـــنا بعلمية النظرية فلابد من الإقرار بقابليتها للتجاوز، وإلا جعلنا منها فلسفة أو لاهوتا.

ولأن الفلســـفة العلمـــية تستعير لنفسها صفة العلم، فقد فرضت عليه أن يكـــف عن اكتشاف الجديد، وعلي العلماء أن يصوغوا نتائجهم بحيث تتسق مـــع تـــأويلات الجهات العليا. وثمة نص موجز محكم لماركس في مقدمته للطـــبعة الثانية للمجلد الأول لرأس المال، قد يلقي ضوءا علي ما أود الدفاع عنه:

"بعـــد التقاط المادي بالتفصيل، وتحليل الأشكال المختلفة للتطور، وتتبع ارتـــباطاتها الداخلية، فبهذا وحده يمكن للحركة الفعلية أن توصف علي نحو ملائـــم، وإذا مـــا نجحنا في ذلك، أي إذا انعكست حياة موضوع بحثنا بشكل مثالي في المرآة، فإن الأمر يبدو وكأننا كنا نملك من قبل مجرد بناء قبلي"

يتبين من هذا النص مستويان:

الأول: هو مستوي منهج البحث والثاني مستوي طريقة العرض، وهذا الأخير هو الذي يوهم بوجود نموذج جاهز وسابق للمعرفة والبحث وصالح بالتالي لكل مكان وزمان، وهنا تبدأ الدوجماطيقيه الجامدة ويشرع الخلط بين

الفلســفة والعلــم، وتنشط القراءات الجديدة لكي تواصل نظريته العلمية، ولا أقــول فلســفته، حــياتها مع المعطيات الجديدة التي لم تعد تلائمها، بدلا من تجاوزهــا. أمــا المادية التاريخية، فليست بديلا لعلم الاجتماع أو أية علوم اجتماعية أخري لأنها أمشاج من فلسفة وجود تجعل الصراع طابعه الأصلي بيــن الإنسان والإنسان في مرحلة ما قبل التاريخ الإنساني حيث المجتمعات الطبقــية، وبين الإنسان والطبيعة عندما يبدأ التاريخ للإنسان بإلغاء الطبقات، ونظــرية معرفة واقعية، أي مادية، يسبق الوجود فيها الوعي ويقف مستقلا عنه، وفلسفة تاريخ تحدد له مسارا حلزونيا جدليا، بل ويغلق في نهاية الأمر دائــرة بــدأت بالشــيوعية البدائــية وتنتهي بالشيوعية. ولكنها أي المادية التاريخــية، تحمل في جوفها افتراضات واسعة يمكن أن يغزل منها فروض علمية لعلم الاجتماع والتاريخ.

ولا يــزعم التصنيف أو إعادة ترتيب ما يخص الفلسفة وما ينسب للعلم أنهما منفصلان لا شأن للواحد منهما بالآخر.

فالفلســفة دورها الخاص بالنسبة للعلم من حيث نقد هى دائم له، وطرح لمشكلات جديدة. كما أن العلم يؤثر في تطوير الفلسفة فى المدي البعيد، لأنه بــنقلاته الثورية يفضي إلي إعادة النظر في طرح المشكلات الفلسفية، علي الــنحو الــذي يكون فيه عاملا حاسما في تقسيم تاريخ الفلسفة إلي عصور متميزة.

وتبقــي كلمــة فــيما يختص بالإيديولوجية، فليست الإيديولوجية مجالا مســتقلا بيــن مجالات الفلسفة والعلم، فهي الوسط أو السياق الذي يحيا فيه منتج الفلسفة أو العلم أو أية ممارسة أخري، وتفيد في تفسيراتنا اللاحقة لهذه المجــالات والممارسات بعد إنجازها، كما أنها حافز يسبق أو يساوق الفعل الإنساني المبدع في كافة تحليلاته.

وأغلــب الظن أن أفضل مجال لدراستها هو علم اجتماع المعرفة حيث تذعن للبحث وفقا لأدوات العلم ومعاييره، بدلا من تنصيبها أقنوما، أو كيانا، أو حتــي شــبحا مــراوغا تقــام له الندوات والمؤتمرات، ويملأ الكثير من الصفحات والمجلدات.

ثانيا: ماركس واللاهوت الإنساني

لــيس حديثــنا الــيوم فقرة من فقرات برامج الاحتفال بسقوط الاتحاد الســوفييتي، لأن مــاركس الــذي يعنيــنا هنا ليس هو بعينه الذي صادرته السلطات السوفيتية علي نحو ما صودر أرسطو لحساب الكنيسة في العصور الوسطي، وكان الحرق علي الصليب جزاء من يقترف جريمة مخالفته مثلما حدث لبطرس الشهير بــالمقتول في تاريخ الفلسفة.

فلقــد كــان الاتحــاد الســوفييتي رأســمالية دولة فاشية ذات شعارات اشتراكية، وكانت تحكمه فئة من البورجوازية البيروقراطية التي تملك اتخاذ القــرار في استخدام أدوات الإنتاج لصالحها المباشر، ولو ظل ماركس حيا لأدانــه الســوفييت بــالارتداد عــن الاشتراكية العلمية، كما صنع لينين مع كاوتســكي قــائد الدولــية الثانية الذي أصبح اسمه رسميا المرتد كاوتسكي(لاحظ المصطلح اللاهوتي).

ولكنــنا نســتأنف ما بدأناه في حديثنا السابق "الماركسية: إعادة ترتيب" لنكشــف بعض ما يترتب علي الخلط بين اللاهوت والفلسفة والعلم في درس الــتاريخ. فــلا شأن لنا بماركسية الاتحاد السوفييتي، كما لا شأن في تقديرنا للديموقراطــية بســقوط مــا يسمى بالديموقراطيات الشعبية، كما لا علاقة للإســلام بــنجاح أو إخفاق الجمهورية الإسلامية في إيران أو أفغانستان أو موريتانيا والسودان، والقياس مع الفارق الهائل بطبيعة الحال.

١- العقل والمنطق

لــيس العقــل كيانا، أو عضوا، أو حاسة، والاستخدام اللغوي هو الذي يغرينا بهذا الاعتقاد، فالإنسان في عمليات الاتصال والتواصل داخل جماعته يســتخدم ألفــاظ اللغة التي تطورت عن الإيماءات والإشارات والصيحات. ونظمت نسقها الخاص للتعبير والتخاطب، كما حدث ما يماثل ذلك في سائر أنظمــته وأنســاقه الثقافــية أو الحضارية التي يرتب بها جوانب حياته في الأســرة أو الاقتصــاد أو الســلطة أو غيرها. وفيها تتحول وحدات التعامل الاجتماعية إلي مفردات للتداول والتواصل التي تحدد بدورها أسلوب التفاعل الاجتماعي.

فالإنســان يخــتلف عن الحيوان في تواصله مع أفراد نوعه باللغة التي هــي منظومة علامات أو رموز، علي حين أن الحيوان في تواصله يستخدم

أفعــالا حســية قريــبة الصلة بما يريد أن يبلغه لأفراد قطيعه أو سربه عن طــريق الحركات أو الرائحة أو الصيحات، وليس في وسعه أن يتعامل مع أشــياء الطبيعة أو يعبر عنها في غيابها. بينما يستخدم الإنسان الكلمات- أو الإيماءات- وهي نوع من التمثلات، أي إعادة الحضور أو استعادة المثول، أي الــتعامل مــع الغــياب بما يستحضره من أدوات الاتصال الرئيسية لدي الإنســان. ولكــل مجــال أو فاعلية إنسانية في زمن معين أو مجتمع بعينه الإطار الخاص للتواصل الذي يتطور ويتبدل بدرجة أو بأخري.

وتتراتــب أو تتصــاعد تلك الأطر التواصلية في درجة عموميتها حتي نصــل إلــي أكثر الأطر عمومية وتجريدا، وهو إطار الاستدلالات المنطقية الفارغــة مــن المحــتوي. والقابلــة من ثم للتطبيق علي كل مجال وفاعلية بموجــب اتساعها، وشمولها، وتجريدها، وهي تعني الانتقال من مقدمة إلي نتيجة تلزم عنها.

وهذه العملية، بما تتطلبه من شروط وقواعد وتعريفات هي التي نسميها عقــلا. ولأنهــا لا تتطور أو تتغير إلا عبر حقب زمنية متباعدة جدا، رسخ الاعــتقاد بأن لها منتجا هو العقل الذي لابد أن يكون واحدا، وثابتا، وأزليا، بينما هو الإطار أو النسق أو النظام الذي يتبوأ قمة أطر التواصل بين البشر بوصــفه أعــم القواعــد أو القــيود الملزمة لعضوية الإنسان الصحيحة في مجــتمعه، وإلا عــد مجنونا وأقرب إلي الحيوان. فهو إذن، كما يتجلي في مــنطقه، أدني إلي طبيعة اللغة، ولذلك يواصل الباحثون في الفلسفة والمنطق والرياضــيات جهودهم المضنية في صوغ تعاليمه التي لا تكف عن التوسع والشمول.

ولذلــك نجد تطورا في رموز المنطق وقواعده كما تتبدى عند أرسطو، ولينبــتس، وكانط، وهيجل، وأخيرا المنطق الرمزي، أي الرياضي. فالعقل إذن اسم يطلق علي مجموعة من الأنشطة والوظائف لأنه أعم قواعد التداول والتواصــل، ولــيس شــيئا فــي ذاته، أو جوهرا بعينه. وليس هو كما قال ديكــارت أعدل الأشياء قسمة بين البشر. واللغة المعتادة، أي اللغة الطبيعية، أو الشــيئية هي التي أدت إلي هذا الخلط، لأن هذا هو شأنها دائما لمحدودية قواعدهــا في الإعراب والتصريف. ولعل وصفنا لأمر من الأمور بأنه غير معقــول يكشف عن صحة ما ذهبنا إليه عندما نصف بذلك كل ما يخرج عن القواعد المألوفة التي يلتزم بها الجميع في أي مجال من المجالات.

فقوانيـــن العقـــل، إن صح أن له قوانين، هي قواعد أو معايير يمكن أن تطـــبق أو تخـــرق، وليســـت قوانيـــن علمية تصف وتفسر، بل هي قوانين تشريعية تبيح أو تحظر.

وتـــتطور قواعـــد شفرة العقل بوصفه أعم أطر التواصل وفقا لما يغلب علي مسار الثقافة، أي أسلوب الحياة الإنساني، من صبغة أو نزعة مركزية تحـــدد المنظور الشامل لعلاقة الإنسان بالطبيعة، وعلاقات البشر فيما بينهم. ويبدو هذا، علي سبيل المثال، في سيادة النظرة الإحيائيةanimism قديما بحيـــث يضفي الروح أو النفس علي كل كائنات الطبيعة، أو في غلبة النظرة البيولوجـــية التي تميز بين الفرد والنوع والجنس في كل الأشياء كما نجدها واضـــحة بـــارزة فـــي مـــنطق أرســـطو، وكذلك في تعقد النزعة الحيوية vitalism التـــي تفاضل بين الكائنات بحسب نزوع كل منها إلي كماله الخـــاص، ومن ثم يسمو كمال النوع الذي يشمل الأفراد علي كمال الفرد أو الشخص.

ويـــبدو هـــذا جلـــيا لـــدي هيجل في الصيرورة وتوحيده بين الشمول والعينـــية، كما تأثر كانط بالنزعة الميكانيكية التي سيطرت في عهده، ونجد في الفكر الإسلامي عند الفارابي وابن سينا وغيرهما هيمنة النظرة السلطوية التراتبية التي تقسم الكائنات إلي رؤساء وتابعين...إلخ.

فـــثمة إطـــار مرجعي يمثل الأفق البعيد الذي يحدد قواعد العقل أو ما يمكن أن يترادف مع المنطق بوجه أو بآخر. ولذلك نتوقع دوما تطور العقل وفقـــا لـــتطور الإطار المرجعي العام الذي لايظهر نفسه صراحة أمام الفكر والســـلوك الإنســـاني الواقعـــي. ويستغرق هذا التطور غير الملحوظ، زمانا طويـــلا بحيـــث لايـــبدو كتغـــير مباغت إلا علي مستوي التنظير الفلسفي والمنطقـــي. غـــير أن البشر العاديين يظلون في حياتهم اليومية وتصرفاتهم المعتادة علي ولاء للأساليب المنطقية السابقة علي التطور الجديد حتي يألفه أحفـــادهم بدرجـــات متفاوتة. والمنطق السائد الآن هو المنطق الرمزي أي الرياضـــي الذي يستجيب لمطالب التنظير العلمي الحديث، وهو بذلك أوسع وأقـــدر من أنواع المنطق الأخري التي عجزت عن فصل المحتوي المادي المعرفـــي عن الصورة المنطقية المجردة، وأصبحت تلك الأنواع السابقة من المـــنطق حالات محدودة من حالات تطبيقه. فالمنطق الأرسطي، علي سبيل المـــثال، يُستوعب كله داخل حساب الفئة في المنطق الرياضي، وبذلك تيسر

لهـذا المنطق أن يوسع من قاعدة الاستدلال بإضافته لحساب الفئات، حساب الـدالات، وحسـاب القضايا، وحساب العلاقات، وهو مايزال يتطور ويمتد. وعســي أن يصـلح مـا تقدم توطئة ومدخلا للحديث عن العلم والجدل لدي ماركس.

٢ - الجدل والعلم

عـندما يقول ماركس أو إنجلز أن التصور المادي للعالم يعني ببساطة تصور الطبيعة علي نحو ما هي عليه دون أية إضافة غريبة عنها، فإما أنه يعنـي شـيئا محددا، أو قد لا يقصد شيئا علي الإطلاق. فتفسيرها علي أن مـاركس يقـدم تفسـيرا أو تصورا conception (أي مجموعة من المفاهيم المترابطة) يحاول أن يفهم الطبيعة بمقتضاه دون أن يفترض كائنات زائـدة عـنها، هو قول لايضيف شيئا ولا يعبر إلا عن نيته ورغبته في ألا تكون مفاهيمه التي يفترضها قد انطوت علي ما هو أكثر من الطبيعة، وذلك لأنهـا رغبة يشارك فيها الناس جميعا دون استثناء، كما لا تفرق باحثا عن آخر، ولا تصف طريقة معينة من طرق البحث لأن أصحابها جميعا يتمنون ذلـك، ولكنهم يختلفون في تصوراتهم وفروضهم التي يقترحونها، ولابد من تحديد القواعد والمعايير المنهجية التي تتحقق بموجبها.

يبقـي إذن أن ماركس يعني بعبارته شيئا محددا يميزه عن غيره، وهو أن تصوره المادي يعكس الطبيعة بدقة وإحكام، وأن نظريته هي المعادل أو النظير الفكري للواقع الموضوعي.

غـير أن ذلـك يفترض أنه قد عرف مقدما وقبل البحث ما هو الواقع الموضـوعي، ثم قارن بين هذا الواقع الذي يعرفه سلفا وبين تصوره المادي فوجد أن ما يعرفه من قبل هو بعينه ما تصوره في نظريته، وإلا لما أصدر هـذا الحكم القاطع بأن التصور المادي الخاص به، هو تصور الطبيعة كما تكون عليه. ولكن كيف يتيسر لكائن ما أن يجمع بين علم الله الكلي الشامل، وبين اجتهاد الإنسان في محاولاته لبلوغ قدر من العلم؟

ألا تـنطوي تلك النظرة علي نزعة صوفية لاهوتية تملك اليقين الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؟

وربما يشرح الماركسيون تلك العبارة بأنها تؤكد فحسب أن التصورات الماديـة تشير إلي أمور ذات وجود موضوعي خارجي مستقل عن الإدراك

أو الوعي. حقا، هناك الموضوعات المستقلة عن تصوراتنا، ولكن من أدرانا بأن تصوراتنا عنها صحيحة؟

قد يكون الرد سريعا بسيطا: "حقيقة حلوي البودنج في التهامها"، وهي عبارة ماركسية مشهورة، وكأنهم بهذه الوصفة اليسيرة قد حلوا مشكلة المعرفة العلمية علي نحو نهائي قاطع.

إذن، إذا كان الأمر كذلك، فحقيقة الشمس هي ما نراه من قرصها المتحرك في السماء، وحقيقة النجوم هي تلك المصابيح الخافتة التي تنير قبة السماء، وحقيقة الرأسمالي هي منقذ العامل من البطالة...إلخ.

فالعلم لا يقوم علي هذا المعيار الساذج البسيط لأن موضوعات المعرفة ليست من هذا النوع الذي تحسم فيه الحواس والجوارح، ولابد أن نتعامل مع مقياس البودنج هذا علي أنه محض دعابة لا تليق بالعلم أو الفلسفة، وذلك لأننا لا نفهم شيئا من إدعاء مطابقة الواقع لأننا لا نملك مسبقا، أو ليس لدينا ما يحسم نهائيا فيما يكون هو الواقع، لنعود ونقارن أو نطابق بينه وبين فكرتنا عنه.

وقد وقع نيوتن في هذا الخطأ نفسه، ليس في إجراءاته العلمية ونتائجه النظرية، بل في تصوره أو فلسفته عن العلم عندما قال: أنا لا أصطنع الفروض وذلك لأنه كان مقتنعا آنذاك أن مفهومات نسقه أو نموذجه العلمي مستمدة مباشرة من الواقع أو خبرته اللصيقة به، أو هي مستعارة من التجربة. ولقد عرفنا فيما بعد أن مفهوماته لم تكن مجرد تجريد من خبرة حسية، بل هي ابتكار عقلي نجح إلي حين، حتي جاء آينشتين فأثبت أنه من الممكن لنا باستخدام مبادئ ومفهومات أساسية شديدة الاختلاف عن مبادئ ومفهومات نيوتن، أن ننصف المدي الرحيب الذي يشمل معطيات الخبرة، إنصافا يفوق كل حد إذا ما قورن بما قدمته لنا مبادئ نيوتن ومفهوماته.

وقد ترتب علي الاعتقاد بتطابق المفهومات العلمية مع الخبرة، انزلاق بعض الفلاسفة إلي استخلاص نتائجها بحيث أصبحت هذه المفهومات تعبيرا عن بنية الواقع نفسه أو ماهيته أو جوهره، بل وبنية العقل أيضا التي تقوم علي ضرورة باطنة لا تتخلف. فكأن القانون العلمي الذي يصوغه العالم في مرحلة من مراحل تطور العلم، باطن في الطبيعة نفسها بمقتضي ضرورة أرادها الله للعالم المخلوق علي هذا النحو، كما نجد مثل ذلك لدي المعتزلة في علم الكلام، أو أن القانون مفروض علي العالم وفقا لمشيئة الله التي

توجهـــه كـــيف أراد كما زعم الأشاعرة، بل إن نيوتن نفسه كان يعتنق ذلك الرأي في كتابه "المبادئ الرياضية للفلسفة الطبيعية".

وســـواء كانت النظرة إلي القانون أو المفهوم العلمي علي هذا النحو أو ذاك، فقـــد كانت نظرة متعجلة إلي تطور العلم جعلت من مرحلة من مراحل تطوره ختاما نهائيا للمعرفة، وتحولت فيه الاجتهادات الإنسانية، في المعرفة إلي أقانيم مقدسة.

ويكشف تطور المعرفة العلمية، وخاصة في الفيزياء النظرية بعد الثورة العلمـــية الثانية، أن علم الطبيعة(الفيزياء) ليس هو الطبيعة، وأن ثمة مسافة بيـــن الطبـــيعة والباحـــث في الطبيعة هى التي تسمح له أن يضيف فاعليته الخاصـــة فـــي البحث عن طريق افتراض نموذج أو بنية خاصة تري وفقها الوقائع. وتقدر أهمية ذلك النموذج أو تلك البنية باستيعابها لما هو مشاهد من تفاصيل عديدة حتي يأتي عالم آخر فيقترح بنية أو نموذجا أكثر استيعابا من الســـابق الـــذي برزت وقائع جديدة لاتقبل احتواءها داخله، وهكذا إلي غير نهاية منظورة.

فـــثمة مســـتويان، لكـــل منهما لغته الخاصة في التعبير عنه: مستوي الإدراك الحســـي، وملائمـــة اللغة الشيئية أو اللغة الطبيعية التي نتداولها في حياتـــنا اليومية، ومستوي التصور الذي يهدف إلي التحليل والتفسير، ويعتمد علي مفهومات أو تصورات ترتبط فيما بينها بعلاقات معينة تجعل منها نسقا أو نموذجـــا أو بنية. ولغته هي ما يمكن تسميته بما وراء اللغة(ميتالغة) أو اللغـــة الشارحة، ولأن هذه اللغة الأخيرة تستخدم في كثير من الأحيان ألفاظا مـــن اللغـــة الشـــيئية، فإنها عرضة للخلط بين المستويين، مستوي الأشياء، ومســـتوي معرفة الأشياء، فكأنها نوع من المجاز الأدبي الذي لايحمل قيمته الجمالـــية أو الفنـــية إلا إذا اندرجت مفرداته في نسق جديد وعلاقات جديدة بينها.

لذلـــك ينبغي لنا عند الحديث عن المعرفة العلمية أن نميز بين عالمين: الأول عالم الحس، أي عالم الأشياء والمعطيات الحسية، والثاني هو الصورة أو النســـق العلمـــي المعرفي الخاص بكل فرع من فروع العلم. فالذي تعنيه الفـــيزياء مـــثلا بوقـــوع حادث ليس هو العملية الفردية الفعلية للقياس التي تتضـــمن دائما عناصر عارضة وغير جوهرية، بل تعني في الفيزياء مجرد عملـــية نظـــرية يقينـــية(أي يقينـــية بالنسبة للعلاقات المحددة بين عناصر

النســق)، وهـــي بهذه الطريقة تستبدل بعالم الحس المعطي لنا مباشرة عن طـــريق أعضـــاء الحس أو أدوات القياس التي تدعم أعضاء الحس، تستبدل بعـــالم الحـــس هـــذا عـــالم آخر هو صورة العالم الخاصة بالفيزياء أو في الفـــيزياء. وهو بناء نظري تصوري، كما أنه بناء تحكمي إلي درجة معينة، ومبتكر بهدف تجنب طريق اللايقين الذي ينطوي عليه كل قياس فعلي، ومن أجل إمكان قيام علاقة متبادلة بين المفهومات العلمية.

ويترتـــب علي ذلك أن يكون لكل مقدار فيزيائي مقيس معني مزدوج، الأول هـــو ما يعطيه القياس مباشرة، أي ما يخضع للمشاهد الحسية، والثاني هـــو مـــا يكـــون مترجما في صورة العالم الخاصة بالفيزياء. ولاتشمل تلك الصـــورة المقادير التي تخضع للملاحظة فحسب، بل تنطوي علي مكونات ليس فيها سوي دلالة غير مباشرة لعالم الحس، وهي ما تسمي بالمفترضات constructs(وافـــق مجمع اللغة بالقاهرة علي اقتراحنا بهذه الترجمة فـــي الـــدورة الثانـــية والخمســـين٨٥-١٩٨٦) وهـــي التي لاتخضع بذاتها للملاحظـــة والتجريب المباشر، ولكنها ضرورية لتفسير الوقائع والمعطيات المشاهدة مثل الجاذبية والأثير وغيرهما.

وإذن يخضـــع المعنـــي الأول للغة الشيئية أي لغة التعبير عن الأشياء، بينما يتبع الثاني اللغة الشارحة، أي لغة التصور والتفكير في الأشياء.

وقـــد نضرب مثلا يوضح اللغة الشيئية واللغة الشارحة في رؤيتنا للون الأزرق في السماء أو المحيط، فهذه لغة شيئية، أما اللغة الشارحة، أي اللغة العلمية، فتتكر وجود ذلك اللون علي نحو ما تشاهده كيفيا وتحيله إلي أطوال موجية معينة.

ولقـــد صـــنع مـــاركس ما يشبه هذا إلي درجة كبيرة في تحليله للنظام الرأســـمالي وتصـــوره لمراحل تطور المجتمع عندما افترض نمط الإنتاج، والقـــوي المنـــتجة وعلاقـــات الإنتاج، والبنية، والبنية العليا، وفائض القيمة وغيرها فهي مسائل لاتخضع للمشاهدة المباشرة، ولكنها تشكل نموذجا يفسر كثيرا من الوقائع التاريخية بجلاء وبساطة. ولقد اعترف ماركس في مقدمته لـــرأس المـــال بأن أدواته المنهجية في تحليل التاريخ التي تقابل، كما يقول، الأجهزة المعملية في العلوم الطبيعية، هي التجريد، ولكنه ما لبث أن قال في مواضـــع أخـــري كثـــيرة إن مـــا افترضـــه هو اكتشاف للماهية والجوهر والعلاقات الباطنة الضرورية وهو مالا نوافقه عليه.

ويعنـــي هذا في نهاية الأمر أن العلم لايقدم صورة الطبيعة دون إضافة غريـــبة، بـــل هو نفسه إضافة غريبة عن الطبيعة. فلكي يعرفها، أو بعبارة أخـــري، لكـــي يســـلك الإنســـان فيها طريقه بنجاح، لابد أن يفرض عليها تصوراته الخاصة التي تتفاوت في درجة استيعابها ونجاحها، ولكن دون أن يـــزعم أن ما يقدمه من تصورات هي الطبيعة نفسها، بل هو مدي علمه بها الـــذي هو فاعلية إنسانية تنمو وتزكو إلي غير حدود. أما إذا اعتقد أنه يقول كلمـــته النهائـــية وأنـــه صوت الطبيعة ومرآتها فإنه ما يلبث أن يتحول إلي ضـــرب من اللاهوت أو الميتافيزيقا، ولذلك نجد أن ما يستمر من العلم هو المـــنهج الـــذي ينتج نماذج وأطرا متفاوتة، وليس المحتوي المعرفي بقوانينه ونظرياته.

ورغـــم أن مـــاركس قد رفض الميتافيزيقا إلا أنه استبدل بها ميتافيزيقا أخـــري، فمـــا رفضه من الميتافيزيقا متابعا بذلك هيجل، تصور العالم مشتتا مفـــرقا مـــتعددا، وساكنا مستقرا، وتصور الأشياء تامة ثابتة ويستقل الواحد فـــيها عـــن الآخر. بينما يري ماركس العالم علي نقيض ذلك، ويطلق علي نظريـــته الخاصـــة عـــن العالم المنهج الجدلي كما صنع هيجل من قبل، مع اختلاف بينهما في البداية أو الأولوية. فجعلها ماركس المادة، وانطلق هيجل من الفكرة. فالتناقض الباطن المحايث للأشياء هو طبيعتها وماهيتها ومصدر تطورهـــا بحيـــث يجعـــل من الأشياء عمليات في صيرورة. ويقوم المنهج الجدلـــي عند ماركس إلي جانب التناقض علي قانون تراكم التغيرات الكمية يؤدي إلي تحول كيفي، وقانون نفي النفي.

وهـــو لا يجعـــل منها خطوات تؤدي إلي المعرفة بقدر ما هي وصف للوجـــود (أي المـــادة التـــي هـــي في حركة) سواء في الطبيعة أو التاريخ الإنســـاني. وبضربة واحدة وحد ماركس بين طريقة فهمنا للأشياء، وأسلوب وجود تلك الأشياء.

أي أنـــه صـــاغ نظـــرية الوجـــود(الأنطولوجـــيا) ونظـــرية المعرفة (الابســـتمولوجيا) وكذلـــك المنطق في نسيج واحد. فكل ما هو واقعي هو عقلي وكل ما هو عقلي هو واقعي أيضا كما يقول هيجل، علي أن نترجمها في الماركسية إلي: كل ما هو موجود في الواقع يطابق تصور ماركس عن الواقع، وتصور ماركس عن الواقع يطابق ما هو موجود في الواقع!

وأظـن أن العـبارة الشهيرة: التصور المادي للعالم هو ببساطة تصور الطبـيعة علـي ما هي عليه دون إضافة غريبة عنها هي تنويع علي نفس النغمة.

فقوانيـن الفكـر الإنساني تتطابق مع قوانين الطبيعة وليس غير قوانين الجـدل أصـلح لهذا لأنها تقدم لنا الضمان الذي يشبه ضمان الصدق الإلهي عـند ديكارت الذي يكفل له ألا تكذب وقائع العالم مبادئ الفكر لديه. إلا أن ديكـارت رغـم طموحـه وغـروره المأثور عنه، كان علي غير يقين من التطابق بين المجالين، ولذلك التمس ذلك اليقين من صدق الله الذي لا يخدع عـباده. غـير أن مـاركس بيقينه الجدلي الراسخ استرد ذلك الضمان الذي اغتصـبه إله ديكارت من قبل وأحل مكانه(التناقض) ذلك الإله الصانع عند أفلاطون، والمحرك الأول، عند أرسطو. بل إن انجلس يزيد عليه في كتابه ضد دهرنج فيقول أن التناقض أيضا باعث الحياة، أي الخالق.

وكـان لابـد للتـناقض في هذا التصور الجدلي المهيمن علي الوجود والمعـرفة والحـياة، أن يـتجاوز دلالته المنطقية المعروفة ليسع كل شيء ويكـرس كتسـمية تطلـق علي أي اختلاف، أو تضاد، أو تميز، بينما كان المـنطق التقليدي الذي نستخدمه في استدلالاتنا وتفكيرنا قبل الهداية الجدلية، مقصـورا علـي وصف أحكامنا علي الوجود، ولم يكن صفة للوجود نفسه، فيكون التناقض بين قضيتين إذا اختلفنا في الكم والكيف معا فلا تصدقان معا ولا تكذبان معا في نفس الوقت، وبنفس الاعتبار.

ويعنـي التناقض ببساطة افتقاد الاتساق، والغريب في الأمر أن هيجل وهـو يعـرض منطقه أو جدله كان يقدمه بطريقة أراد لها الاتساق بالمعني المنطقـي المألوف حتي لا يتهمه قراؤه بالخرف والتخليط. غير أنه لم يكن فـي الحقيقة يقدم منطقا بقدر ما كان يقدم آراء علمية وفلسفية، وكان يستخدم أمثلة من الاحياء والكيمياء وغيرهما، فلم يقترح منطقا صوريا كما ينبغي أن يكون المنطق، بل اقترح محتوي وقائعيا منظورا إليه بطريقة مخالفة لطرق أرسطو وكانط.

والواقـع أن الجدل ليس موجودا علي نحو قبلي فى التاريخ أو الطبيعة لأن الإنسان هو الذي يصف الأشياء والوقائع والعلاقات بينها علي أنها مع، أو ضـد، أو نقيض، أو مختلفة، وهو الذي يغير في هذه الأشياء والعلاقات بينها.

فكأنـــه هو الذي يضفي الجدل علي عالمه وليس لنا أن نعود فنقرر أن العالم جدلي في جوهره وماهيته.

ولقـد احـتفظ هـيجل بـالحدود، أي المصطلحات والمقولات، والتي اسـتخدمها المـنطق التقليدي سواء عند أرسطو أو كانط، ولكنه حولها من طرفها إلي الطرف المضاد أو المقابل وليس النقيض دائما. أو بعبارة أخري نقل طرفي أية ثنائية معروفة في الفلسفة الواحد إلي الآخر: فالكم يؤدي إلي الكـيف، والماهـية إلـي الوجود والشكل إلي المضمون والعلة إلي المعلول والـذات إلـي الموضوع، إلي آخر كل الثنائيات علي أن يقبل اتجاه التحول عكس مساره.

فالـثورة الحقيقـية في الفكر تقوم علي إعادة النظر في كل هذه الحدود القديمـة التـي تلقاها هيجل بالقبول، وإنكارها واستخدام منظور مختلف له حـدوده الخاصـة ومفاهيمه، وليس مجرد قلب لما هو معترف به، فالحقيقي يصـبح زائفـا والـزائف حقيقـيا، والخطأ حقا نسبيا، والكم كيفا، والشكل مضـمونا، والظاهـر جوهـرا، وهكذا.. ومعني هذا أن جدل هيجل ومعه مـاركس لم يغير من الإشكالية القديمة للمنطق القديم، بل قدم أفكارا كان من الممكـن عرضـها بالمـنطق المعتاد، ولو حذفنا كلمة تناقض واستبدلنا بها اخـتلاف أو تعـارض أو عـدم تطابق لما فقدنا كثيرا في المحتوي المادي المعرفـي الذي قدمه كل منهما. بينما استطاع المنطق الرمزي أن يغير من قواعـد الاسـتدلال ويوسع من مجال تطبيقاتها. وقد قاوم استخدامه فلاسفة السـوفييت أول الأمـر بوصـفه منطقا مثاليا بورجوازيا ثم عدلوا عن ذلك واندفعـوا إلي دراسته والإسهام في تطويره، مما يدل علي أن الجدل لم يكن منطقا بديلا وإلا لكان فيه الغناء عن ذلك المنطق المشبوه الجديد. أما ما جاء به هيجل أو ماركس من جديد فليس هو المنطق، أو المنهج بل أفكار وآراء مذهبـية رفـيعة المستوي يقبل الكثير منها التدفق في نهر المعرفة الإنسانية الذي ترفده مساهمات غيرهما من المفكرين.

٣- التاريخ

لا مفـر من الاعتراف بأن التاريخ الذي حدث بالفعل ليس هو بعينه ما دونه المؤرخون، فما تزال الدراسات التاريخية تحمل طابعا أسطوريا بدرجة أو بأخـري. فالـتاريخ الفعلـي شبكة من التفاصيل والوقائع المتعددة مثلما

نحـــياها اليوم في عصرنا الراهن، ولكن عند تسجيله وتدوينه أو تفسيره يتم اختـــيار نـــاظم أو محـــور يضم تلك التفاصيل والوقائع في نسق أو بنية أو مراحل معينة...إلخ وهي التي تؤلف دلالة تلك الوقائع علي نحو ما يرتضيها المـــؤرخ أو الباحـــث. ولذلك تصنف تلك الممارسات الإنسانية أو تقسم إلي جوهـــر أو مفـــتاح رئيسي، وإلي أعراض أو تجليات تدور من حوله. ويتم الاختيار من بين تلك الوقائع والحوادث وكذلك الشخصات ما يصلح جوهرا أصـــليا أو نـــواة، أو بنية أساسية ما يلبث أن يصاغ غيرها حولها بوصفها أعراضا أو مظاهر أو نتائج.

وتعـــامل الحوادث التاريخية كما لو كانت برادة حديد مبعثرة لا تستعيد انـــتظامها فـــي دائرة المجال المغناطيسي إلا بقضيب ممغنط هو المحور أو الجوهـــر المختار، أو البنية المصطفاة التي يعدها كل مؤرخ أو باحث حقيقة موضوعية فرضت نفسها عليه، ومن ثم يعاد النظر، أو تراجع العلاقات بين هذه وتلك من الوقائع وفقا لكل تصنيف.

بعبارة أخري يمكن القول بأن الماضي البشري يصاغ بأسره كما تحكي الأسطورة التي توزع الأدوار الرئيسية والثانوية كما يراها الباحث. وتكتسب مصـــداقيتها بكـــثرة الـــتكرار والإلحـــاح، فذلـــك ييسر فهم شتات الوقائع والتفاصيل، كما يسلم إلي التعامل الهين المريح معها.

ولاريـــب أن هذه المحاولات التفسيرية لا تتكافأ جميعها في إتاحة الفهم الـــناجح لمســـار الـــتاريخ، لأنهـــا تتفاضل فيما بينها بحسب المنهج المتبع، والمنحي النظري المستخدم في التفسير.

ويتـــبع التفســـير العلمي ما يسمي بالمنهج الفرضي- الاستنباطي، فثمة فـــروض تعـــد مـــبادئ مـــنظمة للمعـــرفة المشتتة تجمع عديدا من الوقائع والمعطيات في نسق واحد يجعلها معقولة أو مفهومة intelligble. أي أن الوقائع والمعطيات المناطة بالبحث تحتل مواقعها من هذا النسق دون أن تخلـــف متبقيات خارجه. أما التبرير فهو التعسف في إقحام ما يخرج عن ذلـــك التعمـــيم النسقي بحيث تنفرط وحدته وتبرز منه زوائد متعددة. وربما يـــتخذ التـــبرير، من الناحية المنطقية، هيئة ما يسمي بالدور المنطقي، متي كانت أدلته وشواهده التي يحاول أن يثبت بها صحة مقدماته لا تقوم أو توجد إلا بافتراض صحة تلك المقدمات.

٤ – نهاية التاريخ

يتمــيز الإنسان عن الحيوان لدي ماركس في أنه لا يكتفي بإعادة إنتاج نوعــه كمــا يفعل الحيوان، بل يعيد إنتاج الطبيعة التى يغير منها في نفس الوقت الذي يتغير معها.

فهذا الإنتاج هو الذي يلبي به الإنسان حاجاته، ولكل مرحلة من مراحل تطــور المجتمع الإنساني أسلوب أو نمط إنتاج معين له وجهان: الأول هو القــوي المنتجة التي تتألف من أدوات الإنتاج والخبرة البشرية في ابتكارها واســتخدامها. والثانــي علاقــات الإنتاج التي تنشأ بين البشر أثناء الإنتاج، وتــتحدد فيها علاقات الملكية لأدوات الإنتاج، فالفئة التي تملكها هي الطبقة السائدة القائمة بالاستغلال، والأخري هي الطبقة الخاضعة للاستغلال.

ولا مــناص للبشــر في الإنتاج الاجتماعي لوجودهم من أن يدخلوا في علاقــات محــددة تكون مستقلة عن إرادتهم، وهي علاقات الإنتاج الملائمة لمرحلة معينة من تطور قواهم المادية للإنتاج. وتؤلف كلية علاقات الإنتاج البنــية الاقتصــادية للمجــتمع والأساس الحقيقي الذي ترتفع عليه بنية عليا قانونــية وسياســية، وتــتطابق معها أشكال محددة من الوعي الاجتماعي. ويشــرط أســلوب إنــتاج الحياة المادية عملية الحياة الاجتماعية والسياسية والعقلــية بوجه عام، فليس وعي الناس هو الذي يعين وجودهم، بل وجودهم الاجتماعي هو الذي يحدد وعيهم. وعند مرحلة معينة من التطور، تتعارض قوي الإنتاج للمجتمع مع علاقات الإنتاج القائمة.

وتنقلــب هــذه العلاقات من أشكال لتطور القوي المنتجة لتصبح أغلالا لهــا، وحينئذ يبدأ عهد من الثورة الاجتماعية، فتغيرات الأساس الاقتصادي تؤدي عاجلا أو آجلا إلي تحول للبنية العليا الهائلة بأسرها. ولابد دائما عند دراسة مثل هذه التحولات أن نميز بين التحول المادي للأوضاع أو الشروط الاقتصــادية للإنتاج، الذي يمكن أن يتحدد بموجب دقة العلم الطبيعي، وبين الأشكال القانونية، أو السياسية، أو الدينية، أو الفنية، أو الفلسفية، وباقتضاب الأشــكال الأيديولوجية التي يصبح البشر بمقتضاها واعين بهذا التعارض أو الصــراع الــذي قــد يحسمونه بالقتال(من مقدمة مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي).

ومــا دام المجــتمع منقســما إلي طبقات متعادية فلا يمكن أن تكون له أيديولوجــية واحــدة، بل لكل طبقة أيديولوجيتها، وإذا ما كانت الأيديولوجية

تحمـــل طابعـــا طبقيا محتوما، فإنه يؤدي بها إلي تحريف الواقع، أو الحقيقة حتـــي تلائم مصالحها الطبقية إما بحجب الحقيقة الموضوعية أو تشويهها أو إضـــفاء الخلـــود والأزلية علي أفكار الطبقة المعبرة عن مصالحها. بيد أن الأيديولوجـــيات الطبقـــية لا تـــتكافأ جمـــيعا في تعبيرها أو تشويهها للواقع والحقيقة، فإذا ما كانت الطبقة تؤدي دورا تقدميا من التطور الاجتماعي أي عـــندما تكـــون طبقة صاعدة لم تحكم بعد، فإنها لابد واقفة في صف الواقع الموضـــوعي حيث تقترب أيديولوجيتها من الحقيقة وتدنو من التعبير عنها. ولكن متي استنفدت الطبقة دورها التقدمي واشتبكت مصلحتها في صراع مع مجـــري الـــتطور، فإن وعيها يغدو وعيا زائفا، وتشرع في تحريف الواقع والحقيقة حتي يلائما مصالحها الطبقية المنهارة.

أما الماركسية، وهي أيديولوجية الطبقة العاملة، فهي أيديولوجية علمية وصـــادقة حتـــي الـــنهاية لأن الطبقة العاملة هي التي ستقضي علي النظام الطبقـــي الذي يشوه الحقيقة، ومن ثم فإن قدرة الأيديولوجية الماركسية علي التعبير عن الحقيقة الموضوعية باقية إلي الأبد في كل مراحل تطورها.

وأغلـــب الظن أن لهذه التصورات جدواها التي لا تنكر في بيان نسبية المعرفة ومحاولة تفسيرها. إلا أن الماركسية قد حلت مشكلة النسبية بطريقة غير نسبية لما تنطوي عليه من نزعة إطلاقية تشي بها أحيانا، وتصرح بها تمامـــا فـــي نهاية الأمر. فما تشي به هو أن ثمة مسارا محددا للتاريخ وله اتجـــاه واحـــد صـــحيح وغيره خطأ وانحراف وهو ذلك الذي تسلكه الطبقة الصـــاعدة فـــي كـــل مرحلة من مراحل تطور المجتمع قبل أن تبلغ السلطة والسيادة.

أمـــا ما تصرح به من نزعة إطلاقية فهو محطة الوصول النهائية التي تهـــزم عـــندها الـــبورجوازية علـــي يد الطبقة العاملة التي تقيم دكتاتورية البروليتاريا التي تحطم النظام الطبقي للأبد مفسحة السبيل أمام الاشتراكية ثم الشـــيوعية. ويظل السؤال مثارا، لماذا قدر للطبقة العاملة أن تنهي المجتمع الطبقي للأبد؟ ولماذا لايستأنف الجدل مسيرته ويخلق لها نقيضا جديدا؟

وعلـــي أية حال، فأيديولوجية الطبقة العاملة هي الماركسية، وهي العلم الموضـــوعي الصحيح لأنها تعبر عن اتجاه التاريخ الوحيد. ولكن لماذا تعبر أيديولوجـــية الطـــبقة العاملـــة عـــن المســـار الصحيح للتاريخ؟ لأن النسق الماركسي لفهم التاريخ هو الذي عين مراحل تطور التاريخ علي هذا النحو،

حســنا، ولمــاذا تكون الماركسية صحيحة؟ لأنها أيديولوجية الطبقة العاملة، ألــيس هــذا دورا منطقيا سافرا، لقد اختارت الماركسية أيديولوجية الطبقة العاملــة لأنهــا الأيديولوجــية التــي لن يتجاوزها التاريخ في نظرها، أما أيديولوجــيات الطبقات الصاعدة السابقة فقد تجاوزها التاريخ عندما تحولت إلــي طــبقات مــنهارة تقف ضد حركة التاريخ الذي تحدد طريقه، وتعينت محطــات توقفــه. فأيديولوجــية الطبقة العاملة هي آخر الأيديولوجيات لأن الأيديولوجــية نتاج لمجتمع تتنازع فيه الطبقات، وعندما تقوم الشيوعية فلن تكون هناك طبقات وبالتالي تختفي الأيديولوجيات.

ولكــن هل يعني هذا أن الماركسية ستختفي؟ هذا لم يصرح به أحد من الماركســيين، حقا سينقضي دورها بوصفها أيديولوجية ولكنها ستبقي.. هل تبقــي كــنظرية علمية؟ كلا بطبيعة الحال لأن النظرية العلمية تقبل التجاوز وليس هناك نظرية علمية صادقة علي الدوام، هل هي فلسفة؟ ربما أشك في ذلــك بحســب مــنطقها، لأن الفلسفة شكل من أشكال الأيديولوجية وسلاح طبقــي، وليست مهمتها تفسير العالم، كما صنع الفلاسفة من قبل، بل تغيير العالم كما تنص الملاحظة الأخيرة من الملاحظات عن فويرباخ، وإذا ما تم تغيير المجتمع وتحويله إلي مجتمع شيوعي لا طبقي فإنها لا تجد ما تغيره، إلا إذا فهمنا من تغيير العالم تطوير القوي المنتجة دون وجود علاقات إنتاج كمــا هــو الحــال في الشيوعية، أو صراع، أي استخدام العلم والتكنولوجيا ونشــر الفنون في مجتمع مستقر متوافق علي الدوام، تتطابق فيه حالة القوي المنــتجة مــع علاقات الإنتاج. ولابد أن تكون الفلسفة في هذا النظام فلسفة الســكينة والســلام والحياد، ولا أعتقد أن الماركسية بوصفها نظرية جدلية قائمــة علــي التناقض والصراع يمكن أن تحتفظ بدور ما في هذا المجتمع الشــيوعي الذي تؤكد مقدمه الضروري المحتوم حيث يختفى المثلث الجدلي المــأثور، ويــزول النفي، بعد أن أصبحت الشيوعية هي الإيجاب باعتبارها نفيا للنفي كما يقول ماركس في مخطوطاته لعام١٨٤٤.

إذن فالماركسية تكشف تاريخ الصراع الإنساني، وتدفع بهذا الكشف أو الوعــي إلــي التعجيل ببلوغ ملكوت الإنسان الحر، أو ملكوت الإنسان الإله الــذي تحــرر من كل صور الاغتراب، وصعد من مراحل ما قبل التاريخ الإنساني إلي التاريخ الإنساني الحق حيث الشيوعية، لغز التاريخ وقد تم حله كما يقول ماركس!

ولكن لماذا يصف ماركس المراحل السابقة علي الشيوعية بأنها لا تمثل التاريخ الإنساني؟ عم يتحدث إذن في تلك المراحل؟ إن الفرق بين تلك المراحل والشيوعية هو فرق في وضع إنساني استغلالي وآخر لا استغلال فيه. وإلا لكان الإنسان عنده هو الكائن الملائكي الذي لا يستغل أحدا، بينما الإنسان كما عرفه من قبل هو مجموع علاقاته الاجتماعية التي لابد أن تكون جدلية وبالتالي تقوم علي التناقض والصراع الإنساني، فلابد أن نستخلص منها أنه قد أوقف منهجه الجدلي عند حلول الشيوعية لأن الصراع مع الطبيعة لا يستحق أن يوصف بالجدل لأنه أمر يشترك فيه الإنسان والحيوان الذي يستهلك الطبيعة. كما أن أسلوب الإنتاج يقف في الشيوعية علي ساق واحدة هي القوي المنتجة، لأن علاقات الإنتاج هي التي تتحدد بملكية أدوات الإنتاج. وإذا ما طبقنا قواعد القياس المنطقية لوجدنا ما يسمي بمغالطة الحد الرابع، أي أن كلمة إنسان في تفسيره المادي التاريخي ليست بمعني واحد، فإنسان الأولي تعني الإنسان في التاريخ، أما إنسان الثانية في النظام الشيوعي فتعني مفهوما خلقيا، أو هو ما ينبغي أن يكون عليه الإنسان بعد أن يتخلص من النقص الخلقي الذي يتردي فيه عندما يشارك في الاستغلال. إذن فتاريخ الإنسان الإنساني ضرب من المجاز الأدبي.

فإذا ما أهملنا المجاز، وجدنا ردة خطيرة إلي مفهوم الإنسان الأصلي المبرأ من الرغبة في استغلال غيره، ذلك الكائن النبيل، الفرد، الحر، المبدع الذي يكون نموه الحر شرطا للنمو الحر لرفاقه من بني الإنسان. وربما كان هذا الحديث الشعري والافتراض المسبق للإنسان الأصلي مستعارا من الأيديولوجية البرجوازية التي يناصبها ماركس العداء.

ولا ريب أن توقف ماركس عند الشيوعية بعد أن وصفها علي هذا النحو يضعه إلي جانب المفكرين الذين أعلنوا صراحة نهاية التاريخ ماداموا قد تنبأوا بمرحلة ختامية سعيدة لا تنذر مطلقا بصراع لا ندري إلي أي مدي يقودنا.

وهو لا يعلن نهاية التاريخ، ولكن يبشر ببداية التاريخ الإنساني، ولكن أي تاريخ هذا، إنه مجرد استمرار وتراكم، وكما يقول انجلس أن "التاريخ مثل المعرفة لا يمكن أن يكتمل في حالة مثالية كاملة للإنسانية"، فهذا النوع من التاريخ الذي يبدأ من الشيوعية يماثل تاريخ الإنسان في الجنة الذي

يواصل اكتمال حالة المثالية بتحقيق رغباته السابقة التي ليس لها حدود ويكون الخلود كفيلا بتلبيتها.

وقد بدأ ماركس تصويره المادي للتاريخ بنقده للحالة الراهنة في عصره وانطلق منها إلي الكشف عن المراحل السابقة لها حتي بلغ نقطة البداية في الشيوعية البدائية ثم عاد فختم دراسته للرأسمالية بنبوءته لقيام الشيوعية وبداية التاريخ الإنساني، وأكمل بذلك دورة كاملة.

ويمكن أن نتبين في تصور ماركس للتاريخ وتقسيمه إلي ما قبل التاريخ الإنساني الحق شيئا يقربه من اللاهوت وإن كان إنسانيا علمانيا، لأن المسرح هو الأرض، ولكن الزمان سيكف عن التقلب بين المراحل الصدامية وفقا لحلقات اللولب الجدلية، فيعود الإنسان في الشيوعية إلي ذاته(قارن الروح المطلق عند هيجل) وينقضي الصراع بين الوجود والماهية، والحرية والضرورة، والفرد والنوع،... لا طبقات، لا استغلال، لا دولة، بإيجاز، فردوس ونعيم خالد!

فالإنسان بدأ في حالته البدائية، حالة الطهارة الأولي في الشيوعية البدائية، قبل أن يسقط في الخطيئة وينخرط في المجتمع الطبقي الذي يقوم علي الصراع والاستغلال عبر مراحل العبودية والإقطاع والرأسمالية.

وفي المرحلة الأخيرة تقوم الطبقة العاملة بدور المخلص الفادي التي تحرر الإنسان بمعاناتها من عبودية الوثنية السلعية وتقضي علي مملكة الشر والشيطان(الصراع والاستغلال) ليعود إلي الشيوعية في نهاية المطاف. فالشيوعية هي المبدأ والمعاد، وتكتمل بها الدورة حيث تضفي عليها كل النعوت المثالية بعد أن مهدت تضحيات الطبقة العاملة الطريق إليها، تلك الطبقات التي فوضها التاريخ لحمل الرسالة، والنطق بكلمته(اللوغوس) كما تجلت في أيديولوجيتها الموضوعية، العلمية، الصحيحة الموحى بها من الروح القدس!

وعلي أبواب الجنة علق شعار: لكل حاجته وليس ثمة شرطة أو محاكم أو جيش تهدد أحدا في الحصول علي حاجته وتحقيق رغبته، فهذه الهيئات هي أجهزة قمع الدولة التي زالت إلي الأبد.

وترى الماركسية أن التاريخ جدلي ويتخذ مسارا محددا فالبشر يصنعون تاريخهم الخاص ولكنهم لا يصنعونه اعتباطا في أوضاع

يختارونها بأنفسهم، ولكن في أوضاع أو شروط معينة مباشرة وموروثة من الماضي (١٨ برومير).

وما دامت الطبقة خاضعة لقوانين الجدل وكذلك الإنسان والمجتمع لأنها قوانين كلية ضرورية، فإن هناك دائما اتجاها واحدا صحيحا لمسار التاريخ. ولأن الماركسية تدرك الواقع علي نحو ما هو عليه، فهي إذن ترتحل مع أنصارها في ذلك الاتجاه الصحيح داخل العالم الذي يتحرك بهم في نفس الطريق الذي يسيرون فيه، بينما يمضي غيرهم في الطريق نفسه ولكن في الاتجاه المخالف الخاطئ.

فكأن هناك "اتفاق جنتلمان" بين الإنسان الجدلي والطبيعة؛ يعرف الإنسان قوانين الطبيعة وتتكيف الطبيعة مع غايات الإنسان التي هي جزء من الطبيعة نفسها.

ولا يخفي ما ينطوي عليه هذا التصور من دراما لاهوتية يمثل فيها الإنسان والطبيعة معا أدوارا مقررة أو مكتوبة من قبل في ماهية الطبيعة وماهية الإنسان التي قدرها الجدل الذي أعد للمؤمنين به والمجاهدين في سبيله جنة الخلد الشيوعية لا يمسهم فيها نصب أو لغوب من صراع أو استغلال.

وقد تقترب السوريالية من الماركسية في هذا الصدد. فالسوريالية تعني فوق الواقع وهي تلك المرحلة التي لم نبلغها بعد، وفيها سوف يتساوق الواقع واللاواقع في تلك السبيكة فوق الواقع، والوعي واللاوعي بعد أن اغتصب مبدأ الواقع والوعي نصيب اللاواقع واللاوعي فشوهت حقيقة الإنسان، ولابد لاستعادة التوازن الحقيقي من تغليب جانب اللاوعي علي جانب الوعي في المرحلة الراهنة حتي نبلغ في النهاية توازنا واستقرارا.

فعلي هذا الوجه نقد ماركس المراحل السابقة للشيوعية، المذاهب التي تغلّب أفكار البنية العليا علي علاقات الإنتاج المادية في البنية أو القاعدة في تحديدها للعوامل الحاسمة في تغيير الوضع الجائر للإنسان، ومن ثم توجه باهتمامه إلي علاقات الإنتاج المادية فيما قبل التاريخ الإنساني، ثم ما لبث أن جعل للبنية الفوقية الروحية في المجتمع الشيوعي النصيب الأوفي تعويضا للمؤمنين المجاهدين عن حرمانهم في الدنيا (أي البنية الأدني) من التفرد والإبداع الحر الذي كان أسيرا للوعي الزائف والأيديولوجية الحاجبة للحقيقة الموضوعية.

ففـــي كل هذا تتكشف الجوانب اللاهوتية في تاريخ ماركس وخاصة في تقسيمه للتاريخ إلي تاريخ يحتله النزاع والشقاق وآخر إنساني يعود بالإنسان إلـــي جوهـــره الحقيقـــي وبـــراءته الأصلية وتسود الحرية والمحبة وإشباع الحاجـــات جمـــيعا. فكأن المراحل الأولي هي عالم الدنس والخطيئة والثانية هي عالم السمو والطهارة، أو هما المدينة الأرضية والمدينة السماوية شرط أن يســـتبدل بمـــا هو إلهي ما يوصف بأنه الإنسان الإنساني الذي ليس هو الإنسان الحالي.

والواقـــع أن ماركس قد عاش في عصر كثر فيه القديسون والأنبياء من المفكريـــن والفلاسفة. ففضلا عن أصحاب اليوتوبيات والاشتراكيات الخيالية الذيـــن صـــب علـــيهم سخريته، كان هناك أوجيست كونت الذي تحدث عن المـــراحل الـــثلاث اللاهوتية والميتافيزيقية والوضعية وجعل الأخيرة ختاما نهائـــيا يتجلي فيها مجد العقل والإنسان حيث أعلن فيها دين الإنسانية. ولكنه أخفـــق فـــي التبشـــير بـــه لأن الناس لا يحبون أن يستبدلون دينا بدين. أما اللاهوت الذي يستخفي في العلم ويتخذ هيئة التنبؤ العلمي المدعوم بتفسيرات صـــائبة كثـــيرة لوقائع التاريخ، فإنه يقدم بها معجزاته الخاصة التي تسحر وتـــبهر وسرعان ما تعتنق كنظرية علمية لا تقبل التجاوز، أي خاتم العقائد التي لا يسعنا إزاءها سوي القبول، ثم التأويل، إن عجزت عن تفسير الوقائع الجديـــدة. وليس من قبيل المصادفات أن الماركسية قد حدث معها ما حدث للديانات السابقة عليها من نشأة طوائف أو كنائس متعددة خرجت عن التأويل السوفييتي وطردت من الحزب، وباءت بالحرمان الكنسي بعد اتهامها بالردة أو المراجعة، أو التحريف وكلها مصطلحات لاهوتية صريحة.

وأصـــبح الحديث في الماركسية أقرب إلي علم الكلام أو اللاهوت الذي يـــبدأه المتحدثون بنص من النصوص المقدسة ثم يسترسلون في حديثهم كما يشـــاؤون معللين ومؤولين: في الفلسفة أو الاقتصاد، أو الاجتماع، أو الفن، وقد اتخذ كل منهم عدته من نص يلائم موقفه، أو يقنع بالشرح علي المتون.



الفصل الثانى عشر

بعض تمارين النقد الثقافى فى الفلسفة

تمرين أول

العقـل فـي اللغة هو القيد والحبس، ومنه المعقل والاعتقال، والعقال، ويرادفه الحجر وهو الكنف والحصن، والنهي من النهي أي الأمر بالامتناع.

ويرتبط به الاعتقاد والعقيدة من العقد الذي يحيط بالرقبة، وكذلك العقدة، وأيضا اعتناق الرأي، إحكام الشد بالعنق.

ويتصـل بـه السبب والعلة، فالسبب هو الحبل الذي يربط بين الأجزاء ويصـل الأشياء بعضها ببعض، والعلة هي المرض الذي يلزم الفراش، وقد تنشـأ العلـة أيضا عن الحياة البيولوجية، أو التكرار المطرد، والانتظام في الوقوع، فكلمة عل، عللا، أو علا تفيد شرب الماء تباعا، أي تكرارا.

وعلـي أيـة حال، فإن هذه الأصول الحسية التي تجرد منها مصطلح العقـل والعلـية وما يقاربهما من ألفاظ تؤكد ما ذهبنا إليه لمكانة العقل من حيث بعده عما هو طبيعي، ودنوه مما هو ثقافي. فهو، إذن، وظيفة معيارية تعـبر عن الشركة والرابطة العامة بين البشر، وهذا من شأن الثقافة أصالة وامتيازا.

فهـو، وما يشتبك معه من مصطلحات أخري، ينبئ عن قواعد وشروط لابـد أن يلتزم بها عضو الجماعة لكي يجدر بعضويتها، ولا يترك متحررا من التقيد بها، وإلا أصبح خليعا منحل الصلة بجماعته، وفاقد الأهلية، بل لا يعترف به إنسانا يستوجب التكليف والمساءلة.

المعقولية والوعي

وربمـا لم يكن فيما قدمنا جديدا كاشفا، إلا إذا أقدمنا علي خطوة تالية، وهـي التـي تعنينا في شئون الفكر والنظر. وتتمثل تلك الخطوة في أسلوب

هــذا العقــل في إجراء فعله في تلك الشئون، وهنا يبرز مفهوم الوعي، وقد ينبغي لنا أن نعرض بين يديه أصله اللغوي، أو أرومته الثقافية بعبارة أدق.

فالوعــي والاستيعاب يرجعان في جذورهما اللغوية إلي الجمع والضم في وعاء واحد. فوعي، يعي، وعيا تعني الجمع في وعاء، وتشير، إذن، في تجــريدها وتعمــيمها تصعيدا من أصلها الحسي: الحفظ، والفهم، والقبول أو التسليم والاقتناع. أما الاستيعاب فمن عبأ التي تستخدم في التهيئة، والإعداد، والترتيب، والتجهيز (للحرب مثلا)، وكذلك من وعب يعب وعبا، أي أخذه أجمــع ولــم يــدع مــنه شيئا، وأوعب القوم أي خرجوا كلهم إلي الغزو، واستوعب أي أخذ الشيء كله، ومنها استوعب الحديث أي تلقاه واستوفاه... إلي آخر هذه المشتقات والاستعمالات.

نخرج من كل ذلك بأن إجراء العقل يعني أولا إضفاء الكلية والشمول. كما يدل ثانيا علي افتراض مسبق بأن ثمة ما هو أولي أو قبلي، أي يسلم به قــبل مــزاولة التجربة أو الخبرة. فكأن هناك ما يشبه الجهاز أو العدة التي يســتعين بهــا الإنســان فيما يعرض له من جديد في شئون العمل والنظر. ومعني هذا أننا لا ينبغي أن نستبعد من إجراء العقل أية محاولات للاستيعاب أو الوعــي تكــون ســابقة علي استخدامنا الحديث لمصطلح العقل، والعقلي والمنطقــي، وعلــي هذا يدخل في تقديرنا كل ما اتصل بالأساطير. فتاريخ المجتمعات أو الثقافات يبدأ بالأساطير، وهي نشاطات وعي أو عقل بوصفها اســتجابات معرفية منتظمة، ولا يراد لها عند أصحابها أن تكون خرافات أو أكاذيب، فلها رموزها، وعلاقاتها، ونسقها الخاص في ترتيبها. وتتفق جميعا، علي اختلافها، علي فرض شكل أو صورة إنسانية علي كل ما يواجه البشر مــن أحــداث ووقائع، ويصبح هذا الشكل أو الصورة أو الإطار الذي يؤديه العقل هو نفسه شكل وصورة وإطار العالم أو الواقع الموضوعي الخارجي.

ولايعــترف الإنسان، في كل العصور والثقافات، بما في هذا العالم أو الواقــع، مــن شئون مختلفة، ولا يحكم علي صدقها أو بطلانها إلا بقدر ما تحتل هذه الشؤون موقعا معينا في نطاق هذا الشكل أو الإطار.

ويعــتاد الإنسان في كل الأزمان والثقافات علي الاعتقاد بالمطابقة بين رؤيــته العقلية النسقية للعالم، وطبيعة العالم نفسها، وهذا هو ما نطلق عليه، فــي الفكــر الحديث، المعقولية، أي القابلية للإذعان للعقل. وهي التي نجدها تــتردد فــي مختلف المجالات المعرفية كالفلسفة والعلم وغيرها، فهي التي

يفرضها المفكر أو الباحث أو حتي رجل الشارع، علي موضوعات اهتمامه لكي يسهل معرفتها والتعامل معها.

وتقـوم المعقولـية بدورها في جمع ما تشتت أو تفرق من معطيات أو وقـائع أو حوادث، في نسق واحد يؤدي بتلك المتفرقات المناطة بالمشكلة أو الموضوع، إلي أن تتخذ مواقعها ومنازلها في هذا النسق دون أن تخلف أية متبقـيات خارجـه لكـي يفي بشرط الاستيعاب. وهذا نفسه هو الذي ينتج التعميمات، أو يكشف الأطراد، أي الانتظام في الوقوع.

الأقاليم الزمنية العقلية والعقلانية

وتسـود كـل ثقافـة، وفقا لما أسلفنا من دلالتها الرحبة، صبغة غالبة لتحقـيق المعقولـية، غير أنه في العلاقات داخل بنية الثقافة، كما أشرنا من قـبل، تتسلل المصالح والمطالب ومراتب الفئات والقوي المختلفة إلي تحديد مسـتويات التصـالح أو الاحتواء، والخصومة والصراع لمنازل أو مكانات المعقولـيات المـتفاوتة، وأنواعهـا وطـرائقها. فنجد داخل الثقافة الواحدة معقولـيات مخـتلفة تنتمي إلي مراحل مختلفة من تطور الثقافات. فمنها ما يـرتد إلي معقولية سابقة، ومنها أيضا من يستشرف معقولية مرحلة قادمة، وذلك بحسب المواقف المتباينة إزاء الواقع.

والواقع الواحد ليس شيئا متجانسا متماثلا بالنسبة إلي الجميع، لأنه ليس لحظـة ثابـتة تشاهد من موقع واحد ثابت. فمنه ما في سبيله إلي أن يذوي ويـندثر، ومـنه ما قد يبقي ويستمر، ومنه أيضا ما في طريقه إلي أن يبزغ ويظهر. هذا من جهة، ومن جهة أخري، تصطرع مراصد الرؤية لدي فئات وقـوي المجتمع، فمنها من لا يسعه إلا مشاهدة المندثر، ومنها من يقف عند الوضع الراهن، ومنها من يستشرف الجديد الناهض ويحرص علي استدعائه واسـتعجال قدومـه، وذلـك من وجهة نظر مصالحه ومطالبه الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

ومـن هنا تتوزع الأقاليم الزمنية العقلية التي يقنع كل من ينتسب إليها بمعقوليته التي يحقق بها أمنه وإيمانه العقلي، والمعني واحد في هذا الصدد. وهـذه المسـتويات العقلـية، أو مراحلها وأنواعها، توجد متوازية في الأمة الواحدة في العصر الواحد، وإن كان كل منها محسوبا علي مراحل تاريخية مـتفاوتة. ويترتـب علي هذا غياب وجود العقل الواحد في العصر الواحد

والـــثقافة الواحـــدة، رغـــم تسلط أحد هذه العقول، أو تلك المعقوليات علي سائرها. فنجد لدينا اليوم في بلداننا العربية عقولا أو معقوليات أسطورية، أو ســـحرية، أو لاهوتـــية، أو علمية في العصر الواحد الذي يضم أقاليم عقلية مختلفة علي امتداد الأمة الواحدة أو رقعتها المكانية.

أمـــا العقلانية فمن المصطلحات الذائعة الصيت، ولأنها أصبحت شائعة ويملك الجميع الإهابة بها، فقد أضحت تشير إلي مدلولات متعددة بقدر تعدد الداعيـــن إلـــيها. ولاريب أنها تاريخية، شأنها شأن المصطلحات جميعا التي يتداولها الناس في أزمان وثقافات مختلفة.

ولعل أبرز دلالاتها، وخاصة لدي من يستخدمها علي وجه العموم دون إشـــارة إلـــي نزعة معينة أو الالتزام بها، هي الإهابة بالعقل، والالتزام بما يملـــيه علـــيه من قواعد ومعايير في الفكر والسلوك. فهي مصدر المعرفة، ومعـــيار الحكم عليها في آن معاً. ويترتب علي هذا المدلول أن من يستخدم العقـــل عليه أن يرفض الوصاية علي أمور معرفته وممارسته بحيث لايلجأ إلـــي أية سلطة أو قوة تفرض عليه الإذعان، وتحول بينه وبين الاقتناع بما يفكـــر أو يصنع بنفسه، بما يفضي إلي إقرار مسئوليته عما يختار. فهي إذن تنكر الامتثال لأمور أخري تحكمها قواعد مخالفة لما يهدي إليه العقل، وتتيح للإنســـان رفض ألوان الوساطة المصطنعة بين مجالات التداول المغايرة بما من شأنه أن يحقق القدرة علي توجيه النقد إلي كل ما لا يخضع لفهم الإنسان والاقتناع به وتفسيره، وهذا دون مراء أمر مرغوب محمود.

وهـــنا يقفـــز سؤال: أية عقلانية نقصدها، وأية معايير نلتزم بها، وهي التي تخفي افتراضا مسبقا بأنها مسلم بها ومتفق حولها؟

ولا مفـــر، للإجابـــة عن ذلك السؤال، من مواصلة التنقيب في دلالات العقلانـــية التي تقترب بنا من مسائل فلسفية وكلامية (أى لاهوتية) بعيدا عن دلالتها الشائعة.

والعقلانـــية، أو الـــنزعة العقلية، أو المذهب العقلي قديم، وترد أصوله الصـــريحة إلـــي مـــدارس إغريقـــية مـــتعددة عـــند الإيلين والفيثاغوريين وانكســـاجوراس وأفلاطون، ولكنها في تراثنا الإسلامي العربي تنتسب إلي المعتزلة، وبعدها فلسفة الفارابي وابن سينا وأخيرا ابن رشد.

وعقـــب عصـــر النهضـــة الأوروبية، نجد أعلامها البارزة متمثلة في ديكارت أولا، ثم ليبنتس وسبينوزا وكانط وهيجل.

فأمـــا المعـــتزلة، فـــنجد عندهم، في نطاق أصولهم الخمسة المعروفة، إلحاحـــا علـــي معـــيار العقل في أصل العدل، والعدل عندهم هو ما يقتضيه العقـــل من الحكمة، أو صدور الفعل علي وجه الصواب والمصلحة، وربما كان العدل لديهم شاملا لكل آرائهم، ومتضمنا إياها.

والعقـــل فـــي نظرهم هو أول مقتضيات التكليف، وأهم مظاهر اللطف الإلهي، وهو الكاشف عن وجوه الحسن والقبح في كل فعل، والحكم بالحسن أو القـــبح في الأفعال لايرجع إلي أن الله سبحانه أراده (أي الحكم) علي هذا النحو، بل لأن الله أراده لما يحمله الفعل من صفات ذاتية فيه، أي لأنه حسن أو قبيح في ذاته.

أما في أوروبا وخاصة في فرنسا لدي ديكارت فقد انبثقت العقلانية من المطلـــب الجديد لعصر النهضة، وهو مطلب المنهج الخليق بإعادة اكتشاف العـــالم والإنســـان، أي الأداة أو الأسلوب أو الطريقة التي بموجبها يتم إنتاج المعـــرفة الجديدة بعد أن أصاب المعرفة عقم التشبث بمعلومات قديمة جري تكريســـها وتقديسها، ولم يبق للإنسان سوي حفظها وشرحها والتعليق عليها. ويشبه هذا ما كان عليه نظام التعليم لدينا في الأزهر، وهو نموذج الجامعات الأوروبـــية مـــن بعـــده في العصور الوسطي، فالنص أو المتن، أي الكتاب الأصـــلي المكـــرس للحفـــظ والـــنقل، يستولد منه شرح، وحاشية، وتعليق، وتقرير، ويغدو الكتاب أربعة كتب تسبح بحمد المتن الأصلي.

والعقـــل، إذا عدنا إلي ديكارت، أعدل الأشياء قسمة بين البشر، والمهم هو حسن استخدامه بالمنهج الذي يعني لديه استخراج ما ينطوي عليه العقل من أفكار فطرية يستولد منها المعارف جميعا.

ويـــبدو أننا في مصر قد ارتبطنا بالتراث الفرنسي، فاتخذنا من ديكارت مصـــدرا ونموذجا نحتذيه ونستخدم مصطلحاته أحيانا كثيرة. ومن ثم كانت العقلانـــية التـــي ارتضـــيناها عنوانا علي ما ينبغي أن يكون عليه المنهج. فأصـــبحت العقلانـــية تعنـــي التحســـين والتقبيح العقليين كما آثرها رفاعة الطهطـــاوي ترجمة بديلة للمنهج الذي انتشر مصطلحه في فرنسا إبان إقامته فيها.

ولعـــل الســـببين أو المبررين لإيثار العقلانية في كتابات نهضتنا هما: الأول، التراث المعتزلي وكذلك الفلسفي الإسلامي بوجه عام، والسبب الآخر هـــو اقترابـــنا من التفكير الفرنسي أو النموذج الفرنسي، خاصة أن اتصالنا

بالغـــرب بدأ بفرنسا بالحملة الفرنسية أولا، ثم عزز ببعثات محمد علي ومن جاء بعده.

فالمســـألة، إذن، ســـواء فـــي أوروبا، أو في مصر بعد عدة قرون، قد تعلقـــت بالمـــنهج الـــذي اتفـــق فيه ديكارت مع بيكون الإنجليزي لأولويته وضــــرورته إزاء ســـطوة محفوظ النصوص القديمة في العصور الوسطي. وضـــد سلطة الفكر الديني التي تسعي إلي استئناف مرحلة سابقة من مراحل التاريخ، أو الحفاظ علي مصالح مناوئة لقوي التقدم البازغة.

ولعـــل مـــن الأفضـــل، هنا، أن نفرق بين المنطق والمنهج في مساق مناقشتنا للعقلانية.

فالمـــنطق هو الذي تتحدد به قواعد الاستدلال التي هي مضمون العقل كما قدمنا، أما المنهج فهو الإجراءات والخطوات التي تمارس للوصول إلي اكتشاف جديد لم يكن في حوزتنا من قبل استخدام المنهج.

فالمنطق إذن هو ما يتيح لنا أن نعرض أدلتنا للغير، وأن نحاول إقناعهم بهـــا، فهـــو إذن عـــرض وإقناع، أي بيان وبرهان معا، وليس من وظيفته اكتشـــاف الجديـــد إلا بقدر المعاونة عليه، فهو بالتالي متضمن ومنطو داخل المـــنهج. أي أن المـــنهج يفترض وجوده داخله بوصفه نمط استدلال، وليس خطـــوة للاكتشـــاف. ولقد أوشكت الحكاية القديمة أن تختفي، تلك التي كانت تقســـم المـــنهج إلي نوعين هما الاستنباطي والاستقرائي، حيث يعني الأول اســـتخلاص النـــتائج التي تنطوي عليها المقدمات أو المبادئ أو الكليات أو الفـــروض الأولـــية. علي حين يشير الثاني إلي الاتجاه المضاد الصاعد من التفاصيل والجزئيات إلي ما يضمها في قانون أو قاعدة أو مبدأ، أي الانتقال مـــن الجزئيات إلي الكليات. والواقع أن الاستنباط والاستقراء ليسا منهجين، بـــل همـــا نمطان من أنماط الاستدلال، ولقد رسخ، عبر الدرس أو التراث الفلســـفي، الـــترادف أو الـــتكافؤ بين العقلانية والاستنباط، باعتبار أن العقل يحمـــل في جوفه المبادئ الكلية الأساسية، وعلي العاقل أن يستخرج منها ما يلزم عنها أو ما تتضمنه من تفاصيل أو جزئيات.

ويسلمنا هذا إلي الاعتقاد أو الزعم بأن العقل، طالما كان واحدا مشتركا بين البشر، فإن استخدامه علي أفضل وجه سيفضي بالضرورة إلي نتائج لا يختلف عليها الناس جميعا، ومن ثم تتحقق الموضوعية تلقائيا بإنجاز الاتفاق بيـــن الذين ثار الخلاف بينهم أول الأمر، وهذا هو ما يطالعنا صريحا معلنا

لـــدي ديكـــارت وليبنـــتس وكـــانط وهيجل وسائر العقلانيين، علي اختلاف نزعاتهم الميتافيزيقية.

مزالق العقلانية ومخاطرها

وعلـــي هـــذا الوجـــه، لا يتيســـر لنا تجنب مزالق خطيرة في استخدام مصـــطلح العقلانية، وذلك لأنها تفترض منذ البداية أن ثمة أفكارا أو مبادئ أو تصـــورات أساسية صحيحة هي الأصل والمصدر الذي ينبغي أن نستمد مـــنه ما يضمره من نتائج لابد أن يذعن لها الجميع باعتبارها حقائق يقينية، وإلا كانت آراؤنا ومواقفنا زائفة خاطئة.

فإذن، شرط صحة العقلانية هو صحة مبادئها، وصحة مبادئها مردودة إلـــي عقلانيتها، أي أنها صحيحة لأن العقل يمليها علينا. ومن هنا، نتبين ما يســـمي بـــالدور المنطقي في الاستدلال الذي يتوقف بمقتضاه ثبوت النتيجة علي ثبوت المقدمة، وثبوت المقدمة علي ثبوت النتيجة. كما تطل المصادرة علـــي المطلـــوب برأسها إلي جوار تحصيل الحاصل! لأن معناها في نهاية الأمـــر أن نفض مضمون المبادئ الأولي التي افترضناها وحظيت من قبل بالتأييد والاقتناع.

ويُخشي أيضا، إذا ما ألححنا علي أهمية العقلانية، أن يتولد الاعتقاد بأن ثمـــة مـــبادئ مفطورة فيما يسمي بالعقل، وهي التي تستمد مشروعية الزعم بوجودها أو قيامها بالعقل لأنها لا تحتاج إلي التجربة أو الخبرة أو الممارسة فـــي الـــتحقق مـــن صدقها وصلاحيتها، وهي التي يطلق عليها في الفلسفة القضـــايا الأولية أو القبلية التي نسلم بصحتها قبل التجربة، ولا تتطلب حينئذ تدعيم صدقها بالممارسة لأنها أولية تسبقها (أى الممارسة) في الرتبة، سواء من جهة المنطق أو الوجود.

بيد أن الأمر لايجري علي هذا النحو، فالأشياء جميعا تحدث في خضم أو سديم ثم يتناولها الإنسان، المشروط بالزمان والمكان والمصلحة والعقلية، فيعـــيد تصـــنيفها وترتيبها وفقا لخانات وأولويات ليست أصلا في الأشياء، ولكـــنها تنتمي إلي عالم الإنسان المصنوع المتغير. وعندما يتم للإنسان ذلك التنضيد الذي يجريه علي منوال كلية أو شمولية، أي معقولية معينة، يكاد أن ينســـي أنهـــا مـــن صنيعه، ويعتقد، من ثم، وبيقين، أنها من خصال الأشياء نفسها، فيعيد ترجمة العالم أو الواقع حسب لغته الراهنة.

ولقــد قال بعض فلاسفة العلم إن تاريخ العلم، وهو قمة شؤوننا العقلية، لــيس ســوي تــاريخ مقاومــة الوقــائع للنماذج، أي الكليات والشموليات والمعقوليات، كما أوضحنا من قبل.

فالذيــن ينكرون القول بإضفاء الكلية من عندنا، دفاعا عن الاعتقاد بأن ثمــة موضــوعية خارجــية هناك، لا يختلفون عنا إلا فيما يشترطون لهذه الموضــوعية أن تجري، وفقا لكليتهم ومعقوليتهم هم أنفسهم التي يزعمونها، ومــا يقولونــه بوصــفهم واقعيين علميين لايعدو أن يكون نوعا من المثالية المستترة العنيدة، بل والفاشية، رغم استنكارهم لشيطان المثالية، وأقصد بهم جمهرة غفيرة من الماركسيين.

وشأن العقلانية شأن النزعات الفلسفية أو الآراء والنظريات بوجه عام، قــد تقــوم بوظــيفة ثورية في مرحلة، ولكنها قد لاتكون كذلك في مراحل أخري.

فنحــن، مــثلا، لانزال نتطلع إلي مراحل معينة في تاريخ الغرب، ولا نواصــل الــنظر إلي مآلها فيما بعد. فقد قدم ديكارت عقلانية، انقلب عليها كــانط، وما لبث هيجل أيضا أن قوض ما جاء به كانط، وهكذا تتقلب علينا العقلانيات التي ادعي كل منها بلوغه قمة المرتقي. كما أننا نبتهج بالمعتزلة فــي صعودهم، ولا نواصل تأمل صنيعهم في بغداد إبان محنة خلق القرآن. فالمصطلح من عمل البشر، ويجري عليه ما يجري عليهم من تغير وتفاوت، والوقــوف عــنده يلزمنا أن نصرح بأية دلالة، وأية معايير، وعند من ممن استخدموه.

وقــد يــؤدي ذلــك إلي الاختلاط والتباين والنزاع داخل الدائرة الخانقة للمصطلح الواحد، والأفضل منه أن نغترف من معين اللغة الفسيحة ما يحدد لــنا بدقة ما نطلبه من المصطلح القديم الذي ابتذلته كثرة الاستعمال لأهداف متعارضة. فلقد بدت العقلانية مفتاحا عموميا لجميع الغرف، ووصفة مجربة لحــل كــل ما يحز بنا من مشكلات، بينما اللغة تفتح كنوزها الرحبة أمامنا لنخــتار منها، ونصوغ ما نشاء، لكي نطمئن إلي دقة ما نرمي إليه، ونجلوه أمام غيرنا، ليفهموا عنا بأوضح بيان.

والمنشود، إذن، هو تفكيك مصطلح أو مطلب العقلانية ليغدو عملة قابلة للتداول، وذلك بأن نصرح ونعلن الأهداف الحقيقية التي تغرينا باستخدام ذلك

المصطلح اليتيم وأن نضع مصطلحاً خاصاً لكل هدف منها، مستقلاً عن ذلك اللفظ المبذول المملول.

فينبغـــي لنا، إذن، أن نصوب نحو مطالبنا مباشرة، وهي حرية البحث والحوار، ورفض الوصاية الفكرية، والمواجهة الجسورة لمشكلاتنا الحقيقية، وإعلاء كرامة المواطن.

وربمـــا تيســـر لنا إيجاز ذلك كله في الدعوة إلي نبذ مواجهة التحولات والمتغيرات الجديدة بوصفات جاهزة قديمة.

تمرين ثان: مستقبل الفلسفة في القرن الراهن

يحيط بالفلسفة في وطننا العربي الكثير من سوء الظن، كما يكتنفها قدر أكبر من الغموض والالتباس، ومن ثم تتباين المواقف منها.

– ومن أبرز تلك المواقف وأشدها انتشارا موقف الاستنكار والازدراء، فـــالهجوم أفضـــل مـــن الدفاع، ونفض اليد من الوقوع في حبائلها المعقدة، واعتذار هين يسير يأمن لصاحبه الانصراف عن الدعوة إلي المشاركة فيما تدعو إليه من حوار.

– وموقف آخر لا يقل عن سابقه في سوء طويته، هو إضفاء هالة من التوقـــير والاجـــلال لـــبعض مسكوكاتها الاصطلاحية المترجمة حديثا إلي العربـــية، ويستخدمها البعض من مسطحي الفكر بوصفها نوعاً من السيم أو الـــرطانة التي يحسبون أنها تطيل من قاماتهم القصيرة، وتعيرهم هوية زائفة بالانتماء إلي ما يشبه النحلة السرية المضنون بها علي غير أهلها وخاصتها مـــن المترددـــين علـــي المقاهي والمنتديات، والمسودين لصفحات النشرات الدورية.

وهـــناك موقـــف مـــن بعض من تلقي بعض دروسها في مصر أو في الخـــارج، وهو موقف قلة من الأكاديميين الذين رشحتهم في الدخول في هذا الســـلك الممتاز قدرتهم علي الحفظ والصم والاستظهار، ولم يشغلهم، لضيق ذات الموهـــبة لديهـــم، ولهفتهم علي الشهرة ولفت الأنظار، استيعاب وظيفة الفلســـفة، بل شغلتهم ذواتهم المنتفخة التي انتهزت حالة الجهل العام، وغياب القضـــية القومـــية المشتركة لدي الجماهير البسطاء، انتهزت ذلك لكي تثير صـــخبا وضجة عالية حول قضية زائفة، هي دق طبول الحرب علي الفكر العالمـــي، وإعلان الحاجة إلي فلسفة مصرية أو عربية، والعجيب في الأمر

أنـــنا لـــم نتلق منهم حتي اليوم موقفا فلسفيا محددا، وكأن موقفهم هو مجرد الإعلان عن حاجتنا إلي فلسفة خاصة وكأن هناك من يمنعهم من صنعها!

وهـــذا هـــو اجتهادهم الوحيد الذي يشبه قول المهزوم ارفعوه من فوقي وإلاّ قتلـــته! بيـــنما الأولـــي فقط بهؤلاء أن يصنعوا فلسفة إن كان ذلك في وسعهم.

فلـــم يطالب الفرنسيون قبل ديكارت بأن يصنعوا فلسفة فرنسية، كما لم يصـــنع الانجليز ذلك قبل بيكون، أو الألمان قبل ليبنتس، أو الهولنديون قبل سبينوزا... إلخ.

فمـــا نســـميه فلسفة فرنسية هو ما قدمه الفرنسيون من فلسفة، والفلسفة البريطانـــية هي ما قدمها الفلاسفة البريطانيون وهكذا. وليس ثمة ما يمنعنا من التفلسف، كما أننا لا ننتظر من جهة ما الإذن بالبدء في عمل الفلسفة.

والهوية ليست مطلبا بقدر ما هي وصف لما نقدمه وما نضيفه، وليست إعلانـــا لمـــن يأنس في نفسه القدرة علي دخول مزايدة أو مناقصة في حلبة سجال عدته الميكروفونات ومداد المطابع.

– وعلي الطرف المقابل نجد موقفا متطفلا على بعض الآراء المجتزأة أو الاصطلاحات المجازية لدي بعض الفلاسفة الغربيين. فيفرح بها البعض ويعلكها ويلوكها. ومن أبرز هذه المصطلحات الرنانة موت أو نهاية الفلسفة، ومـــا يجـــري مجـــراها مـــثل موت أو نهاية الفن، والأيديولوجيا، والتاريخ وغيرها من نظم الثقافة الإنسانية ومجالاتها.

– أما الموقف الخامس والأخير من الفلسفة فهو موقف مجتهد لا تشوبه مظـــنة ســـوء، ولا تقوم مشكلته في دوافع صاحبه أو ما يقدح في تمكنه من اللغـــة العربـــية أو الأجنبية التي ينقل عنها، بل تنشأ مشكلته من أن الفلسفة عبر خمسة وعشرين قرنا قد استحدثت استخداما بعينه لألفاظ معينة من اللغة المعـــتادة التـــي ظـــل لها معناها اللغوي المختلف عن الفلسفي. ولذلك نجد باحثيـــن علي مستوي رفيع، خارج مجال الفلسفة، يخلطون في دلالات تلك المصـــطلحات لأنهم يركنون إلي الدلالة المعجمية التي تختلف كثيرا أو قليلا عن الدلالات الفلسفية.

ولعل حالنا يختلف عن باحثي الغرب الذين أتيح لهم القدرة علي التمييز منذ باكورة تعليمهم بين الدلالتين المعجمية والفلسفية لأسباب تاريخية تربوية معلومة، ومن أهم هذه الأسباب تواصل التراكم المعرفي لديهم وهو ما نفتقده

بعـد أن توقف الإبداع الفلسفي العربي منذ ابن رشد، وانتقل الإنتاج الفكري إلي حاضنة جديدة لا تكتب بالعربية، فانقطع الحوار الخلاق.

ما الفلسفة؟

وعلـي أية حال، فأمر الفلسفة أيسر من هذا كله، فهي ليست علما يقف علـي قـدم المساواة مع سائر العلوم كالفيزياء والكيمياء أو علم النفس وعلم الاجـتماع، لأنها لا تسلك منهج العلم الموضوعي الذي يتخذ الفروض سبيلا إلـي تحقـيق نـتائجه بين من يستخدمون أدواته ليبلغوا اتفاقا حول ما كانوا يخـتلفون فـيه. وليست تخصصا يعالج موضوعات بعينها دون غيرها، ولا يقربه إلا من أتقن وسائله وتقنياته.

غير أننا ينبغي أن نعترف بأن الفلسفة حتي منتصف القرن التاسع عشر كانـت تعنـي ذلك قبل الغلبة النهائية لتقسيم الأعمال والتخصصات، وتحديد مجـالات المعـرفة ومـناطق نفوذها. فقد كان العلم من قبل تخصصه في أحضـان الفلسـفة، وكانت الفلسفة من قبل في ظلال الدين، وكان الدين فى الماضى قرينا لنظم السلطة والرقابة والوصاية القديمة.

كمـا ينبغـي لـنا أيضا الإقرار بأنها رغم استقلالها اليوم فهى ليست معزولة عن كل هذه الأمور، بل هي موثوقة الصلة بها، ولكن دون تبعية أو هيمنة لأن لها شأنا آخر.

الفلسـفة نظرة شاملة تحيط بكل جوانب الفاعلية الإنسانية فكرا وسلوكا. وإذا كان في وسع العلوم أن تقول شيئا في جميع موضوعات المعرفة، فإنها تقـف عند تخصصاتها لا تعدوها، كل عند موضوع معين، ولابد أن نكون فـي حاجـة إلي من يضم شتات هذه الموضوعات جميعا في وحدة أو في موضـوع واحد، يتخطي به تفصيلات عناصره، ويعقد بينها الصلات ويسد الفجوات. فالعالم، أو الوجود، أو الحياة أو الواقع بكل جوانبه، والإنسان بكل ضـروب نشاطه، لا يمكن أن يكون موضوعا لعلم من العلوم. كذلك البحث فـي أصول تلك العلوم من افتراضات سابقة وأسس منهجية يسلم بها الباحث العلمـي وقـد لا يصـرح بها في عمله، ليست من شأن العلوم، فضلا عن الاسـتباق إلـي مـا يمكن أن تفضي إليه نتائج العلوم في المستقبل بالنسبة للإنسان وعالمه.

وســتظل الفلســفة بذلــك - مهما تتقدم العلوم والمعارف ومهما تتدخل التكنولوجيا في كل شئون الإنسان - لها مهمتها الخاصة، ومسائلها ووسائلها المســتقلة. ولا يعنـــي هذا أن تقتصر علي التحليل، أو تنصب نفسها أساسا مطلقــا لكل العلوم. كما أنها ليست علما من بين علوم ينافسها عندما يعرض الســلعة نفســها من خلف واجهة أخري. ولا نحسبها كذلك وعاء لشتات من المعــرفة المتــنوعة قــد لا يخلف تخصص العلوم فيه شيئا، أو حزمة من المعـــارف مـــا يلبث أن ينفرط عقدها إلي مجموعة من العلوم المتخصصة. فهـــي إذن ليســت أساسا للعلوم، أو بديلا، أو منافسا، كما أنها ليست وصيفة للعلـــوم تتسقط قضاياها وتتعقبها بالتحليل، بل هي موقف إنساني من العالم، ومن العصر والمجتمع يستوعب كل جوانب الإنسان.

وكـــل مشكلة تصلح أن تكون مادة للفلسفة، ولكن شريطة أن تدرس في كليــتها وعموميــتها، وعلي أساس مكانها من نسق متكامل في ضوء سائر الــتجارب والمطالب والأهداف الإنسانية. والفلسفة في كل هذا تجعل الناس علي وعي بمسؤلياتهم الأساسية وآثارها المترتبة عليها.

وتصوغ الفلسفة آراءها تلك في افتراضات واسعة قد تصدر عن التأمل أو الحـــدس أو الاســـتدلال، ولكنها تتأسس علي التجريد والشمول، غير أنها افتراضات لا تقبل التحقق المباشر فهي ليست فروضاً علمية، وربما اتخذت مـــنها، أي الافتراضات، فروضا تقبل التحقق علي امتداد طويل من الزمان، وعلـــي رقعة فسيحة من العلوم، فهنا تنضم الفروض إلي العلم وتنسحب من الفلسفة التي لا تستنفد مهمتها التي يبقي لها إطارها الموجه المستوعب.

خلاصـــة القـــول إن الفلسفة أمر نزاوله جميعا عندما نعمد إلي إصدار أحكـــام عامة لا تنتسب إلي علم بعينه أو تخصص محدد، ولكنها تظل فلسفة رجل الشارع أو أحكام ما يسمي بالحس المشتركCommonSense، ولا ترقـــي إلي مستوي التداول والدرس والنقد إلا إذا اتسقت أحكامنا العامة فيما بينها، أي خلت من التناقض، وتناسقت أو تساوقت معا في منظومة موحدة، أي إذا ألفـــت نسقاSystem، وليس من قبيل المصادفة أن المذهب الفلسفي ترجمة لكلمة نسق باللغات الأجنبية.

أما مصطلحاتها المأثورة وتصنيفاتها وفروعها، فهي من نتاج الممارسة المتراكمة لهذا المنحي الإنساني في تناول المشكلات التي صقلها الحوار بين المذاهب المختلفة.

وبعــبارة موجزة، الفلسفة نوع أصيل من النقد: أولا بمعني رفع الوعي إلــي مستوي الواقع المعيش، وثانيا بمعني كشف الإمكانيات، وتعيين الحدود لهذا الوعي الإنساني.

سؤال العصر الفلسفي

ويفضــي ذلــك إلي أن الفلسفات في كل عصر تطرح سؤالا رئيسيا أو مؤسســا (أو إشــكالية بالمعني الاصطلاحي لها) يختلف عن سؤال العصر الســابق. والواقع الجديد للعصر هو الذي يثير هذا السؤال من خلال ساحته الثقافية التي تبرز علي سطحها منظومة رائدة.

– نشــأت الفلسفة اليونانية في ظل الأسطورة، المنظومة الرائدة آنذاك، وكــان السؤال الرئيسي لها كيف نفسر التعدد والتغير في الأشياء لنردها إلي الوحدة والثبات. فعندها نشأت الفلسفة بوصفها علما للوجود.

– ثــم كانــت العصور الوسطي التي كان الدين منظومتها الرائدة فكان سؤالها الرئيسي كيف نوفق بين العلم "الفلسفة أو الحكمة" وبين الدين، أو بين النقل والعقل.

– أما في عصر النهضة، عصر إعادة اكتشاف العالم، وكان العلم مثل الديــن حفظا وشرحا علي المتون، فطرحت الفلسفة الحديثة السؤال الجديد: "ما المنهج الذي يؤدي إلي تأسيس العلم بالعالم لغزوه وفتحه".

والمــنهج هــو ممارسة قدرات الإنسان بمعزل عن المحفوظ والمنقول. وتفرقت المذاهب الحديثة تنويعا علي لحن السؤال الرئيسي.

– أما في الفلسفة المعاصرة أي بعد هيجل، فقد طرحت العلوم الإنسانية أو الاجتماعــية بعض ثمارها، وأصبح الاهتمام بمشكلات المجتمع في ظل المفارقــة اللعيــنة التي صنعتها الرأسمالية، فقد قامت الرأسمالية أصلا علي المشــروع الفــردي الحــر، إلا أن المنافسة الدموية التي أصبحت وسيلتها الأساسية سرعان ما أسلمت إلي ضياع الفرد وحقوقه وكبريائه، ولذلك كانت العلــوم الاجتماعية، المنظومة الرائدة للفلسفة المعاصرة التي أصبح سؤالها المؤســس عن الواقع الإنساني وليس العالم الطبيعي: كيف نتمرد عليه وإلي أي مسار في المستقبل نقود إليه الإنسان.

وأود أن ألفــت نظر القارئ الكريم إلي أن التحقيب السابق للفلسفة: هو مــا درجــنا عليه كتقليد متبع في درس تاريخ الفلسفة، لكنه لا يبدو دقيقا في

تســمية الفلسفة المعاصرة التي تعني علي الفور الفلسفة الراهنة أو الحالية، ولكنها ليست كذلك، لأن فلسفة الحقبة الراهنة التي تشي بملامح فلسفة القرن الواحــد والعشرين لم تعد مسألتها الجوهرية هي نفسها مسألة ما نطلق عليه الفلسفة المعاصرة فى تحقيبنا التقليدى.

ويتبيــن فــي حديثــنا السابق عن معني الفلسفة أنه يتحقق في الفلسفات جمــيعا بدرجــات متفاوتة بدءاً من اليونانية وانتهاء بما أسميناها بالمعاصرة مــثل الماركسية والبرجماتية والوجودية. ويكشف ما قدمناه عن المذهبية أو النســقية عــن افــتراض معلــن أو مضمر في الفلسفة هو ما يمكن تسميته بــالمعقولــية التــي يفترضها المفكر أو الباحث أو حتي رجل الشارع فيما يتعلق بفكره وسلوكه، وهي التي تقوم بدورها حينما تجمع ما تشتت أو تفرق مــن معطــيات أو وقائع أو آراء في منظومة واحدة، تؤدي بتلك المتفرقات المــناطة بالمشــكلة أو الموضــوع إلي أن تتخذ مواقعها ومنازلها في هذه المــنظومة، دون أن تخلــف أية متبقيات خارجها، فهذا وحده الذي يمكن أن يــؤدي إليْ التعميم والتجريد والانتظام، وهو ما يتطلبه الفهم في أي شأن من الشئون.

غير أن الفلسفة المرشحة للقرن الواحد والعشرين تنكر هذه المعقولية أو الشــمولية أو الكلية، وتنكر معها ما نسميه بــالعقل الذي تصورناه من قبل حاســة أو أداة أو جهــازا، فهو علي أفضل الوجوه، إطار مهيمن للتواصل والــتداول الإنســاني، ولكنه أكثر عمومية وتجريدا، أو فراغا من المحتوي المادي المعين لكي يكون قابلا للتطبيق علي كل مجال من مجالات التواصل والتبادل فى كل جوانب الثقافة.

وربمــا أبــيح لنا القول بأن هذا التصور للثقافة الإنسانية، بمعناها الذي يقــابل الطبــيعة، يعنــي فــي نهايــة الأمر أنها، أى الثقافة، مجموعة من الاســتعارات أو المجــاز، بل إن اللغة بكل علاماتها أو دوالها لا تؤدي إلي مدلــولات محددة. وقد صبت الفلسفات السابقة اهتماماتها علي المدلول الذي اعتقدت أنه علي علاقة شفافة بالدال. ولكن الفلسفة الجديدة تتريث عند الدال وتقف عنده، فثمة إخلاف differance مستمر ينكص فيه المدلول عن وعــده بــالوجود أو الحضور، ويرجئ بلوغنا إياه كما يقول ديريدا فيلسوف التفكيك.

وأغلب الظن أن ما نعنيه بفلسفة القرن الحادي والعشرين هي التي نشاهد بعض قسماتها اليوم فيما يقترن بما يسمي بما بعد الحداثة وما بعد البنيوية وما بعد النظرية، ويغلب عليها التواضع الشديد بإنكارها للمهمة السابقة للفلسفة وهي تشييد صروح النسقات أو المذاهب التي توثق بين مجالات الفكر والسلوك في كلية شاملة.

فهي تري في الكليات والشموليات حكايات أو حواديتrecits كبري كما يقول ليوتار، وبذلك تكشف عن الأوهام التي عاشها الفكر الإنساني وهو يرسم أطرا محددة، ومحاور رئيسية، ومراكز، وأولويات، وتراتبات هرمية، وتحطمت بذلك النظرة الأولمبية أو اللاهوتية التي تعرف كل شيء وحقيقة كل شيء.

وهي تستبعد الثنائية الفلسفية التقليدية للذات والموضوع، بل إن الذات تفتتت وانقسمت لديها.

كان لابد للحظة التاريخية لبشائر القرن الواحد والعشرين التي نحياها اليوم أن تؤدي ساحتها الثقافية إلي تفاعلات محتدمة تبرز علي سطحها منظومة رائدة تثير إشكالية الفلسفة الجديدة.

فالوضع العالمي الراهن الذي تمثل منه أمريكا وأوروبا أتون محركه وآلته يقدم بين أيدينا حادثات تثير الحيرة وتعصف بما استقرت عليه المذاهب والنظريات من تحليل وتفسير. ولاريب أنها لحظة متفردة ليس بوسعنا أن نسلكها في نسق تفسيري قائم، أو نجعلها حادثا مطردا في مسار تاريخي معلوم. ومن هنا تنشأ الحاجة إلي إعادة النظر في مسلماتنا جميعا، ومن ثم ينبغي علينا أن نطرح الأسئلة الساذجة التي تبرأ من أية إجابات سابقة جاهزة، فهذا هو شأن الأسئلة الفلسفية.

ومن هنا كانت المنظومة الرائدة التي أثارت إشكالية الفلسفة الجديدة منظومتين هما اللغة والفن. فاللغة هي الرداء التحتي لكل ما يصطنع الإنسان من أوهام، والأدب والفن هو الكاشف عن هذه الأوهام من ثنايا ما يسمي بما بعد الحداثة. وبذلك أصبح الموضوع أو بالأحري المجال الأثير لدي الفلاسفة الجدد هو النص، وبدلا من أن يكون الموضوع أو المجال الفلسفي: العالم أو الله، أو الإنسان كما ألفنا في الدرس الفلسفي، أصبح عمل الفيلسوف الجديد أشد تواضعا، أصبحت الفلسفة الجديدة نوعا مستحدثا من النقد أو

التحليل الثقافي الذي يستمد مادته من علوم وتجارب مختلفة متعددة ليجردها ويرفعها إلي تعميمات يمكن أن تصدق علي مجالات مغايرة لما بدأ منها.

وفقـد الفيلسوف الجديد الحماس للدعوة لأي شيء، لأنه يعلم مسبقا أن الصـوت والصـمت سـواء، فهـو شريك في تيار ما بعد الحداثة التي تعد استسـلاما لاكتشـافها أن المبدأ الوحيد الذي لايعوق التقدم، هو: كله ماشي anythinggoes علي حد تعبير بول فايرابند.

ولكن، هل نستطيع الزعم بأن الفلسفة يمكن أن تواصل تقدمها علي هذا النحو؟ أكبر الظن أنه زعم يحدق به الشك من كل جانب.

تمرين ثالث: النبوءة في الفلسفة

ربمـا انطـوي لفظ نبوءة بمعني الإخبار عن شيء قبل وقوعه، علي دلالـة غيبية حيث يرتبط بالنبوة، كما يقترن بما يغمغم به الكاهن أو العراف في الزمن القديم. فإذا ما نضونا عنه غلالته الدينية والغيبية، استقر له دوره المعرفـي الـذي يفـترش ساحة واسعة من المجالات المنوعة التي تتباين أهدافها، وأساليب إجرائها، وتتفاوت فيما بينها في طرق تحصيل المعرفة.

ومـادام العلـم، بمعناه المعاصر، هو الذي يتفق الجميع، علي اختلاف نـزعاتهم، علـي مـا يفضي إليه من تنبؤات، جاز لنا أن نقيس عليه سائر المجـالات، ونقارنهـا به. فإلي جانب العلم، نجد أن بعض أسلافه القدامي لاتـزال تنازعه في تحقيق أهدافه المعرفية مثل التنجيم والعرافة، والفراسة، والأسـطورة، والسيمياء (أي علم أسرار الحروف) وهي ما يمكن أن نصفه الآن بـالمضاد للعلم.

وهناك إلي جانبها ما لا ينافس العلم في ذلك الهدف مثل الدين والفلسفة والفن، وهو ما يمكن تسميته بـالمختلف عن العلم.

فأما المجالات المضادة للعلم فتتفق معه في أهدافه لأنها كانت تنشد فهم ظواهـر الطبيعة توطئة للتحكم فيها. غير أن أسلوبها في إثبات مزاعمها لم يكـن ممـا يقـبل الفصل في صحتها أو كذبها لدي الذين لايشتغلون بها أو يؤمـنون بصـحتها، أي أنها افتقدت الموضوعية العلمية التي تعني ما يمكن الاشـتراك في إنجازه وسلوك الطريق نفسه لبلوغ نتائجه، أو هي ما يؤسس خـلال العمـل المتفق عليه بين الباحثين مهما اختلفت عقائدهم أو ولاءاتهم. ومـن ثـم فهـي، أى الموضـوعية، تعني ما يتيح الاتفاق علي الخطوات

والإجـــراءات التـــي تعالج بها الموضوعات أو المشكلات بحيث تؤدي إلي الحســـم أو الفصـــل بين ما هو صادق أو كاذب فيما ينشأ عنه الخلاف بين الباحثين.

وبغـــياب تلك الموضوعية لابد أن يتقدم العلم علي حساب أسلافه إذا ما أقدموا علي منازعته، مواصلا نزع ملكية تلك المجالات، وإبطال نفوذها.

ويخـــتلف الأمـــر عما هو مستقل أو مختلف عن العلم، كالدين والفلسفة والفـــن، فهـــو لايـــتفق مع العلم في هدفه الخاص، ولا منهجه الموضوعي، وبالتالي فلا ينافسه أو يفرض علينا الاختيار بينه وبين العلم.

إلا أن تلـــك المجالات، رغم استقلالها، ليست منعزلة أو منقطعة الصلة بـــالعلم، لأنها تحث عليه، وتستخدمه، ولكن علي النحو الذي تختلف فيه عن البحـــث العلمـــي الخـــالص في هدفه ومنهجه، فالدين، مثلا، هداية وإرشاد، والفن إبداع وإمتاع.

ومهمـــا يـــتقدم العلم، فلن تجور حدوده علي مناطق نفوذ تلك المجالات المســـتقلة، ومن هنا تختلف صلة العلم بها عن صلته بما هو مضاد للعلم أى أسلافه القدامى.

وعود الفلسفة وآفاقها

أمـــا الفلســـفة، فربما تكون المجال الوحيد من مجالات الفكر الإنساني الـــذي لايكـــف عـــن طـــرح السؤال عن مهمته وتحديد تخومه، بل لاتزال مشروعية قيامها ودورها محلا للبحث والشك. ورغم أنها أم العلوم، كما هو مأثور مشهور، أي أنها الرحم الذي تخلقت فيه أجنة العلوم التي ما لبثت أن خرجـــت منها واستقلت عنها، رغم ذلك، فإن بعض الفلسفات لايزال يستمتع بـــثمرات إرث قديم خلفته المجالات المضادة للعلم وهي التي كانت أسلافه، فثمة إهابة بالحدس، والأسطورة، والإمعان في الخيال.

فالفلســـفة نظـــرة كلية شاملة، وموقف أو اتجاه عام، وهي ليست وعاء مستوعبا لعلوم، أو حزمة من المعارف القديمة ما لبث أن انفرط عقدها إلي مجموعـــة مـــن العلـــوم المتخصصة، كما أنها ليست علما بين العلوم، وإلا حكمـــنا بإلغائهـــا وحجب الاعتراف بها، إذا ما خطر للفلسفة أن تقدم باسمها شـــيئا مـــن المعـــرفة الدقيقة، فلن يكون حظها أوفر مما يكسبه العطار في

منافســته للصــيدلي، ولن يكون موقفها أفضل من موقف حلاق الصحة من الطبيب!

ولكــن يحسن بنا أن نعترف بأن الفلسفة كانت تقوم بكل ذلك، ولم يكن ثمــة فــارق بيــن لفظتــي فيلسوف وعالم، حتي استقلت العلوم، علي نحو صريح، في منتصف القرن التاسع عشر فعندئذ استقلت الفلسفة بموضوعاتها الخاصــة مثل الوجود، والمعرفة، والقيم، والواقع، والإنسان، وهي قضايا لا تصلح موضوعا للعلوم المتخصصة، وإذا كان في وسع العلوم أن تقول شيئا فــي كافــة موضوعات المعرفة، فإنها تقف عند تخصصاتها لا تعدوها، كل عــند موضــوع معيــن، ولابد أن نكون في حاجة إلي من يضم شتات تلك الموضــوعات جمــيعا فــي وحدة أو موضوع واحد، يتخطي به تفصيلات عناصره، ويعقد بينها الصلات، ويسد الفجوات.

ولــيس من شأن العلوم أن تقيم الحدود أو تزيلها أمام تطلعات الإنسان نحــو معــرفة العــالم الــذي يحــدق به من كل جانب، كما لا تعين، بكل تخصصــاتها، مــا ينبغــي للإنسان الفرد أن يتخذه من موقف أو قرار إزاء المشكلات، ولكن الفلسفة هي التي تضطلع بما لا شأن للعلم بأدائه.

وتيسر لنا الفلسفة استشراف الأهداف البعيدة للإنسانية، كما تحفزنا إلي المساهمة في تحقيقها. والأوضاع المتجددة التي يواجهها الإنسان لايمكن أن تنــتظر حتي تفرغ العلوم المختلفة من مسائلها لكي يتقدم لها الإنسان بالحل، فمهمــة الفلســفة هي استيعاب أو استرداد ما هو عيني واقعي مباشر، ولكن عن طريق ما هو مجرد، وكلي، وعام.

ولذلــك تخــتلف الفلسفة، وتبتعد عن العلم بقدر ما تقترب من الدين في انطوائهــا علي الدعوة إلي ما ينبغي أن يكون. أو بعبارة أخري: ماذا ينبغي أن أعــرف، ومــاذا ينبغــي أن أفعل، ويتضمن ذلك تصورا لما يكون عليه الواقع، وما يكون عليه التاريخ.

ولا يظــل النســق أو المذهــب الفلسفي مغلقا علي نفسه، بل ثمة أفق مــتحرك أمــام الفيلسوف هو الذي تتحدد المشكلات الفلسفية وفقا لحركته. فالمشروعية الفلسفية للمشكلات تتحول وتتجدد دوما. والمشكلة، أية مشكلة، تصــير مشكلة فلسفة لأن طائفة من الأسئلة لاتزال تتجمع وتتشابك ملحة في طلــب الإجابة أو الحل، ولاريب أن هذه الأسئلة تعبير عن حاجات ومطالب عملــية وفكرية حثت عليها أو أنتجتها أوضاع ثقافية، مادية وروحية جديدة.

بيـــنما تـــنزع المشـــروعية عن موضوعات أخري كانت فلسفية في الزمن الســـابق لاندراجهـــا الـــيوم فـــي موضوعات العلم الطبيعي أو الاجتماعي. وتصـــوغ الفلســـفة آراءها فيما يشبه الافتراضات الواسعة، وليس الفروض، لأنها لاتقبل التحقق من صحتها أو كذبها موضوعيا، وذلك لاتساع موضوع الافتراضات الفلسفية، فكل عبارة عامة لا تتعلق مباشرة بتخصص معين أو علم بعينه، هي عبارة فلسفية مهما يبدو من سذاجتها أو الاعتياد عليها، وهذا هـــو ما يسمي بالتفلسف الشائع أو الدارج الذي نزاوله جميعا دون وعي أو تصريح. غير أن الفلسفة الرفيعة المستوي التي تقبل الدرس والفحص تلتزم بشـــرطين آخرين فضلا عن عمومية العبارات أو الأحكام، وهما: الاتساق، أي الخلـــو من التناقض في تلك القضايا الفلسفية، والنسقية، أي قبول القضايا للاندماج مع غيرها في نسق، أي مذهب، هو الذي يحدد علاقات معينة بين عناصره ووحداته.

والفلســـفة مـــنحازة، غير محايدة بخلاف العلم، فهي موقف إنساني من العـــالم، ومن العصر، والمجتمع، يستوعب كل جوانب الإنسان. وكل مشكلة تصـــلح أن تكون مادة للفلسفة، علي شريطة أن تدرس في شموليتها، وعلي أســـاس مـــن نســـق متكامل في ضوء سائر التجارب والمطالب والأهداف الإنسانية. وهناك من الفلسفات ما تبرر واقعها، أو تتحسر علي ماض ذهب، أو تـــتمرد علـــي هذا وذاك ابتغاء بناء مستقبل جديد. وهي في تلك المواقف المتبايـــنة تجعـــل الناس علي وعي بمسئولياتهم الأساسية، وآثارها المترتبة علـــيها. ولا يعنـــي ذلك القول بأن الحقيقة موزعة علي المشاع بين مختلف المذاهـــب الفلســـفية، أو أن أحدهـــا، علي الأقل، هو المذهب الصحيح، لأن الحكـــم علـــيها لـــيس من نسيج الحكم علي القضايا العلمية التي تتيح إمكان التحقق من صحتها أو كذبها بمقتضي ما تطرحه من فروض.

تنبؤ مختلف

ولذلك يختلف التنبؤ في الفلسفة عن نظيره في العلم. فيعد التنبؤ العلمي الوظـــيفة أو المهمـــة، أو الهـــدف الذي لابد أن ينجز إذا ما كان المشروع العلمـــي ناجحـــا صـــحيحا، فهو ليس عملية أو اجراء معينا يتطلب شروطا مضـــافة إلـــي شروط عمليات الوصف والتفسير العلمية، لأنه الحصاد الذي نترقـــبه مـــن التفســـير السابق. وهو إذن لا يعني سوي أن تفسيرنا السابق

للظاهرة هو تفسير صادق صحيح. ففي الحالين، أي التفسير والتنبؤ، لابد أن تتاح لنا نظرية أو قانون مثبت من قبل، كما يتجمع عدد من الوقائع التي يمكن أن نبدأ بها، فنستنتج من النظرية أو القانون، ومن الوقائع، واقعة جديدة بالنسبة لنا، وهي حدث لم يكن قد وقع من قبل، هذا بالنسبة لنا، أما بالنسبة لمنطق الاستدلال العلمي، فليس هناك فرق علي الإطلاق. فهذا الفرق يعتمد علي المصادفة فيما إذا جري الاستنتاج بحقيقة جديدة "قبل" الحادث، وذلك في حالة التنبؤ، أو "بعد" وقوعه في حالة التفسير، وموجز القول أن التنبؤ العلمي هو تفسير مسقط علي المستقبل.

أما في الفلسفة، فلا نجد ذلك المتصل الواحد الذي يؤدي فيه تفسير الوقائع إلي التنبؤ بحدوثها، لأن الفلسفة لا تتعامل مع الوقائع المفردة والوحدات التحليلية كما يصنع العلم، بل تتعامل مع مواقف تتشابك فيها العلاقات بينها، وتختلط بغيرها، والمواقف لا تتكرر لأنها تشكيلة مؤلفة من العناصر والعلاقات في مكان معين وزمان محدد، وتختلف فيها مواقع البشر وأفعالهم في مكان دون آخر، وزمان غير الزمان.

ولئن خضعت المفردات الوقائعية والوحدات التحليلية في العلم للإطراد وانتظام الوقوع، فإن المواقف بحكم تأليفها وتراكيبها المختلفة لا تلتزم ذلك الإطراد إذا ما تعاملنا معها ككلية شاملة، رغم انصياع ما انطوت عليه من مفردات أو وحدات لمسار قابل للتنبؤ إذا ما درسناها كلا علي حدة.

ومن هنا تختلف النبوءة المتوقعة من الفلسفة عن النبوءة العلمية، فهي بالأحري ارتياد لآفاق جديدة واسعة، واستشراف للمستقبل لأنها تطل من شرفة عالية علي تفاصيل متناثرة في ساحة مترامية الأطراف.

من بين هذه النبوءات فكرة الكوسموبوليتانية أي المدينة(أى الدولة) الكونية كما حاول أن يطبقها الاسكندر الأكبر تلميذ أرسطو، وأوشكت علي التحقق، ولكن علي نحو آخر فيما يسمي بالعولمة، وفيما وصفه مارشال ماكلوين بالقرية العالمية.

كما يبدو أن الدولة في طريقها إلي الزوال كما تنبأ ماركس، ولكن علي خلاف ما اقترحه من تفسير بوصفها أدوات القمع وأجهزته للطبقة الرأسمالية، وبزوال الصراع الطبقي وتحقيق الشيوعية ينتهي دور الدولة. غير أنها لن تزول بزوال الرأسمالية، بل لمزيد من تسلط الرأسمالية في صورتها الجديدة للشركات متعدية القوميات.

ومـــن هذه النبوءات التي أوشكت علي التحقق الاتفاق علي لغة عالمية مشـــتركة، فقــد تنبأ بها ليبنتس كلغة رياضية عامة مشتركة يصير التفكير بمقتضـــاها نوعـــا من الحساب. كما قدم بيرس السيميوطيقا بوصفها المنطق العـــام واللغة المشتركة لكل صنوف الفكر والسلوك، وها نحن اليوم نمارس شيئا قريبا منها عندما نستخدم الكمبيوتر بلغاته الرياضية المبسطة.

وعــندما ألف آدم سميث كتابه "ثروة الأمم" الذي أصبح به أبا للاقتصاد كان يعده امتدادا لدعوته وفلسفته الأخلاقية، فقد كان أستاذا للمنطق والأخلاق بجامعـــة جلاسجو. وقد أقامه علي تصور أخلاقي، فلم يعد البحث عن الربح عملا أنانيا في نظره، بل مساهمة في تحقيق المصلحة العامة عن طريق اليد الخفــية للــنظام الطبيعـــي الــذي يفضي إلي التآزر بين المصلحة الخاصة والعامـــة، وهـــو صـــاحب نظـــرية اقتصاد السوق القائم علي حرية التبادل والـــتجارة. ولذلـــك عارض سياسة القيود الجمركية من أجل التقدم، وهو ما نجـــده الآن مـــتحققا فـــي اتفاقـــيات الجات التي ربما نعتبرها تحقيقا لنبوءة الفيلسوف آدم سميث عام١٧٦٦.

اليوتوبيا وعلم المستقبل (أو المستقبليات)

رسم كثير من الفلاسفة تخطيطا لمدن أو أمكنة يحققون فيها تصوراتهم وآمالهم ومشروعاتهم من أجل حياة إنسانية أفضل.

وأشـــهر تلـــك اليوتوبيات ما قدمه توماس مور عام١٥١٦، ولقد تحقق مـــنها الكثـــير ممـــا تخـــيله. فقد أقامها مور علي قوانين تفصح عن العقل الإنســـاني الحـــر دون عـــون أو إرشاد إلهي. وجعل ممارسة تحسين النسل مســـتندة إلي فحوص تسبق الزواج، كما يسر الحصول علي الطلاق، وفصل في التربية، والمسئولية الاجتماعية وانحراف الأحداث وعقاب الجناة.

وكتـــب فرنســـيس بيكون "أطلانطيس الجديدة" وتحدث عن دار سليمان للعلماء والباحثين، وقد كانت نبوءته أسرع إلي التحقق بقيام الجمعية الملكية التـــي تعـــد أول أكاديمية علمية ثم أعقبتها الأكاديمية الفرنسية وتوالت بعدها الأكاديميات في سائر بلدان العالم.

وتتفق معظم اليوتوبيات ابتداء من جمهورية أفلاطون حتي "عالم شجاع جديـــد" لآلدس هكسلي في أنها، إلي جانب توفير حياة مادية خالية من العوز والحاجـــة تقـــوم علي إقبال الناس علي التسليم بفلسفة سياسية موحدة بحيث

تصـــب عقولهــم فـــي قالـــب واحد. وإن كان ذلك متعذرا أو مستحيلا في الماضـــي، فقــد أصبح متيسرا اليوم في جميع أقطار العالم بوسائل الإعلام والإتصـــال والســماوات المفـــتوحة لخلق اتساق في عادات الناس وتنميط أذواقهــم وأفكـــارهم، وهـــذه نـــبوءة أخري تكاد تتحقق، وتعد الأصوليات والحروب الأهلية الراهنة جيوب المقاومة الأخيرة ضد هذه النبوءة!

وأغلـــب الظن أن علوم المستقبل هي نفسها فصيل حديث من اليوتوبيا، والفـــارق بينهما أن اليوتوبيا التقليدية تفترض وجود مجتمع مستقر، وبيئة لا تتغـــير، كما أن كتاب المستقبليات من فلاسفة اليوم مزودون بقاعدة عريضة مـــن المعلومات المنوعة التي تيسر لهم كشف الطريق بأكثر مما كان يصنع السابقون.

فهـــي فـــي نهاية الأمر يوتوبيا قد تخلصت من القدر الذي كان يشوب اليوتوبـــيات القديمـــة مما يسمي بـــالخيال العلمي، وليس عليّ من بأس إذا اعـــتقدت أن هـــذا الصـــنف مـــن الكتابات هو فرع جديد من فروع الفلسفة الراهـــنة، أو هـــو ممارســـة للدرس الفلسفي الذي يعمد إلي الربط بين نثار الشـــتات العظيم من المعلومات المتفرقة، والصحيحة علميا، ليستخلص منها تأليفا جديدا، وعلامتها الفلسفية هي أننا نجد تباينا واضحا، وتفاوتا بارزا في الرؤي المختلفة لدي المشتغلين بهذه المستقبليات.

تمرين رابع: الفلسفة في ألف ليلة وليلة

نتقدم بين يدي القارئ بإطار عام لعل باحثين من بعد يفرغون لملئه، أو مجرد مخطط أولي قد يحفزهم إلي إصلاحه أو مواصلة الاجتهاد بمقتضاه.

الفلسفة والدين

تتشابك موضوعات الدين بقضايا الفلسفة، غير أن العقيدة الدينية تهدف إلـــي مقاومـــة الإنســـان للفناء بالتوحد مع الكل في الأبدية والخلود، مسلحا بـــالقوي المقدســـة أمـــام المجهول، مذعنا للمشيئة الإلهية، ومسلما بالغيب، ومترقـــبا الحســـاب فـــي الآخـــرة بعيدا عن معايير الدنيا، ونظم ظواهرها الطبيعية والاجتماعية. ولا تعني عقائد الدين بتفسير الكون إلا بقدر ما تحدد للإنســـان مـــا ينبغي أن يقوم به إزاء هذا الكون. وتعتمد نظرة الدين الكونية علـــي تعيين مراتب الأشياء والأفعال، فثمة ما هو مقدس وما هو دنس، وما

هــو مباح وما هو محرم. ومتي عرف المؤمن ذلك التدرج أو التفاضل في المــنزلة، كــان الــتزامه إزاءهــا بمواقف محددة، قد يكون بينها الطقوس والشعائر، كما يكون بينها العلاقات والمعاملات. ويؤدي هذا التدرج الحتمي إلــي قــيمة علــيا هي منبع القيم جميعا، ومصدر السلطة والالتزام، وأصل الوحــدة فــي تجليات الكون. وعلي هذا، يكون الخلاص أو الفوز في الدنيا والآخرة محسوبا بمدي الامتثال للقيم الدينية، والأخذ بما تأمر به واجتناب ما تنهي عنه.

ولأن الديــن موقف قيمي موحد، فإنه لايجتزئ من الإنسان جانبا دون آخــر، بل يصون توازن حياته، ولابد أن يؤدي ترجيح قيمة علي أخري، أو تغليــب جانــب علــي جانب في الإنسان، إلي أن يستعاد توازن حياته عن طــريق ما يفعم به الدين وجدان المؤمن من سلوي وعزاء، وما يرتقبه من مــثوبة وجزاء، تعويضا عما افتقده أو عاناه في الانصراف عن بعض القيم، والإقبال علي غيرها.

وبذلــك، تعيد التجربة الدينية للنفس الطمأنينة والسلام، والإيمان الديني نوع من الميثاق والالتزام، وليس أمرا مشروطا بما يدلل عليه العقل أو تثبته التجربة. ولأنه صالح لكل زمان ومكان، فليس نسبيا محددا بالزمان والمكان وليس قابلا للتطور أو التجاوز. ويقوم علي المحتومية وليس الحتمية كالعلم، لأن الأخــيرة مشــروطة بالمقدمات التي تؤدي إلي نتيجة بعينها، فإن لم تقع المقدمــات انتفت النتيجة. علي حين أن المحتومية لا تشترط مقدمات معينة لحدوث النتيجة لأن النتائج موكولة بمشيئة الله مهما تكن المقدمات، وهذا هو ما نعنيه أحيانا بالقضاء والقدر.

وإذا ما كان الفعل الإنساني، كما يعالجه العلم علي سبيل المثال، متصلا بنتيجــته، كما يقاس كذلك خارجيا، فإن الدين يمكن أن يقطع تلك الصلة بين الفعل ونتيجته عن طريق التوبة اللاحقة، والمغفرة الإلهية، أو مشيئة الله في كــل الأحــوال. ومن ثم، فلا يحاسب الفعل الواحد علي نحو واحد أو منوال مطرد أو علي نحو يمكن التنبؤ به.

ويمكــن أن نــزعم أن الدين منذ أقدم صوره، هو أول محاولة للتفلسف مــادام يقوم علي تصورات عامة شاملة للكون والإنسان والزمان، وظل في المجتمعات الشرقية، قبل اليونان وبعدهم أيضا، أساسا للتفلسف.

أما لدي اليونان، فقد تيسر لهم أن يميزوا بين الدين والفلسفة عندما أتيح لهـم من ظروف حياتهم القائمة علي الترحال والتجوال من مكان إلي آخر، فـيما نتبيـنه فـي مهـنهم: الرعي والتجارة والملاحة، ولقائهم بغيرهم من صـنوف المجتمعات، وخاصة مصر بعقائدها وأفكارها المختلفة، فضلا عما نعمـوا بـه مـن تحـرر من السلطة المركزية للدولة التي لم تجاوز حدود المديـنة، فقـد استطاع الإغريق أن يفرقوا بين ما لسلطة العقل، وما لسلطة العقيدة مما حفزهم إلي فصل الدين عن الفلسفة. فأصبحت الفلسفة نتاج العقل الإنسـاني الفرد الذي يقبل المناقشة والحوار بوصفه اجتهادا خاصا، واحتفظ الديـن بسـلطانه المستمد من مصدر أعلي من الإنسان ولا يخضع للمناقشة العقلية، فالفرق إذن بين الدين والفلسفة فرق في المصدر الذي يئول إليه كل منهما.

أما في الشرق، فلأسباب مختلفة أبرزها السلطة المركزية الشاملة، ظل الديـن مؤديـا لمهمة الفلسفة أيضا، فحتي عندما تتغير النظرة الفلسفية إلي العـالم لدي بعض الأفراد من حين إلي حين، كانت تتخذ رداء الدين. فعندما كانـت تصدر هذه النظرة من فرد، فإنها ما تلبث أن تكتسب سلطانا شموليا ولا تعـامل بوصفها اجتهادا شخصيا يقبل التفنيد أو المناقشة. ولا يعني هذا توقف أو اختفاء الاجتهادات الفلسفية الشخصية، ولكنه يعني أنها تتخذ طريقا مأمونـا تحـت مظلة الدين، وسرعان ما تندمج فيما يسمي باللاهوت الذي يخـتلف مـن جماعـة إلـي أخري، ومن مفسر إلي آخر. وفي ساحة ذلك اللاهـوت أو علـم الكـلام في الإسلام، تظهر الاختلافات في تبرير العقيدة وتفسـيرها، وتتجلي الاجتهادات الفلسفية في تصور الفعل الإنساني والمشيئة الإلهية، ولكن تحت مظلة مشتركة من الإيمان بالنص المقدس الذي يختلفون حول تفسيره تبريرا لنسق كل منهم الفلسفي.

بـيد أن هـذه الاجـتهادات الفلسـفية تشترك، بقدر متفاوت، في أنها تقـدم سـلاحا نظـريا فـي الصراع علي السلطة، ولكل فئة أو جماعة من فـئات أو جماعـات المنافسـة علـي السلطان تبريرها الفلسفي- اللاهوتي لمطالـبها المـتعلقة بالسـلطة، ولكـن علـي نحـو يـتفاوت حظـه من التصريح والإعلان.

وحدة الحكايات في وحدة جمهورها

بـــرغم تعـــدد المصـــادر التـــي تألفـــت مـــنها الحكايـــات، وتبايـــن قصصـــها واختلاف ما تتداوله من حبكات أو حوادث، وتعدد رواتها، برغم كل ذلك فإن جمهور المستمعين لها هو الذي صاغ وحدتها وألف بين نثارها المشـــتت، فأفـــاض علـــيها طابعـــاً مشتركاً برغم تفاوت الأسلوب اللغوي واختلاف الإقليم.

فالحكايـــات تروي علي مسمع من جمهور يؤثر في الراوي الذي يلتقط علي الفور ما يلذ له الجمهور أو ينفر منه فيستبعده أو يختزله، ويضيف إلي ما يزيد متعة المستمعين بما أتيح له من خيال أو موهبة.

والجمهـــور المســـتمع هـــو العامـــة البسطاء الذين يسرون عن أنفسهم بالتجمع في المقاهي أو أمام الدور بديلا عن المآدب والتسري بالقيان التي لا يطيق نفقتها سوي السادة أو الأثرياء من التجار.

ومن ثم، فإن نظرة الجمهور أو العامة لشئون العالم والمجتمع وآراءهم فـــي ماهـــية الإنسان وغاياته، وأحلامهم ومخاوفهم، هي التي تشكل جميعا المهاد المشترك الذي تؤلف فوقه الحكايات.

ويمكـــن القول بأن الحكايات الأصلية التي أخذت عنها(ألف ليلة وليلة) قـــد تعرضت لعملية تأميم أصبحت الحكايات بمقتضاها ملكا مشاعا للجمهور المســـتمع بخصائصه المشتركة في العراق وسوريا ومصر، وهو الجمهور الخاضع لعسف الحكام، واستغلالهم، وتقلب أهوائهم.

ويحـــيا هـــذا الجمهور في مجتمع حضري يغلب عليه الطابع التجاري، وربمـــا يمكـــن أن نصفه بـــالبرجوازية ولكن دون قيم برجوازية تلك التي ستسود في فترة لاحقة في أوربا؛ حيث يتفسخ النظام الإقطاعي القديم وتبرز قـــيمة الفـــرد بمـــا تقـــترن به من قيم الحرية والمنافسة والمغامرة، وإعادة اكتشاف العالم، وإطلاق الطاقة الإنسانية في كل المجالات.

إلا أن جمهورنـــا كان تحت حاكم يستمد مبرر وجوده من الله، فهو ظل الله فـــي الأرض، وخلـــيفة رب العالميـــن، والإقرار به قدر لا منجاة منه، والخـــروج عليه كفر وعصيان لمشيئة الله، بل هو أداة القدر التي تغدق علي امـــرئ فـــترفعه إلـــي أعلـــي منزلة أو تصادر أملاكه فتنزل به إلي هاوية الهـــلاك. وتـــتعرض الرعـــية كلها، علي تفاوت مراتبها، لمتطلبات أوامره ونواهـــيه، فهـــو يد القدر وجلاد القضاء، ويسري سلطانه علي عالم الإنس

والجـــان، ويختم ممتلكاته جميعا بميسمه حتي تكة سروال جاريته التي كتب علـــيها أنـــا لك يابن عم النبي(حكاية التاجر أيوب وابنه غانم- جزء أول)، فتكسب الأشياء قداسته وحرمته.

الفلسفة المصرح بها في الحكايات

ولكن، أين نعثر علي الفلسفة في الحكايات؟ ثمة مستويان، الأول هو ما تصرح به الحكايات من تصورات شاملة وردت علي لسان أبطالها، والثاني هـــو مـــا يمكن استخلاصه من داخل الحكايات نفسها، حيث ينبئ المؤلف أو المؤلفـــون من خلالها عن آرائهم العامة التي تحكم عمليات النسج السردي، فتكشف عن رؤيتهم الفلسفية.

فأمـــا المســـتوي الأول المصرح به، فهو ما يتم في أغلب الأحيان في مواقـــف الامتحان واختبار قوة الحافظة، وهو ما نجده في معرض ما يسمي بـــتقليـــب الجواري أو امتحان الإماء، أي اختبار مهارتهن لتحديد أسعارهن وفقـــا لمـــا أوتيت كل منهن من حسن الجواب أو أتيح لهن من حفظ الحكم والأمـــثال والأقـــوال المـــأثورة، كما يصرح به أيضا فيما ينصح به بعض الوزراء ملوكهم ويتوسلون به إلي كسب رضائهم أو إغرائهم بعمل معين.

ومـــن أبـــرز الأمثلة علي هذا أو ذاك ما جاء في حكاية تودد الجارية (جزء أول). غير أننا نجد أن ما جاء علي لسانها هو من طبيعة ما تعرض لـــه الحكايـــات بوجـــه عام من منتخبات ومقتطفات شعرية ونثرية من هنا وهـــناك، ولا تعـــبر عن وجهة نظر عامة متسقة، كما نجد مثلا آخر لذلك الـــنوع المصرح به، وإن كان أكثر عمقا ومعرفة، وهو ما جاء في امتحان وردخـــان بـــن الملـــك جلـــيعاد (جزء رابع) فقد أمر الملك جهابذة العلماء، وأذكـــياء الفضـــلاء، ومهـــرة الحكام أن يقدموا إلي قصر الملك ليحضروا امـــتحان ولده. وتنوعت الأسئلة التي سأقف عند بعضها مما يعبر عن رؤية فلســـفية شاملة، وكان السؤال الأول: ما الدائم المطلق وما كوناه، وما الدائم مـــن كونيه؟ وكانت إجابة الغلام: الله، لأنه أول بلا ابتداء وآخر بلا انتهاء، وأما كوناه فالدنيا والآخرة، والدائم من كونه هو نعيم الآخرة.

وكان السؤال الثاني: من أين علمت أن أحد الكونين هو الدنيا، وثانيهما هو الآخرة؟ قال الغلام: لأن الدنيا خلقت ولم يكن من شيء كائن فآل أمرها إلـــي الكـــون الأول، غير أنها عرض سريع الزوال مستوجب الجزاء علي

الأعمـــال، وذلـــك يستدعي إعادة الفاني، فالآخرة هي الكون الثاني. ويسأل الغلام: كيف يرضي الدنيا والآخرة معا؟ فيجيب بعد استعماله الأليجوريا بأن الإنسان يكون قد أرضي الدنيا بما ناله من خصب الأرض وأرضي الآخرة بما يصرف من حياته في طلبها. ويرد علي السؤال الخاص بالجسد والروح بألـــيجوريا أخري يكون فيها الأعمي مثالا للجسد الذي لايبصر إلا بالنفس، والمقعـــد مثال للنفس التي لا حركة لها إلا بالجسد. ويطلب منه الإخبار عن الـــثلاثة المختلفة العلم والرأي والذهن، وعن الذي يجمع بينها. فيقول الغلام: العلـــم من التعلم والرأي من التجارب والذهن من التفكر، وثابتهم واجتماعهم فـــي العقـــل. ويطلب منه أن يخبر عن الأرزاق المقدرة للخلق من الخالق، وهـــل هي مقسومة بين الناس والحيوان لكل أحد رزقه إلي تمام أجله، وإذا كـــان الأمـــر كذلك ما الذي يحمل طالب المعيشة علي ارتكاب المعصية في طلب ما عرف أنه إن كان مقدورا له فلابد من حصوله وإن لم يرتكب مشقة السـعي، وإن كـــان مقدورا فلا يتحصل له ولو سعي إلي غاية السعي، فهل يترك السعي ويكون علي ربه متوكلا ولجسده ولنفسه مريحا؟ وأجاب الغلام بـــأن لكل أحد رزقا مقسوما وأجلا محتوما ولكن لكل رزق طريقا وأسبابا، فصـــاحب الطلـــب يصيب في طلبه الراحة بترك الطلب ومع ذلك فلابد من طلـــب الرزق، غير أن الطالب علي ضربين إما أن يصيب وإما أن يحرم، فراحة المصيب في الحالتين إصابة رزق وتكون عاقبة طلبه حميدة، وراحة المحروم في ثلاث خصال، الاستعداد لطلب رزقه، والتنزه عن أن يكون كلا علي الناس، والخروج عن عهده بالملامة. وتتواصل الأسئلة والإجابات علي الـــنحو الـــذي نجـــد مثيلا له في أقوال المتكلمة وأصحاب أصول الدين في الحديـــث عن كلمة الله وصفاته والقدرة والاستطاعة، وكيف عرض الباطل للحـــق، ومم هو مخلوق، واختلاف الناس في المعصية برغم مرجعهم كلهم إلي آدم، وأصل الشر، إلي آخر تلك المسائل، وهي أسئلة وإجابات منتقاة من هنا وهناك في كتب علماء الكلام.

وتـــتكرر مـــثل تلك الامتحانات في كثير من الحكايات علي أنحاء شتي لكي تظهر رواتها بمظهر العالم الحكيم، وتبهر مستمعيها.

الفلسفة المستخلصة من الحكايات

وهـــو مـــا نســـتنبطه من الحكايات وليس مما يدور علي ألسنة بعض أبطالهـــا وشخوصها. وذلك الذي نلتقطه من حبكة أحداثها ومواقفها هو في

نهاية الأمر رؤية المؤلف أو المؤلفين الفلسفية، وقد رأينا من قبل أن ما يسبغ وحدة التأليف علي الحكايات، برغم تعدد مصادرها وكثرة مؤلفيها، هو وحدة الجمهور المستمع.

وبعبارة أخري، يمكن القول إن الرؤية الفلسفية التي يمكن تبينها هنا أو هناك في تضاعيف الحكايات نفسها هي الفلسفة الشائعة لدي جمهورها.

تقـــوم وجهـــة الـــنظر الشـــاملة في الفلسفة الشعبية إلي الكون والواقع والإنسان عبر ثلاثة طوابق يمكن تمييزها في ثقافة المجتمع.

فـــي الطـــابق الأول أو المستوي الأول تقبع ما يمكن تسميتها بـــثقافة الجلد، وهي العناصر التي لايختلف البشر في سائر المجتمعات والثقافات في اكتســـابها، ولايتفاضل فرد دون آخر فيما يمتلكه منها وهي العرق، والدين، واللغـــة. فهي خط مشترك بين البشر علي السواء، وتكاد تورث بأقرب مما تـــورث به العناصر البيولوجية، وربما تماثلها في أنها تمارس نفوذها دون اختـــبار أو تمحـــيص يجـــري علي مستوي الوعي والانتباه. غير أنها تؤثر بوصـــفها نوعـــا مـــن التحـــيز الخفي الذي يكمن تحت السطح، وقد ينفجر كالـــبركان في مواقف معينة، لأنها تعبر عن الأغوار السحيقة في الفرد التي قـــد تثور عندما تحين لحظة ضعف في السطح الخارجي في مواجهة غزو أجنبـــي أو مشكلات حدود، أو حرب أهلية، فجلدة المرء في اللغة عشيرته، وأجلاده هي أعضاؤه وجسمه.

وهـــذه العناصـــر أو الجوانب من الثقافة اللصيقة بالجلد لا فضل لأحد علـــي آخر في امتلاكها لأنها مشاع بين الجميع، ويبدأ الكسب والامتياز بين فـــرد وآخـــر بمـــا يحققه فوق هذه العناصر أو ذلك الطابق من درجات أو طـــبقات في سلوكه وفكره، أي عندما يكسو الجلد لحما وشحما لأنها وحدها لاتكفـــي مميزا وفارقا. وعلي هذا المستوي، تقدم الحكايات تصورا للإنسان يقـــوم علـــي تصنيف للبشر بحسب ألوانهم وعقائدهم، ويجري التعامل معهم وفقا لهذا التصنيف الذي يجعلهم مجرد حاملين للافتة ويستوعبهم تماما، ولا يبقي لشخصياتهم شيئا آخر يميزهم به.

ويؤســـس هذا الطابق الأرضي من الثقافة مهادا رئيسا لثقافة الجماهير البســـطاء يحمـــل فوقـــه طابقا آخر هو المتصل أو المستمر الثقافي، فليس للمجـــتمع أو الأمـــة ثقافـــة واحدة دائمة طوال العصور، ولكن الذي يستمر ويواصل نفوذه، هو تلك الجوانب التي تتجمع وتترسب عن الثقافات المتعاقبة

وتتشـــابك معا لتبقي حية مؤثرة، وتؤلف ما يمكن تسميته بـــالمتصل القومي أو المشترك القومي، ونقصد به مجموع الجوانب المشاع لدي أعضاء الأمة بـــرغم اخـــتلافهم فـــي النوع أو الجيل أو المهنة أو التعليم، وتتفاوت مواقع الأفراد علي نقاط ذلك المتصل القومي من حيث عناصر الموروث المستمر. وهـــي ليســـت مجـــرد رقع متراصة مقتبسة من هنا وهناك، بل هي بمثابة مجـــري جوفي أو تيار تحتي متدفق دون وعي أو تدبر في أغلب الأحيان. ويتشـــكل من موروثات مستعارة من ثقافات أقدم، ومن ثم تتسرب معتقدات وممارســـات كثـــيرة تنتمي إلي تقاليد قديمة تراكمت من رواسب ثقافية ذات روافد متعددة، فالعقائد القديمة قد تختفي ولكنها تزاول تأثيرها.

ويمـــثل المتصـــل القومـــي، علي هذا الوجه، الجوانب المعيشة من كل ألوان التراث الذي صنعته أجيال الماضي السحيق.

يبقـــي الطـــابق الثالث أو المستوي الأخير، وهو الثقافة الرسمية القائمة المعـــترف بها علي مستوي الوعي والتصريح، وهي التي تتزامن مع رواية الحكايـــات، وتمـــثل آخـــر مرحلة لحركة الثقافة، تقدما كانت أو انتكاسا أو ركودا.

وهـــي مـــا تتمـــثل في(ألف ليلة وليلة) في الأشعار والأقوال الحكيمة والردود التي تستعار من مذهب سائد مثل الشافعية أو الأشعرية أو غيرهما. فنحن واجدون في حكاية تودد الجارية، مثلا، أنها تستمد إجاباتها في مجلس هارون الرشيد من فقه الشافعي الذي لم يكن قد ظهر في عصر الرشيد، ولن نقـــف طويـــلا عـــند هذا المستوي الثقافي لتحديد الفلسفة الشعبية السائدة في الحكايات، بل سنعول كثيرا علي المستويين السابقين.

غـــير أنـــنا نجد عند هذا المستوي ثلاثة أمور ترسم في مجملها حدود الفضاء الروائي في الحكايات.

أولهـــا الإحســـاس بـــالوجود الراســـخ للحاكم، وفي كل الحكايات نجده عنصرا أساسيا في نسيج السرد، فثمة علاقة لا تتخلف قط بالحكم أو الملك، تـــتخذ صـــورا متعددة ومتباينة. فالكون يحكمه الله ولكنه يفوض الخليفة أو الملك أو الحاكم في تسيير الحياة، فالدين والملك توأمان (حكاية الملك عمر النعمان ووليه- جزء أول) والمواطن العادي عبد بالنسبة إلي السيد الحاكم، وهو بمثابة الكلب إزاء السبع(التاجر أيوب وابنه غانم- جزء أول) والحاكم

ليس مجرد بشر يحمل سلطة أو يملكها، بل هو جزء من قوي العالم الكونية بمقتضي تمثيله لله.

وثانيها هو غلبة الطابع التجاري علي المجتمع الذي يتمثل في نوع من الحـــراك الاجتماعي السريع المتقلب وفقا للحصول علي الثروة أو ضياعها، ولكن، في ظل تدرج اجتماعي صارم بقدر درجة القرب من الحاكم أو البعد عـــنه، بحســـب هـــبوط الثروة وفقدانها المباغتين، وبذلك يتمدد التسلسل في مراتـــب البشـــر الذي يسحق فيه الفرد ويخضع لقوي غيبية أو غريبة عنه، ومن ثم، يضع البشر ثقتهم في عون خارق، ويتنفسون جوا تهدده الكارثة كل لحظة.

ويفـــرخ العاملان السابقان ثالث الجوانب، وهو الأهمية الممتازة للجسد البشري الذي يغدو بطلا من نوع خاص في معظم الحكايات إن لم يكن فيها جمـــيعا. فالخضـــوع الكامل لأهواء الحكام ونزوات الثروة المراوغة لايبقي للجماهـــير مـــن البســـطاء، التي نحيت عن المشاركة في حكم نفسها، سوي الجسد لتباشر عليه طموحاتها وآمالها وأساليبها ومهاراتها.

والجســـد يحيل إلي المرأة التي تصبح موضوعا للتملك وتحقيق الرغبة. ومـــن اللافـــت للـــنظر أن كل صور الإسهاب والتفصيل في عرض أشكال المتعة الحسية التي قد تبلغ أحيانا كثيرة حد الفحش، كلها دون استثناء تحدث فـــي إطـــار مـــا هو حلال من الوجهة الشرعية، فالجسد هو الهدف، وهو المكافأة، وهو أيضا طريق الآلام.

وبعبارة موجزة، فإن الفلسفة التي تقدمها الحكايات علي سبيل التصريح والتـــي أسلفنا بيان أبرزها، إنما تنسب إلي الطابق أو المستوي الثالث الذي يتفق مع الأفكار المعلنة التي تتبناها السلطة في أغلب الأحيان أو التي، علي الأقل، لاتثير سخطها واستياءها، أو تبعث علي نقمة أو استعداء علماء الدين من ذوي الحظوة الأميرية.

أمـــا الفلســـفة التي تستقر أصولها في مكامن اللاوعي، وتشكل الفلسفة الشـــعبية التـــي تجـــري الحوادث وفقا لها، فإنها ترتد جميعا إلي المستويين الآخرين من ثقافة الجلد، والمتصل القومي أى المشترك الثقافى.

فـــإذا مـــا توجهنا إلي نظرية الوجود أو الأنطولوجيا في نطاق الفلسفة المستخلصة من الحكايات، فإننا واجدون نظرة سائدة تجعل من الكون، علي تـــنوع كائـــناته وعناصره وعوالمه من جماد وحيوان وإنسان وجان، وحدة

بيـــنها تواصــل وخطــاب مشترك، وتفاعل علي مستوي الانتماء إلي عالم واحد. فعالم الحيوان وكذلك عالم الجان المؤمن منه والكافر، يحادث الإنسان ويعاونه أو يعوقه عن تحقيق أهدافه. والجمادات لها كلمات تفتح أبوابها لمن ينطقها وتوصد دون من لم يعرف الحديث باللغة المشتركة، مثل باب مغارة علي بابا والكثير من الكنوز المرصودة.

وعـــالم الفضــاء زاخر بالجان، كما أن البحار لها عالمها الشبيه بعالم الإنسان، وتحمل القماقم التي تسجن العفاريت. بل إن ما يحسبه الإنسان من خلاء يتصرف فيه كيف شاء مسكون بعناصر أخرى مثل ابن العفريت الذي أصـــابت صدره نواة تمرة ألقاها التاجر سهوا فقضت عليه في الحال(حكاية التاجر والعفريت) وهي أول ليلة من ليالي ألف ليلة وليلة.

وتتشـــابك تلك العوالم جميعا في تقرير مصير الإنسان كما تؤلف حبكة الســـرد، وهذا التصور لوحدة الكون، علي هذا النحو، هو بنفسه عماد الفكر الأسطوري علي تنوعه وتعدده.

فالأســطورة هـــي أول محاولة للإنسان لتسجيل الوجود الإنساني داخل الكـــون متحديا الفناء، والاضطراب، وسطوة الطبيعة. فأهداف الإنسان التي صـــاغها أسلوبا لتحقيقها هي قهر الفناء بالخلود، ومحو الاضطراب والعماء بفـــرض الـــنظام علـــي الأشـــياء جميعا، ومواجهة الطبيعة بالسيطرة عليها وتسخيرها، والقضاء علي العزلة بالتضامن والاندماج في الكل الواحد، وهي تتفق مع الفن في نسيجه، وكانت بديلا عن المعرفة العلمية، ولذلك، نجد أنها غـــير عقلانـــية لا تعـــتمد العلـــية أو العمومية، وتقوم بتوزيع الأدوار علي الفاعلين دون تفرقة بين البشر والقوي الإلهية أو الغيبية وكائنات الطبيعة، أو بين الأحياء والأموات.

وتضفي الحياة وتنفخ الروح في كل الكائنات علي النحو الذي نعرفه من النزعة الإحيائيةanimism، فكل شيء حي ويحمل بين جوانبه نفسا.

وأمـــا الزمان في الأسطورة، فإنه يقف عند لحظات معينة، ولا يواصل تدفقـــه المعتاد، ويعامل بمفهومه اللاهوتي الذي لا تتمايز فيه الأبعاد الزمانية مـــن ماض وحاضر ومستقبل، بل تتجانس جميعا في نسيج واحد هو الغيب الـــذي يعـــد عالم الشهادة بالنسبة إليه مثالا كاشفا أو موضعا قد انحسر عنه رداء الغيب السميك. والمستقبل، قار حاضر علي امتداد لحظات الزمان كما تعرض للإنسان.

ويــتوزع المكـــان إلي بقاع بعينها، بحيث لا يكون إطارا حاويا عاما، وتنـــتقل بعــض الكائنات في الزمان كما ينتقل غيرها في المكان مثل سيدنا الخضر.

ويختفـــي فـــي الأسطورة الفارق بين ما يشير إلي الواقعي الفعلي وما ينسجه الخيال. وتسري فيها الانفعالات الحادة والمشاعر العنيفة بين أصحاب الأدوار المرســـومة الذين يوثق بينهم لون من صلات القربي التي تحل فيها بعض العناصر الطبيعية والكائنات بديلا عن صلات الرحم والدم.

وممـــا يزكي استعمالها بكثرة في الحكايات أنها تقترب في طابعها من القــص والـــرواية مـــن حيث السرد والدرامية، وهو ما يتجلي في التكوين المؤتلف لها، ووضوح علاقات التوازن والتضاد والصراع، وبروز وحدات الإيقـــاع، فضـــلا عـــن غلبة تيمة أو موضوع رئيسي يسري في أوصالها جميعا.

وتلتـــئم تلك الجوانب بأسرها في نسيج موحد يجعل من الأسطورة كياناً يـــتعامل الإنسان من خلاله مع الطبيعة أو العالم، وقد فقد استقلاله وانفصاله عنه، ليصبح وجودا إنسانيا أيضاً.

وعلي هذا الوجه يتمكن الإنسان، علي الصعيد الخيالي، من قهر الغربة أو العـــزلة عـــن العـــالم عـــندما يحوله في الأسطورة إلي مستوي الوجود الإنساني، فيستبدل الأسطورة بالعالم الغريب المنذر بالخطر، عالما أو وجودا إنسانيا مغايرا، ولكنه وجود إنساني أليف.

فهـــو عـــالم مســـكون بقـــوي شبيهة بالإنسان تستطيل فيها الإمكانات المحدودة للإنسان وتمتد لقهر خوفه وغربته وعزلته بما تتيح له من إمكانات خارقة. وتقترن الأسطورة بالسحر، ولئن كانت الأسطورة بديلا عن العلم أو جنيـــنه الأول، فـــإن السحر هو تكنولوجيته، فالسحر، من حيث هو محاولة عملـــية للتحكم في الطبيعة وتغيير مسار حوادثها، يفترض وجود نظام واحد معيـــن تخضع له الحوادث الطبيعية والإنسانية علي السواء، وأن هذا النظام يمكن أن يذعن للمعرفة والتعلم علي يد الساحر أو العرّاف بمواهبه الخاصة وأدواتـــه التـــي لايقـــدر علي اصطناعها سواه، فنحن في الحكايات نصادف سحرة كما نصادف نساء قد تعلمن السحر أو أتقن صنعته.

وســـواء رددنـــا مسار الحوادث إلي التصور الأسطوري أو إلي التقنية السحرية، فإننا نواجه دوما محتومية سابقة لا تترك نصيبا لأبطال الحكايات

كـــي يمارســـوا أفعالهم الحرة، أو أن تصاغ مسارات الحبكة بحسب نواياهم ومقاصـــدهم. فالحكايات لاتدور بين شخصيات يمكن تحديد معالمها، بل بين شـــخوص لا لون لها ولا مذاق، وأحيانا بلا أسماء وحسبها تعيين عمرها أو تحديد مهنتها أو عملها.

فكان لابد من تسطيح الشخوص ليحل مكانها المسار الصارم للحوادث، فليس المهم هو ما يحدثه الشخص، بل ما يحدث للشخص، والقدر هو الفاعل ونوابـــه مـــن الملـــوك وأصحاب القوي الخارقة ومهرة السحرة، فهو ومعه هؤلاء هم أصحاب القرار والإرادة الكونية.

فالســـعادة لايـــبلغها المرء بنفسه، بل هي التي تدركه، فكثيرا ما تتردد عبارة وأدركته السعادة(حكاية الوزيرين التي فيها ذكر أنيس الجليس- جزء أول). وعندما يشكو السندباد البري أي الحمال سوء حاله الذي يقارنه بحال السندباد البحري قائلا: هذا المكان صاحبه في غاية النعمة.. وقد حكمت في خلقـــك بمـــا تريد وما قدرته عليهم فمنهم تعبان ومنهم يستريح ومنهم سعيد ومنهم من هو مثلي في غاية التعب والذل، ويسمعه السندباد البحري، فيحكي لـــه مـــا حدث له، ثم يختم قائلا: فانظر يا سندباد يا بري ما حدث لي، وما جري لي، وما وقع لي(حكايات السندباد- جزء ثالث). فهو لايقول: فانظر ما صنعت وسعيت وغامرت، بل يصور نفسه مفعولا به تجري له الأحداث ولايشارك في صنعها.

ولذلـــك، كـــان الفعـــل الفردي غائبا أو باهتا، بينما الحدث هو الناصع الخـــارق، وهـــو الأهم في معظم الحكايات، فثمة إرادة عليا هي التي تحرك الشـــخوص كالدمـــي وترسم له الحوادث. ولا يصنع البطل الحادث الخارق بنفسه ولكنه يصبح أداة في يد قوة خارقة عليه أن يكسبها إلي صفه كي تقوم هـــي بـــأداء الفعـــل الخارق الذي يحدد مسار الحوادث، والمطلوب فقط من الشخص التسليم الكامل لهذه المحتومية.

غـــير أن هـــذا التصور الأسطوري للمحتومية يحمل في طياته اعتقادا موروثا قديما بـــالثنوية التي تؤمن بإلهين، واحد للخير أو النور وآخر للشر أو الظـــلام. والفلسفة الشعبية تضمر ذلك الاعتقاد، ولكن بعد توزيع الأدوار بين الرحمن والشيطان، فلكل منهما مملكة، وثمة حرب قائمة بينهما ينتصر فـــي نهايـــتها الرحمن، وجنود الفريقين تتوزع بين السحرة والجان، والبشر أيضا في كثير من الأحيان.

فالســحر إمــا ينزع إلي وجهة غير وجهة الله، حيث يؤدي إلي إفساد الكون، أو يتجه إلي نصرة الخير، ومن ثم، فلابد للصنف الأول من التقرب إلــي الشــياطين بمــا يرضــيها وهــو الخروج عما يرضاه الله كي تصنع خوارقهــا. فنجد في حكاية الحمال مع البنات من يطلب عدم تسمية الله حتي ينجي البطل من الغرق، أو تتكرر الحكايات التي تتحدث عن العفاريت التي تشــترط عــدم التقرب إلي الله، بما ينبغي له من ذكر أو صلاة، حتي تؤدي مهمــتها علــي الوجــه الأكمل وإلا أخفق البطل في الحصول علي رضاها وأوقعته في المحاذير التي يخرج منها، فيما بعد، بقدرة الله.

بــل إن هــذا الإنســان مقســم علي قوتين، فيده اليمني أو رجله تتبع الرحمن، علي حين أن يده اليسري أو رجله تحت إمرة الشيطان.

أمــا نظــرية المعرفة أو الإبستمولوجيا في الحكايات، فهي أقرب إلي المعــرفة الحدســية التــي يتلقاها المرء دون وساطة من إدراك حسي، أو اســتدلال عقلــي. وأكــثرها يعتمد علي الرؤيا، وهي الأحلام الكاشفة عن الحوادث سواء في الماضي أو الحاضر أو المستقبل.

وتســتمد نظرية القيم دعائمها من الثنوية الأنطولوجية، فالأخلاق ليست ممارسة واختيارا، بل هي أقرب إلي الجبلة والتكوين المتشيئ، ولذلك، توزع علــي الكائنات والبشر تلك الخصال الأخلاقية، فتغدو حاملات أو مجسدات لهــا، ولا يســمح بأي تطوير لها ينقلها من صفة إلي أخري، بل تظل تقوم بدورهــا باعتــبارها كــيانا يمثل الخير أو الشر علي نحو مطلق لا يسمح باستثناء.

وأخــيرا، فلعلي أسرفت في المقدمات النظرية، غير أني آمل أن تغري الــبعض بتطبــيقها بأفضــل مني، وتعقب تفاصيلها علي الوجه الذي يجلو خصوبة الحكايات وثراءها.

ومهما يكن من أمر، فكل ما عرضته من تمارين فى النقد الثقافى أقدمها للقــارئ لكى يتولى تصحيحها وتقويمها وشأنها فى ذلك هو شأن كل أنواع التمارين فى كافة المجالات الدراسية.